٢٥ ل.ل.

توطئة

مقدمة

القسم الاول

معارضة الاب لامنس تماماً الخ

القسم الثاني

اثبات كون المردة او المردائيين هم غير الجراجمة والانباط



كتاب

البراهين الراهنة في حل المردة والجراجمة والموارنة

للمطران يوسف دريان

رئيس اساقفة طرسوس

والنائب البطريركي الماروني

عفي عنه

دار كنعان

طبعة جديدة طبق الاصل
١٩٨٤

بحث تاريخي

في المردة والجراجمة والموارنة

باسم الآب والابن والروح القدس
الاله الواحد آمين

توطئة

في آداب المناقشة

ان من الاقوال المأثورة والمبادئ الاولية الراهنة التي لا تحتمل عند اهل النطق ارتياباً ولا يجوز فيها مناقشة عند اهل الادب لقولاً شائعاً هو « ان الحقيقة بنت البحث »

اما البحث عن الحقائق الغامضة فهو من اجل مقاصد الخاصة من اهل العلم والادب الذين احيوا الليالي وصرفوا اطيب حياتهم وبذلوا النفس وكل نفيس في سبيله خدمةً للحقائق وللانسانية وهو على ضروب شتى افضلها ما كان بالقياس المنطقي بحيث تصدر النتائج القوية عن مقدمات صحيحة راهنة لا يختلف فيها اثنان اما اذا كانت المقدمات مما يرتاب في صحته فينال النتائج من الريب والقلق ما ينال المقدمات بلا محالة . ومن هنا تتولد المناقشات والمجادلات بين العلماء وبواسطتها يظهر غث الكلام من سمينه فيتقرر الحق في جانب من كان كلامه وبراهينه ومستنداته وبيناته ومقدماته ارصن وامكن وارسخ وابين او اقل ارتياباً وقلقاً

لان النتائج التي تتقرر بها الحقيقة تستفيد قوتها من تلك المقدمات ولذلك ترى كلاً من المتناقشين على قضية من القضايا الغامضة يجهد نفسه في بيان صحة مقدماته وضعف مقدمات مناظريه حتى يثبت نتيجته و يسقط نتائجهم بما امكن من البراهين والبينات . وهنا تتزاحم العقول السنية ويتسابق اهل الاجتهاد في الدرس والمراجعات والتنقير والتنقيب والبحث والتفتيش عما يثبتون به مقدماتهم ويذودون عن حياضهــا حتى يصدعوا اخيراً بصحة نتائجهم او قضاياهم التي يتناقشون عليها وهكذا يذهب كل فريق من طريق باذلاً قصارى جهده وجده باخلاص نية وقوام قصد سعياً وراء الحقيقة . وقد يتوفق بعضهم الى اكتشاف شيء جديد مما يفيد في اثبات القضية في الجدال ويعضهم الى غيره ويعرضه بعضهم على حكم العقل والذكاء ويعارضه بعضهم وهكذا جميعهم يتعاونون في خدمة العلم والادب ويتنافسون في اخلاص هذه الخدمة وكلهم غايتهم واحدة شريفة وهم اخوان لأم واحدة هي الحقيقة بنت الحكمة الازلية.

ومن ثم ترتب على مثل هؤلاء ان يكونوا مجردين عن كل هوى وخيلاء . ومنزهين في ابحاثهم وكلامهم عن الزيغ والمراوغة وحب الذات مما قد ينزلهم منزلة الجهلة الذين تتبرأ منهم الحكمة والفضيلة وان يكونوا مخلصي النية في كل ما يتحرون درسه واثباته قصد النفع المطلوب من وراء هذا النصب حتى اذا توصلوا بكدهم وجدهم الى ضالتهم المنشودة نالوا الفخار وعلو المقام في المجتمع الانساني والاجر عند الله مما يؤدي بهم الى ان يحمدوا حسن المغبة وينسوا ما تجشموا من المشاق في هذا السبيل . والعكس بالعكس لان المتناقشين اذا زاغوا عن هذه الطريقة المثلى ضلوا واضلوا الغير من السذج ونكبوا عن الحقيقة بحيث كلما توغلوا في المناقشة زادوا بعداً عنها وبذلك يتركون غايتهم الشريفة و يعمدون الى ما خالفها فيلجأون الى المغالطات المنطقية المذمومة ويفرغون الجهد في امتهان

مناقشيهم ونقريعهم وتقريعهم واهانتهم واذلالهم بالكلام الساقط مما يفضي الى ما لا تحمد عقباه . فكاني بمثل هؤلاء يعتقدون انهم كلما بالغوا في امتهان مناظريهم واذلالهم يزيدون براهينهم قوةً وبياناً وهذا مما يرفضه الذوق السليم ويمجه العلماء الراسخون من اهل الفضل بل هو من الامور المذمومة التي يرذلها الراي العام ولهذا قيل « لا تلتفت الى من قال بل الى ما قال » وهو قول من الحكمة بمكان كما لا يعزب عن ذي بصيرة .

وعندنا ان الذي يجتهد في الحط من قدر خصمه يحط بالاحرى من قدر نفسه لانه اذا كان مناظره منحط المقام الى الحد الذي يجتهد في ابلاغه اليه لا يليق به وهو الرجل الشهم الكريم والعالم المفضال ذو العقل الثاقب والراي الصائب كما يريد ان يظهر نفسه للناس ان يناقش مثل الرجل الذي يتحامل عليه هذا التحامل فلو تعقل لكان اجدر به ان يجتهد بالاولى في حفظ كرامة مناظره والاقرار بمقامه وفضله لينال الفخر بانه انما يناظر رجلاً مشهوراً بالفضل والعلم والذكاء والاجتهاد حتى اذا ظفر به بالبرهان وحسن البيان خدم الحقيقة ونفسه معاً وفاز بالمدح وطيب الثناء عند جلة العلماء وخطب رضى مناظره باللطف واللين وربما استجلبه الى رايه من اهون سبيل

ولهذا تحذراً من وقوع احداث العلم والمناقشة في مثل هذا العيب المذموم الذي قد يدهورهم في قاع الضلال وضع العلماء الاعلام اصولاً وقواعد للمناظرات والمجادلات والمناقشات العلمية اخصها اعتبار الخصم ومنزلته من العلم ومقامه بين اهل الادب والاقرار بفضله وتنزيهه عن الهوى وحسن الظن به ما امكن وسماحة الحقيقة ثم الاخلاص في ايراد كلامه وبراهينه التي تُقصد معارضتها وفي الروايات التي يُستند اليها في ذلك :

ومن الامور المحمودة جداً في المناقشة ان يلخص المعارض القضية التي يدور عليها الجدال ويبينها بايجاز ويضعها نصب عينيه في بحثه حتى تكون

غاية بيانه من حيث الصحة وعدمها على ما يريد وتريد الحقيقة وتكون هي نتيجة براهينه وبيناته بحيث يسلك في كل ذلك مسلك الصدق والوضوح على ما تقتضي قواعد الاقيسة المنطقية الصحيحة التي عليها المعوّل في صحة البرهان .

ومن الناس من ياخذ القضية التي عليها الجدال فيجعلها مقدمة لنتائجه مع انها غاية المناقشة مما يجب اثباته او رفضه ومنهم من يبني مقدماته على اساس هار كالافتراضات الغير المعقولة او الواهنة فيستخلص عنها نتائج صحيحة راهنة وهذا من باب المغالطة المنطقية التى لا تكون مقصودة وانما جاءت من باب الذهول عن الموضوع وعن طبع المقدمات مما يذهب بالتعب سدًى ويشوه محيا الحقيقة فعلى المتناظرين والحالة هذه ان ينتبهوا جهد المستطاع الى هذا الخلل في الجدال الذي قد يبعث الى المكابرة في الحق الواضح ويبلغ بهم من حيث لا يدرون الى مس العواطف الشخصية وهذا مما جاء رفضه وذمه عند اهل الادب على ما ذكرنا آنفاً . فاحرى اذاً بالمتعارضين ان يدرسوا اولاً كلام خصمهم حق دراسته ويتبحروا فيه ويتدبروه حق تدبره ويلخصوه في ذهنهم حتى يتشربه ويهضمه ويعرف مواطن الضعف منه وكيف وجه معارضتها وبعد ذلك يكتب المناقش منهم مايراه مناسباً للمقام والموضوع الذي بين يديه بحسب الاصول متحامياً ما امكن كل عثور في ميدان الجدال حتى يدرك الغاية المقصودة سالماً

ولا ينكر ما في المجادلات من الحيل الادبية البديعة الا ان ذلك مما يتعلق بفن الانشاء واساليبه اللطيفة كأن يجتهد الكاتب في ابراز الموضوع او القضية المتناقش عليها في قالب ابين للعيان او في تقليب البراهين والادلة التي يماحكها وتجريدها من الكلام المزين الذي يستر بعض الاحايين وهنها حتى يظهر المحال او ما شاكله منها ولكن بحيث يضيء نور الادب من خلال كلامه ويتحامى تحريف المعاني وتزييفها وانتضابها والطعن في

قائلها لانه ليس هو المقصود من المناقشة بل انما المقصود القضية التي يدافع عنها او يثبتها او ينقضها والبراهين التي ياتي بها لهذه الغاية

فاذا توفرت كل هذه الشروط في الجدال لايحق لمن يُعارَض كلامه ان يتعض و يستسلم الى اميال النفس الامارة بالسوء فيحمل على معارضه كانه عدوه ويوسعه ملاماً وطعناً لئلا يظهر ضعفه وانغلابه له من حيث لا يدري . اما اذا كان لا بد من الانغلاب لقوة براهين الخصم الظافر فالصمت اولى بل احق باهل الفضل من العلماء وبخدمة الحقائق النبلاء واشرف كثيراً ان يقروا بخطاهم و يرجعوا الى الصواب بعد الاقتناع ويصرحوا بذلك دون خشية ولا استحياء حتى يعلم الناس انهم من اخلص المحبين للحقيقة المفاخرين بخدمتها وهذا حسبهم . ويظهر ايضاً للملا اجمع ان مثل البحث المجرد عن الشوائب والمنزه عن كل جازم وناصب خليق ان يكون ابا الحقيقة وامها وهو احق بالاتباع

المقدمة

في خطة هذا البحث

قال احد الفلاسفة [١] « قد تشكل قضية من القضايا على ادق العقول في زمن ما بسبب ما يعتورها من الصعوبات حتى لا يستطاع الى حلها من سبيل ثم تصبح سهلة المنال حتى لا يتردد فيها اصحاب العقول العادية بعد المباحث والمناقشات الشتى التي تُصرف تنقيراً في اقل دقائقها وقد لا يتأتى ذلك عن اكتشاف مادة جديدة مما يزيد في بيان الموضوع

(١) الاب سمدت اليسوعي « مبادي الانتقاد التاريخي (ص ٤٤ من طبعة لياج سنة ١٨٨٣

واسباب الاقناع كما يتفق خاصة في المواد التاريخية بل ولو استوت المعارف والمواد وقوة العقل الطبيعية ترى بعض الاحايين رجلاً من اهل عصرك اصوب في حكمه بشانها على وجه العموم واحزم ممن عاش قبله بزمن غير يسير»

فاذا تقرر ذلك علم كل من طالع نبذتنا هذه من البحث في امر المردة والجراجمة والموارنة اننا ابعد من ان ندعي فضلاً على من سلف من علماء الموارنة الاعلام ومن سواهم ممن شاع فضلهم وسعة اطلاعهم وقوة عقولهم وغزارة علمهم على رؤوس الملا حتى عدوا باجماع الراي من المبرزين في فن التاريخ خاصة واحتسبت اقوالهم حجة دامغة يرجع اليها ويوقف عندها في كثير من المواد المهمة فلا نطمع والحالة هذه ان نجاريهم في مضمار او ان ندرك لهم اثر غبار ونحن نقر بكل عدل وارتياح اننا انما درسنا هذه المادة عليهم واخذنا ما اثبتناه من الشواهد في هذا البحث عنهم بعد ان قفينا آثارهم قصد الاستفادة وليس الا

اما بعد فان الذي حدا بنا الى الخوض في هذا البحث الدقيق وادخلنا في هذا الطريق الوعر المسالك انما هو ما كتبه حضرة الاب الفاضل والباحث المدقق هنري لامنس اليسوعي في مجلة المشرق الغراء التي ينشئها وينشرها في بيروت حضرة الاباء المرسلين اليسوعيين الفضلاء لفائدة ابناء المشرق . فان هذا الاب العالم الفاضل اذ بلغ في بحثه النفيس عن آثار لبنان الذي ينشره تباعاً في المجلة المشار اليها الى ذكر المردة بين الشعوب التي سكنت هذا الجبل المبارك ثم الى الجراجمة ثم الى الموارنة قد اظهر الريب في كون المردة هم عين الموارنة كما اثبت جلة مؤرخي هذه الامة وبعد ان اثبت ملخص ما يستند اليه هؤلاء في تقرير هذه القضية تطرق الى اثبات لباب مستندات المعارضين دون ان يصدر حكماً في ترجيح راي على آخر رغماً عما ظهر من ميله الى الراي المخالف راي علماء

الموارنة . ثم انه عند كلامه عن الجراجمة قد مال بكليته الى قضية جديدة وهي التي كان ذهب اليها على قوله حضرة العلامة نلدكه المستشرق الالماني الشهير فقال ان المردة هم عين الذين يسميهم مؤرخو العرب بالجراجمة واستشهد لذلك كلام البلاذري الذي له الاولية على ما نعلم بين مؤرخي فتوحات العرب وهو اول من تكلم عن هولاء الجراجمة وذكر اصلهم واحوالهم وحروبهم ايام فتوحات العرب السورية

فنهض لمعارضة هذا الاب لامنس ومناقشته في امر المردة والموارنة سيادة الحبر العلامة المفضال المطران يوسف الدبس الشهير بمؤلفاته العديدة وشدة حرصه على تاريخ امته المارونية واثارها في مقالة ضافية الذيل نشرت في مجلة المشرق المذكورة في السنة الغابرة وقد علق عليها حضرة الاب لامنس حواشي دقيقة يستشف منها انه لم يزل غير مقتنع بما خالف رايه المنوه به

ثم برز حضرة الكاتب المدقق الاب انستاس الكرملي الماروني الاصل وكتب من بغداد مقالة مشبعة اسند بها راي الاب لامنس المذكور في كون الجراجمة والمردة اسمين مترادفين لشعب واحد بعينه هو غير الموارنة ونشرت هذه المقالة ايضاً في احد اعداد المشرق وقد عارضه فيها سيادة الحبر العلامة المشار اليه بمقالة ثانية نشرت ايضاً في المشرق وذيلت بكلام يظهر عدم الاقتناع بما جاء فيها من البراهين . وقد ظهر من كل ذلك راي سيادته في هاتين القضيتين ان المردة هم عين الموارنة وان الجراجمة هم غير المردة وبالتالي هم غير الموارنة كما يرى كل من طالع الردين المذكورين

اما نحن فقد كنا نطالع برغبة وحرص كلما ورد في هذا الباب حتى اشغل خاطرنا امره واخذنا من ثم نتقصى الحقيقة التاريخية في هذه المادة بحسن نية وسداد قصد مع ان الذي كان متغلباً على وهمنا وقائماً في ذهننا

دون تنقير ولا تنقيب انما كان ان المردة والموارنة سيان لا يختلفان بغير الاسم كما تلقينا عن السلف مما قد قبلناه على علاته حتى استغربنا ولا ننكر ما جاء في معارضة هذه القضية ولم يكن كلام الاب لامنس الذي اورده في معارضتها ليشبعنا لما جاء فيه من المناقضات التي كانت تضعفه عن رد براهين علماء الموارنة فاخذنا نقابل بعض كلامه ببعضه منقرين فيه بجد وعناء حتى ترجح عندنا ان الجراجمة قد يمكن ان يكونوا ممن اطلق عليهم في ذلك الزمان اسم (موارنة) ولكنهم غير الذين دعوا (مردة) ودخلوا جبل لبنان من الخارج ثم رحلوا عنه . وهذا مما استلفت نظرنا الى قضية جديدة وهي ان المردة ليسوا الجراجمة كما زعم حضرة الابوين لامنس اليسوعي وانستاس الكرملي والعلامة نلدكه المستشرق الالماني الشهير قبلهما وليسوا الموارنة كما زعم بعض السلف من علماء طائفتنا . فانتقلنا فوراً من الموضوع الاول الى اثبات قضيتنا هذه الجديدة بما بين ايدينا من الادلة التاريخية مضروباً على القواعد المنطقية القويمة دون ان نتعرض لأيٍ كان من الناس

وفي غرة شهر ايار المبارك من شهور سنة ١٩٠٣ الغابرة انتهينا باذن الله من هذا البحث على ما وضعنا ونشرناه غفلاً عن الاسم قصد ان نزفه الى العلماء الاعلام لنستطلع رايهم فيه ولقد قسمناه الى قسمين ناقشنا في القسم الاول منه حضرة الاب لامنس اليسوعي الفاضل فيما اثبته الى ذاك الحين في مقالته المنوه عنها من الشواهد والاراء والنتائج التي استنتجها من ذلك وتحرينا بيانه كونها على ما وردت اضعف من ان ترد براهين علماء الموارنة . وفي القسم الثاني جئنا الى تقرير راينا الذي نوهنا به آنفاً

ولم تبق هذه المقالة مجهولة المصدر فان جريدة البشير الغراء التي ينشرها حضرة الاباء اليسوعيين في بيروت قد كشفت اسم كاتبها بعد ان اطرتها في العدد ١٦٠٣ الذي صدر في ٢٠ تموز من السنة نفسها اذ قالت

تحت عنوان (بحث في المردة والجراجمة والموارنة) ما حكايته « والبحث المشار اليه غفل عن العنوان لم يذكر فيه شيء عن اسم موٴلفه غير انه لما كانت الكتابة كصورة الكاتب استدللنا منها ومن غيرها ان واضعه هو سيادة العالم المدقق المطران يوسف دريان النائب البطريركي الماروني وقد نهج فيه نهج الباحثين المحققين الذين لا مطمع لهم غير الحقائق .. ولا يخفى ان المسائل التي خاض فيها سيادته هي من المواضيع التي تتباين فيها اراء العلماء على ان كل محب للتاريخ لا يسعه الا ان يثني معنا على مسالكه القويم وصدق اعتباره للعلم وحسن نيات الذين يناقشهم لان المناقشات العلمية اذا جرت على هذا النمط كانت خير وسيلة للوصول الى الحقائق .. »

فتصدى لمعارضتنا في قسم من قضيتنا حضرة الاب العالم العامل انستاس الكرملي ووجه الينا كتاباً مخصوصاً في هذا الشان بتاريخ ٣ تموز من السنة الغابرة نفسها في غاية الرقة قال في صدره ما نصه : « ورد اليَّ سفركم وفي صدره كلمات توٴيد ان سيادتكم هي التي تفضلت عليَّ بارسال الكتاب الى الحقير فطالعته بشوق عظيم ووجدته على جانب رفيع من متانة العبارة وقد اتخذتم اسلوباً جدلياً يدل على حكمة وعقل ودراية قلما توجد في ابناء العصر ومما استحسنته كل الاستحسان واوافق عليه باللسان والجنان هذه القضايا :

اولاً . ان سكان جبل لبنان والجراجمة سكان جبل اللكام هم الذين اطلق عليهم معاً اسم « موارنة » (مقدمة)

ثانياً . ان الموارنة كالمردة كانوا خاضعين لملوك قسطنطينية (ص١٦)

ثالثاً . ان لفظة المردة اذا اريد بها الموارنة غير مشتقة من اصل عربي او ارامي

واما الذي لا اوافق عليه بعد ريثما تقنعني البراهين كل الاقناع فهو ان المردة غير الجراجمة بل باقٍ على رايي كون الاسمين يدلان على

مسمى واحد . »

وقد اردف كلامه هذا ببراهين جديدة وجاوبناه على كل ذلك بكتاب خاص ايضاً وورد الجواب منه عليه بتاريخ ١٥ تشرين الاول به يظهر الاقتناع بكل قضيتنا مظهراً من الفضل والتجرد ما انطقنا بالثناء عليه

ثم عارضنا في قسم اخر من هذه القضية سيادة العلامة المفضال المطران يوسف الدبس السامي شرفاً وحرمة برسالة مذيلة بتوقيعه نشرت بالطبع وهي خالية من التاريخ وعنوانها (المردة والجراجمة هم الموارنة . وليس المردة خيل الروم) وقد صرح اعزه الله في اولها (ص ٨) بانه استصوب راينا في كون الجراجمة هم غير المردة كما برهنا ضد القضية المخالفة وقال في ذلك ما حكايته بالحرف « ولما طالعنا الان براهين مؤلف البحث المذكور (الذي يتجاهل عن اسمه في هذا الرد رغماً عن شيوعه) صوبناها وعدنا نبين ان الجراجمة ليسوا المردة بل هم شركاهم في غزواتهم ونصراهم واخوانهم معتقداً ونزعةً وجامعة الفريقين المارونية »

فرددنا نحن براهينه ضد قضيتنا تلك بقدر ما كانت تسمح الظروف وشهرنا بالطبع في كريريسة على حدة ردنا هذا مع ما دار بيننا وبين حضرة الاب انستاس على ماذكرنا آنفاً تحت عنوان (عود الى البحث في المردة والجراجمة والموارنة) بتاريخ ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٠٣ موقعاً بامضائنا ولما لم يكن ما اثبتناه فيها ليقنع سيادة المشار اليه كتب الينا ما عنّ له من البراهين الجديدة في اثبات قضيته ودحض قضيتنا في كتابين خاصين قدمنا له الجواب عليهما بما وجدناه مناسباً فلم يشأ ان يبقي ذلك مستوراً بل نشر مقالة طويلة في العدد ١٤٢٧ — ٥٠ من جريدة المصباح الاغر بتاريخ ١٨ شباط من هذه السنة الجارية اودعها خلاصة ما كتبه الينا في رسالتيه المذكورتين دون ان يذكر جوابينا عليهما واردف ذلك ببراهين جديدة خطرت له ثم حكم لنفسه بصحة قضيته وببطلان قضيتنا مما اقتضى

منا التعجب واضطرنا الى نشر كريريسة اخرى بها نبطل دعواه وندع الحكم الفاصل في ذلك لثالث من ارباب العلم والانصاف وجعلنا عنوانها « ختام الجدال في امر المردة والجراجمة والموارنة » وهي مؤرخة في ٢٨ شباط من هذه السنة وصار الاقتصار على هذا الحد

وقد كنا في اواخر العام الغابر وقفنا على مقالة كتبت باللغة الايتالية ونشرت في احدى المجلات العلمية لحضرة التاريخي المحقق والعلامة المدقق السنيور دي غوبرناتيس قنصل دولة ايتاليا العام سابقاً في بيروت وحالاً في كرفوه بحث كاتبها النحرير في اولها عن زمن دخول هؤلاء المردائيتي او المردة الى جبل لبنان وعن اصلهم وسبب مجيئهم واستيطانهم فيه الى ايام يوستنيانوس الاخرم الذي اخرجهم منه . ولما كان مثل هذا البحث مما يتم بحثنا من حيث تقرير اصل هؤلاء المردائيتي وكان من جهة اخرى في بحث هذا العلامة الضليع ما تهم معرفته من الفوائد التاريخية مما يتعلق بجبل لبنان وطننا النفس على مناقشة حضرته في هذه المادة ايضاً وقد فعلنا ونشرنا درسنا هذا الجديد في كريريسة على حدة مؤرخة في ١٠ كانون الاول سنة ١٩٠٣ ذكرنا فيها كل كلام حضرته متخللاً بملاحظاتنا عليه حتى قررنا النتيجة بان المردة انما دخلوا لبنان في الوقت الذي عينه توفان المؤرخ الرومي اي في ايام الملك قسطنطين اللحياني وانهم على الارجح من قبيلة «المرديين» التي اصلها في بلاد مادية بين بلاد ارمينية وبلاد فارس

فصارت من ثم هذه المقالة متفرقة في اربع كراريس مع انها في موضوع واحد ولم نطبع في الاصل منها الا مئة نسخة من كل صنف وزعناها على بعض محبي البحث والحقيقة وما كادت تشيع بين الناس حتى راج سوقها وطلبها جمهور من الادباء فلم يقفوا لها على اثر . ثم رغب الينا عدد عديد من الذين اطلعوا عليها ايضاً ان نضم كل هذا البحث الى كتيب واحد ونعيد طبعه حرصاً على فوائده . فبناء على كل ذلك قد عولنا على اعادة

النظر فيه واجابة سؤل الادباء المشار اليهم لعلنا نفوز بالغرض المقصود

وقد راينا ان نبين بهذه المقدمة واقع الحال وتقرير القضايا التي يدور عليها الجدال كما يرى المطالع اللبيب حتى لا تفوت الغاية من هذا البحث ثم اننا قسمنا هذه المقالة الى اربعة اقسام ففي القسم الاول نثبت معارضتنا لحضرة الاب لامنس اليسوعي الفاضل على ما وصفنا في اول هذه المقدمة وانما القصد من اثباتها ان ندخل المطالع العزيز في كنه هذا البحث تدريجاً كما دخلناه نحن لينجلي له وجه المسئلة ونوقفه على شواهد شتى مهمة مما يتعلق بالمردائيتي اي المردة وبالموارنة منذ القرن السادس الى اواخر القرن السابع للمسيح وبالجراجمة ايضاً على ما سنح لنا من امرهم حتى يكون هذا الكتاب مفيداً من هذا القبيل ايضاً . وفي القسم الثاني نثبت تقرير القضية التي نحن بصددها وهي ان المردائيتي هم غير الموارنة ولا الجراجمة . وفيه نتحرى اثبات كل ما بين ايدينا مما يتعلق بالمذكورين . وفي القسم الثالث نرد ما ورد على ذلك من الاعتراضات . وفي القسم الرابع نثبت مناقشتنا مع حضرة العلامة دي غوبرناتيس في زمن دخول المردائيتي الى لبنان وناخذ عنه بيان اصلهم . وسنردف هذه الاربعة الاقسام بذيل نثبت فيه ما تحريناه من معارضة حضرة الاب لامنس الفاضل في قضية تتعلق بزمان سكنى الموارنة في جبال كسروان هل كان منذ القرن السادس عشر او الخامس عشر على الاكثر كما يريد حضرة الباحث المشار اليه او قبل هذا التاريخ اي منذ اول نشأتهم كما نرتأي . وهو القسم الثالث من نبذتنا الاولى في المردة والجراجمة والموارنة

ذلك واننا لنسأل كل من وقف على مقالتنا هذه ان يحمل كلامنا فيها على حسن ظن وسواء قصد وان يغتفر ما قد يعثر عليه من عبارة تشعر باقل جرح للعواطف او امتهان لاي كان من الذين نناظرهم او نعارضهم في هذه الحقيقة التاريخية وغيرها لاننا نحتج منذ الان على كل ما قد

يكون زل به القلم عن غير عمد او روية ونصرح معترفين بفضل الجميع وان فوق كل ذي علم عليم فبه المستعان وهو نعم الوكيل

القسم الاول

في معارضة حضرة الاب لامنس في امر المردة والجراجمة والموارنة

كل من تصفح ما اورده حضرة الاب لامنس اليسوعي في مجلة المشرق الغراء (٥ : ٨٢٦ وما يلي) في شان المردة والموارنة لا بد من ان يقضي العجب مما يراه من المناقضات في نتائجه المستخلصة من الشواهد التي اوردها في اصل الطائفتين وجنسيتهم وتاريخ احتلالهم جبل لبنان . اما نحن فمع اقرارنا لحضرة الكاتب المشار اليه بالفضل وسعة الاطلاع وشكرنا له ما تحراه من المباحث الغامضة وتقصاه في كشف الحجاب عنها باجتهاد وادمان لم يسبق اليه نستميحه في بيان ما ظهر لنا من مطالعة ما كتبه في هذا الامر مقرين باننا انما نتحدى اثاره ودروسه لقصر يدنا عن الوصول الى ما بلغ اليه من توفر المواد التاريخية فيما خص هذا الجبل من الناس الذي كان امره غامضاً عندنا

فقد ذكر المردة حضرة الكاتب المشار اليه بين الشعوب البائدة من لبنان وقال في تعريفهم (مشرق ٥ : ٨٢٦) ما نصه « في بهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ يذكر مؤرخو اليونان لاول مرة قوماً يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكام شمالاً الى حدود فلسطين جنوباً وهم يدعونهم مردائيين ويعرفهم المحدثون باسم مردة » ثم استطرق الى

الجيل

ثلاثة اسئلة اولها واهمها في ما نحن بصدده كما يلي « فمن ذا ترى هذا الشعب ؟ » وبعد ما اعترف بصعوبة حل عقدة هذه الاسئلة التي ذهب فيها العلماء على قوله مذاهب شتى وعد بذكرها قد جاء بتوطئة قبل ان ياتي على ذلك قال فيها « يؤخذ من اقدم ما ورد عن المردة ان لبنان لم يكن مركزهم الاول . قال تاوفانوس عنهم : ان المردة دخلوا لبنان » وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن نجيئهم الى جبل لبنان من محل آخر. ثم اردف تاوفانوس قائلاً « والتجأ اليهم الوطنيون » وفي هذا دليل على ان المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباء عنه . الى ان قال «والمؤرخون اذا اشاروا الى المردة دعوهم بلفظة عسكرية وهي (تاغما) التي يقابلها طغمه عند العرب وهي منها . ويراد بها (عند اليونان) فرقة من الجند او الطابور. ثم قال « وان سالت عن الدولة التي كان المردة يخدمونها اجبناك انهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدموا اليهم بالمدافعة عن الثغور الشامية وهم الذين صرفوهم عنها وانزلوهم في نواحي اسية الصغرى » واردف ذلك بقوله « فهذه الافادات عن المردة لا ريب فيها يقر بصحتها كل المحدثين لانها وردت في تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم »

وبعد هذه التوطئة التي يظهر منها ميله التام الى كون المردة هم غير الموارنة كما يرى المتامل اتى على تقرير المذهبين المتضاربين في امر المذكورين بحسب وعده آنفاً فقال «قد ارتأى بعض الائمة ومنهم العلامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن نمرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوربيين كباروينوس ولوكيان وغيرهما ان المردة هم الموارنة . واقوى حججهم لبيان ذلك ان المردة كانوا قوماً من النصارى يسكنون لبنان ولا نعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانية و يسكن لبنان غير الموارنة »

ثم قال « اما اصحاب الراي الاخر فينكرون توحيد المردة والموارنة ويسندون رايهم الى كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج كما سبق القول ثم استولوا عليه فحصنوه في وجه العدو مدة ثم برحوه بعد زمن قليل »

ثم قال « ومما يوهم به هؤلاء رايهم في اختلاف المردة عن الموارنة ان المردة كانوا خاضعين لملوك الروم » واتى حجةً على ذلك بقول ابن العبري في تاريخه السرياني (ص ١١٥) وهو « ان المردة جنود للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » وقال بُعيد ذلك « وهذا لا يوافق الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم وعلائقهم مع الملكيين انصار بوزنطية وملوكها »

ثم قال ايضاً « ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني ان كلام تاوفانوس وقدرينوس وغيرهما مما ينفي عن الموارنة اصلهم اللبناني والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم لبنان يقطنون بلاد الارمن من ولايات آسية الصغرى حيث رجعوا بعد غزواتهم في لبنان » انتهى كلام الاب لامنس

فيظهر من ذلك ان اصحاب الراي الاخير يستندون في اقرار رايهم هذا على ثلاث دعائم اولها ان المردة ليسوا وطنيين بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج بخلاف الموارنة الذين كانوا وطنيين . ثانياً ان المردة كانوا خاضعين لملوك الروم والموارنة خلعوا عنهم ربقة هؤلاء الملوك . ثالثاً ان المردة كانوا قبل دخولهم لبنان يقطنون بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى حيث رجعوا بعد غزواتهم في لبنان وليس كذلك الموارنة

والحال ان الموارنة بحسب روايات حضرة الاب لامنس نفسه التي سنوردها هنا هم ايضاً دخلاء لبنان اتوه من الخارج في ذاك العهد الذي به ظهر المردة في لبنان وكانوا خاضعين لملوك قسطنطينية . فاذاً اسقط برهان اصحاب القضية المضادة من هذين الوجهين

بيان الصغرى : قال حضرة الاب لامنس المشار اليه (مشرق ٦: ١٣١) ما حكايته « وكان الموارنة في ذلك العهد (اي في القرن السابع) عبارة عن مجموع زمر آرامية لم يمسها العنصر اليوناني وتمدنه تقيم خصوصاً على مقربة من افامية في جهات دير مار مارون ومنه اتخذوا اسمهم ومن ثم انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرة النعمان وفي شيزر وحماه وحمص كما يظهر من نص للمسعودي ورد في كتابه المعنون بالتنبيه والاشراف »

ثم اردف قائلاً « واذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبري في تاريخه الكنسي السرياني وابن بطريق وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات اخرى ارقى شمالاً كمنبج وقنسرين والناحية المعروفة بالعواصم ومن المحتمل ايضاً انهم كانوا بانطاكية وجوارها لان انطاكية تُعد كحاضرة هذه الناحية وفيها ايضاً تدخل مدينة قورس »

الى ان قال « وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهادتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعية لا تنكر . ونحن اول من يرضي بتلك الشهادات المؤيدة بالبرهان »

وبعد ذلك قال « وكان دخول الموارنة الى لبنان على ما رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي »

ومن بعد هذه الفقرة يصرح حضرة الاب لامنس برايه المعول عليه عنده قائلاً ان الموارنة اتوا لبنان من الخارج ولا يصح ان يقال انهم سكان لبنان الاصليون

فاذاً بطل مستند اصحاب الراي المضاد لرأي علماء الموارنة في هذه القضية من هذا الوجه فقط

اما من حيث قولهم ان المردة كانوا خاضعين لملوك الروم . وان هذا لا يوافق الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة هؤلاء الملوك . فهذا لا يزال يحتاج الى برهان قطعي

ومع ذلك فما بين ايدينا من روايات حضرة الاب لامنس يدل على انهم اي الموارنة كانوا هم ايضاً خاضعين لملوك الروم في الامور المدنية قبل دخولهم الى جبل لبنان وبعده . وبيانه اولاً من شهادة ابن العبري التي اوردها هو نفسه في المحل المذكور حيث قال « ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهداً ورد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (مجلد ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات فانتزع الاولون من ايدي اليعاقبة كنائسهم برضى ملوك قسطنطينية فحاول اليعاقبة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا المرغوب» ومن المعلوم ان الرهبان لم يكونوا وحدهم ليقوموا بهذا العمل بل ناصرهم بذلك اتباعهم من العامة . فلو لم يكونوا جميعاً اكثر خضوعاً من سواهم لملوك قسطنطينية لما ناصرهم هؤلاء على اعدائهم اليعاقبة كما جاء في هذه الشهادة :

ثانياً من قول الخصوم انفسهم بان المردة الذين كانوا خاضعين لملوك قسطنطينية بل كانوا جنود الملك قسطنطين اللحياني عند ما دخلوا الى لبنان انضم اليهم الوطنيون على ما روى ثاوفانوس كما جاء في كلام حضرة الاب لامنس الذي ذكرناه سابقاً فاذا صح ان هؤلاء الوطنيين هم الموارنة كما يريد اصحاب هذا الراي نتج عن ذلك انهم كانوا خاضعين لملوك الروم ايضاً والا لما امتزجوا بسهولة مع المردة الدخلاء الذين هم حسب قول الخصوم جنود الملك كما يرى المتامل :

ومع ذلك فليس من دليل قاطع على ان الموارنة خلعوا ربقة ملوك الروم في ذاك العصر كما روى حضرة الكاتب المشار اليه . اما ما يروى عن موارنة جبل لبنان من انهم خلعوا نير الطاعة للملك يوستنيانوس الاخرم وحاربوا عسكره وهزموه في الكورة على ما ذكره العلامة الدويهي مراراً فكل من طالع هذه الرواية مع ما سبقها وتبعها يرى لا محالة ان

الموارنة كانوا مستمرين على الخضوع لملوك قسطنطينية وانما فعلوا ما فعلوا بالعسكر مدافعة عن انفسهم وبعد اشارة من جانب المملكة . واذا صحت هذه الرواية فهي بين حدين فاما ان تكون جرت قبل اخراج المردة من لبنان وحينئذ لا بد من ان يكون اشترك هؤلاء مع الموارنة في محاربة عسكر الروم فما يصح على الموارنة يصح على المردة من هذا القبيل . واما ان تكون جرت بعد خروج المردة من لبنان وهو الارجح « لان العلامة الدويهي يقول (ص ٨٠ من تاريخه المطبوع) انها جرت سنة ٦٩٤ » وحينئذ لا محل للقول بان الموارنة لم يكونوا خاضعين لملوك قسطنطينية بخلاف المردة كما قال المعارضون على ما روى حضرة الاب لامنس . ولهذا ففي الحالين سقطت نتيجتهم من هذا الوجه ايضاً

هذا وان قيل ان اختلاف الزمن الذي به دخل المردة لبنان عن الزمن الذي دخله فيه الموارنة قوام برهان المعارضين لراي علماء الموارنة ولمن والاهم لان المردة كما قال حضرة الاب لامنس قد دخلوا هذا الجبل المبارك في بهرة القرن السابع مع ان الموارنة دخلوا على رايه في النصف الثاني من هذا القرن اي بعد المردة . اجبنا ان ذلك غير صريح بل لا يزال يحتاج الى بيان قاطع دفعاً لما يظهر من المناقضات في روايات حضرة الكاتب المذكور ونتائجه . لانه قال في ما سبق اثباته ان المردة بحسب رواية ثاوفانوس قد دخلوا لبنان من الخارج وانضم اليهم الوطنيون واستنتج من هذه الرواية ان الوطنيين هم غير المردة فالمردة اذاً غير الموارنة الذين يعتبرهم وطنيين كما يرى المتأمل . ثم قال في اول الفصل الذي عقده تحت عنوان « في انتشار الامة المارونية في لبنان » ماهذه حكايته « ان في الفصول السابقة توطئة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين حلوا قبل الموارنة سكناهم في لبنان ومنهم من خلف فيه شعباً من عنصره كالمردة والجراجمة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي

نخصه الان بالبحث »

فيظهر من كلامه هذا ان المردة والجراجمة هم غير الموارنة الذين اتوا لبنان بعد اولئك فاختلطوا ببقاياهم . ولكن هذا الزعم هو الذي لم يزل يحتاج الى دليل و برهان . على اننا نرى في ما بين ايدينا من الروايات ما يخالف هذا الزعم واليك بيان ذلك

ان حضرة الاب لامنس بعد ان اثبت الروايات التي اوردناها حتى الان واستفدنا منها في رد القضية الاولى قال « وكان دخول الموارنة الى لبنان في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي»

والحال ان المردة ايضاً لم يظهروا في لبنان الا في القسم الثاني من القرن السابع لا كما قال حضرته بانه بقي منهم فئات في لبنان في القسم الثاني من القرن السابع . وبيانه ان المؤرخ الرومي ثاوفانوس هو باقرار حضرة الكاتب المجيد اول من ذكر المردة وعنه اخذ كل من كتب عنهم . فقد قال هذا المؤرخ في تاريخ سنة ٦٦٩ م [1] حيث ذكر المردة لاول مرة ما ترجمته « ان المردة دخلوا لبنان واستولوا على كل ما هو من جبل اللكام (وهو جبل السويدية الذي فوق انطاكية) الى المدينة المقدسة واحتلوا ايضاً اعالي لبنان وضوت اليهم جماعة كثيرة من العبيد والاسرى ومن الوطنيين حتى صاروا الوفاً كثيرة في زمن قليل » ثم قال ثاوفانوس نفسه في تاريخ سنة ٦٧٦ (اي سنة ٦٨٤) ماترجمته « في هذه السنة اشتدت وطأة المجاعة والوباء في سورية وتولى عبد الملك على العرب وكان المردة يجتاحون الارجاء التي حول لبنان والوباء يزداد شدة فطلب عبد الملك

(١) يظهر ان بين تاريخ السنين المعلق على تاريخ ثاوفانوس في الترجمة اللاتينية التي بين ايدينا والتاريخ المعوَّل عليه الان عند العلماء المحققين فرقاً لا يقل عن ثماني سنوات يجب ان تضاف الى التاريخ المعين في ثاوفانوس تصحيحاً فتكون اذاً سنة ٦٦٩ المذكورة في المتن موافقة لسنة ٦٧٧ فاعلم ذلك وقس عليه

ايضاً اقرار الصلح التي كانت عُقدت على عهد معاوية » الى ان قال في تاريخ سنة ٦٧٨ اي (٦٨٦) ما ترجمته « في هذه السنة ارسل عبد الملك الى يوستنيانوس رسلاً لابرام عهد الصلح فعقدت الصلح على الشروط الآتية اي ان يكف الملك جيش المردة عن لبنان ويمنع غزواتهم . . . فارسل الملك واستجاب المردة نحو اثني عشر الفاً واوهن بذلك القوة الرومانية » وقال ايضاً في تاريخ سنة ٦٧٩ (اي سنة ٦٨٧) في هذه السنة اشتدت المجاعة في سورية فجلا اكثر سكانها الى المقاطعة الرومانية . اما الملك فانه باجلائه جيش المردة الى ارمينية قد نقل ثمة ذلك السد النحاسي سد المملكة الرومانية الذي كان في لبنان ورحل عنه »

فيظهر من ثم ان المردة ظهروا في لبنان في القسم الثاني من القرن السابع اي سنة ٦٧٧ واُخرجوا نحو اثني عشر الفاً من لبنان الى ارمينية من سنة ٦٨٤ الى سنة ٦٨٧ ومن قول الاب لامنس ان الموارنة ظهروا ايضاً في ذلك الحين في لبنان اي في النصف الثاني من القرن السابع الذي هو من سنة ٦٥٠ فصاعداً فمن اين يستنتج والحالة هذه من هذه المقدمة ان المردة هم غير الموارنة ؟

هذا ولا يمكننا ان نخفي العجب من قوله قبل ذلك وهو مما ينقض ما قاله فيما بعد عن دخول الموارنة الى لبنان بعد المردة كما روينا آنفاً . قال اعزه الله (مشرق ٥ : ٨٣٠) ما نصه بالحرف « هذا ومن المقرر الثابت ان ظهور الموارنة كامة مستقلة قد اتفق مع عهد حروب المردة في لبنان . وان لم يسلم القراء بان الموارنة هم المردة فانه لا سبيل الى النكران بانه وجدت بين الفئتين علاقات ودية . ومما يتضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر ان الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم »

فلا يخفى ما في هذا الكلام من التناقض مما ندعه لمطالع نبذتنا هذه

يحكم بينه وبين الكلام السابق وكيف ساغ لحضرة الاب لامنس ان يقرره كامرٍ ناتج طبعاً عن مقدماته المذكورة

اما البرهان الثالث الذي اسنده الى كون المردة كانوا قبل دخولهم الى لبنان يقطنون بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى حيث رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وان الموارنة انما اتوا الى لبنان من جهات وادي العاصي. فكل ذلك لا يزال يحتاج الى دليل وبرهان . ونراه ينقضه هو نفسه بالقضية الجديدة التي جاء بعد ذلك لاثباتها وهي ان المردة هم عين الجراجمة على ما ارتاى العلامة نلدكه المستشرق الالماني الشهير . واليك ما ذكر حضرة الاب المشار اليه عن هذه الامة (مشرق ٥:١١٢٣)

ان هذا الباحث المدقق بعد ان الم الى تاريخ الجراجمة قبل المسيح على ما في التاريخ والاثار البابلية قال « ولانجد بعد الاثار البابلية ذكراً للجراجمة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح » ثم اورد كلام البلاذري المؤرخ العربي في كتاب فتوح البلدان (ص١٥٩ الى ١٦٣) في مطاوي كلامه عن فتح العرب للشام وهو « ان الجراجمة من مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة » فظهر له من هذا الكلام ان الجراجمة بقوا هم هم من عهد الكتابات الاشورية اى منذ نحو خمسة عشر قرناً قبل البلاذري منحصرين في قسم من جبل اللكام وانهم من بقايا الحثيين ولا يخفى ما في هذا القول من الغرابة وهو يقتضي ان يكون سكان الجرجومة التي ينتسبون اليها احفاد اولئك الجراجمة الاولين وقد سلموا من نوائب الدهر الذي اخنى على اجدادهم الحثيين فشتتهم ايدي سبا

ثم ان حضرة الاب لامنس رغماً عن تصريحه في عدم تدقيق البلاذري في الروايات التي يوردها على علاتها في امر الجراجمة يظهر الانذهال مما يجده فيها من المشابهة بين اخبار هؤلاء واخبار المردة على ما يوردها مؤرخو

الروم الى ان قال ماحكايته « ان ماذكره مؤرخو اليونان عن قدوم المردة من شمالي سورية الى جنوبيها وعن احتلالهم لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواه البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الاموي عبد الملك وهو على وشك السير الى العراق . ثم اردف البلاذري قوله بقوله وضوت اليها (اي الروم[1]) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » وهو كلام ينطبق على قول المؤرخ ثاوفان في المردة كأن المؤرخين اليوناني والعربي سندا قولهما الى رواية واحدة لا تختلف حتى في اللفظ »

ثم قال حضرة المشار اليه اثر ذلك « ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ ثاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الاموي وملك الروم وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البلاذري (ص ١٦٠) ان تفرّق الجراجمة لقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم في جبل اللكام » وهي ايضاً رواية شبيهة برواية ثاوفان عن تفرّق المردة ورجوعهم الى وطنهم اما مدينة جرجومة فخربت بعد ذلك بقليل »

ثم قال حضرة الكاتب بُعيد ذلك « ومما روى البلاذري ص ١٦١) من تاريخ ٨٩ ﻫ (٧٠٨ م) ان الوليد بن عبد الملك وجه الى الجراجمة مسلمة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام وعلى ان لا يكرهوا على ترك النصرانية ولا يؤخذ منهم جزية » وفي المحل نفسه من تاريخ البلاذري ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم الى ان قال حضرة الكاتب « وكل هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذري لا نكاد نجد لها اثراً في ما كتبته العرب اللهم الا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادة (جرجومة) وهو ينقل هناك شيئاً مما اثبته البلاذري »

---

(١) والصواب (اي الى خيل الروم) لانها على ما يظهر ليست من الروم

وبعد ان اثبت حضرة الكاتب النحرير هذه الشهادات اراد ان يبدي رايه فيما اذا كان الجراجمة هم هم المردة او يمتازون عنهم فمال بكليته الى راي العلامة نلدكه الذي نعته باعظم المستشرقين في المانيا وقال فيه « انه يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المردة باسم الجراجمة وان كليهما امة واحدة . ونحن ايضاً نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي فيما كتب بهذا الصدد وان كنا نجد في اقوال البلاذري بعض الاشكال الا ان ذلك في الامور العرضية دون الاصلية »

فمن تصفح هذه الاقوال بعين الدقة عرف بلا ريب النتيجة التي يرمي اليها حضرة الاب لامنس وقد صرح بها آنفاً كل التصريح وهي ان المردة والجراجمة هم امة واحدة وان اختلف الاسم كما ارتاى حضرة العلامة نلدكه : فاذا صح ذلك نتج عنه بلا محالة ان المردة او الجراجمة كانوا قبل دخولهم جبل لبنان يسكنون في جبل اللكام الذي هو جبل السويدية فوق انطاكية من عهد عهيد وانهم كانوا نصارى يحمون ذمارهم في وطنهم وكان لذلك يلجأ اليهم كل شارد حتى اضطروا ان يغادروا مواطنهم ويلجأوا الى محل اخر أحرز وامنع حذراً من ان يقعوا في ايدي مناوئيهم وهذا الذي الجأهم الي ان يدخلوا في جبل لبنان كما ذكر المورخان العربي واليوناني .

فكيف يصح اذاً ان يكون المردة الذين هم الجراجمة على راي الاب لامنس جنوداً للملك قسطنطين اللحياني وان يكونوا قبل دخولهم الي لبنان من سكان بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى حيث رجعوا بعد غزواتهم في لبنان وان لا يكونوا من الذين اطلق عليهم اسم (الموارنة) الذين على قول الاب لامنس دخلوا لبنان في النصف الاخير من القرن السابع اي ايام دخله المردة او الجراجمة المذكورون ؟ فليفتنا غير مامور اعزه الله واجره احسن اجر بلطفه .

ثم انه بعد ان قرر رايه المشار اليه على ما بينا قال « فان صح هـذا القول نبحث عن نتائج في امر المردة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين بل قدموا اليه من شمالي سورية اذ ان الجراجمة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللكام الذي يختلف عن جبل لبنان »

الى ان قال « ومما يثبت ان هؤلاء الجراجمة لم يكونوا اراميين اي اهل سورية الاصليين ان البلاذري يذكر في جملة من ضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدل به كتبة العرب على العنصر الارامي »

انا والحق يقال لا ندري ما قصد هذا الكاتب البارع بقوله في الفقرة الاولى ان المردة لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين هو من النتائج التي لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون مع ان معارضي علماء الموارنة قد جعلوا ذلك اول مستنداتهم الا اذا اراد بالنتيجة التي لم ينتبه اليها كونهم قدموا الى لبنان من شمالي سورية مستنتجاً ذلك من اعتقاده بان المردة عين الجراجمة فيكون المردة بالتالي اتوا لبنان من جبل اللكام كما اشار مستشهداً كلام البلاذري فيسقط لا محالة في المناقضة التي اشرنا اليها آنفاً . اما قوله في الفقرة الثانية « ان هولاء الجراجمة لم يكونوا اراميين الخ » فما حمله عليه الا ميله الى الراي المثبت بان المردة هم غير الموارنة لانه يعتقد ان المردة هم الجراجمة وان الموارنة اراميون بحتاً ولكنه في كلا الاعتقادين لا يزال يحتاج الى برهان اثبت على النقد مما جاء به حتى الان . وليس هنا محل الخوض في المعنى الاول . اما المعنى الثاني فنراه في اثباته حرّف قول البلاذري عن روايته فقال :

ان البلاذري يذكر في جملة من ضوى الى الجراجمة الانباط وهم الاراميون عند كتبة العرب . مع انه كان قال في رواية هذه الفقرة سابقاً ما حرفيته « وضوت اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط

وعبيد اباق من عبيد المسلمين » فهل يمكن ان يتحصل بثقة من هذا الكلام ان الانباط ضووا الى الجراجمة او ان الجراجمة ليسوا اراميين كما اراد حضرة الكاتب الفاضل ؟ اما اذا راى احد ان في قول البلاذري هذا اي « وضوت الى خيل الروم جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط » ما يشعر بان الجراجمة هم غير الانباط لانه ذكرهم وذكر الانباط بعدهم فجوابه ان البلاذري لم يقصد أن يذكر اصل الشعوب التي ذكرها بل اراد بالجراجمة سكان الجرجومة وما في جوارها وبالانباط من لم يكن يطلق عليهم اسم الجراجمة في عرف اهل ذاك الزمان والجرجومة وما جاورها هي في سورية التي يسكنها الانباط وغيرهم بالاختلاط حتى لم يبقَ بامكان احد ان يميز بين عنصر واخر لطول العهد وكثرة اختلاط الامم في سورية الذي لم يكن في ذاك العهد اقل منه في عهدنا هذا · واي الناس يدعي الان معرفة تمييز عناصر الامم في سورية ؟ ومع هذا فقد قال حضرة الاب لامنس في مقالته عن الجراجمة التي ناخذ عنها بعدم تدقيق البلاذري في الروايات · وهذا مما يدعم كلامنا هنا في مراد البلاذري بذكر الجراجمة والانباط بعدهم في هذه الفقرة التي نحن بصددها

ثم ختم حضرة الاب لامنس كلامه في الجراجمة بما يلي « فترى من بحثنا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في ان المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقل بينهم علاقات متينة · وكذا قيل في الجراجمة ولذلك افرزنا لهم فصلاً ونظمناهم في سلك الامم التى سكنت لبنان »

فيظهر من هذه الفقرة ان حضرة الاب الكاتب المجتهد يميل الى القول بان الموارنة والمردة والجراجمة شعب واحد وان اختلفوا اسماً ولذلك قال « ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقل بينهم علائق متينة » فكانه يقول اذا لم يسلَّم لنا بانهم شعب واحد فلا يمكن ان ينكر ما بينهم من العلائق · اي من بعد الذي بين ايدينا من الشواهد يجب ان

يسلم على الاقل بالعلائق التي بينهم في تاريخهم ونشأتهم واحوالهم ودينهم ومواطنهم وحروبهم وكل ظروفهم الى ان حلوا في جبل لبنان وتوحدوا باسم الموارنة . وهذا الذي يروق لنا ان نسعى في بيانه اذا امكن . لان نفس الحجة التي استند اليها في اثبات كون المردائيتي عند اليونان هم نفس الجراجمة عند العرب . هي عينها تصلح في اثبات كون الموارنة هم عين الجراجمة ايضاً . اي ان الجراجمة واكثر سكان تلك النواحي حتى جبل لبنان هم الذين اطلق عليهم اسم (موارنة) الذي ضم تحته شعوباً كثيرة متفرقة جمع بينهم غرض واحد من حيث الدين والدنيا . وهذا اذا لم يثبت على النقد التاريخي فلا اقل من ان يظهر ضعف برهان حضرة الاب لامنس المشار اليه

وقبل الشروع في بيان هذه القضية لا نحب ان نخفي اندهالنا من تقلب هذا الكاتب الفاضل في رايه في امر المردة والجراجمة والموارنة فتارة نراه اميل الى كونهم شعوباً مختلفة واخرى الى كونهم شعباً واحداً او اخلاطاً تكونت منهم الطائفة المارونية بعد دخولهم الى لبنان وامتزاجهم بعضهم ببعض كامتزاج الماء بالراح (وهذه عبارته عينها) مع ان في مقالته عن المردة نراه يحاول اثبات كون المردة خرجوا كلهم من لبنان حتى لم يبقَ منهم بقية . وفي مقالته عن الجراجمة يحاول اثبات كونهم والمردة شيئاً واحداً ولو اختلف مؤرخو العرب والروم في تسميتهم وفي مقالته عن الموارنة يقول انهم اتوا الى لبنان من جهات وادي العاصي بعد خروج المردة والجراجمة منه واختلطوا ببقاياهم الى غير ذلك من القلق والتقلب في الراي كما يظهر لكل من تصفح مقالاته هذه وما ذكرنا الى الان في انتقادها ولنأتِ الى بيان القضية المذكورة

معلوم لدى كل من له المام في تاريخ الكنيسة انه بعد المجمع الخلقيدوني الذي عقد سنة ٤٥١ اخذ الهراطقة الذين لم يخضعوا لاحكام هذا المجمع

يسمون اشياعه المناضلين عنه والمنتصرين له (خلقيدونيين اوسينودوسيين) نسبةً اليه كما هو مشهور في آثار هاتيك الاعصار [١] وكان من اخص

(١) يدعي بعض الناس بان الذين اتبعوا المجمع الخلقيدوني وانتصروا له كانوا يدعون ايضاً في ذاك العهد باسم «ملكيين» نسبة الى الملك مرقيان الصالح الذي امر بعقده بالاتفاق مع البابا لاون الكبير وانتصر له ولاتباعه ٠ ولم يقيموا على ذلك من برهان متين سوى ما ُبني على التقدير والتخمين ولم يستطيعوا ان يأتوا بأقل اثر تاريخي اثباتا لاصل هذه التسمية او على الاقل لوجودها في هذا التاريخ او بعده بقليل وجل ماوجدوا رغما عن اجتهادهم بالتنقيب والتفتيش من ذكر لهذا الاسم ولو مجرداً فهو لايتجاوز القرن الثامن فاستنتجوا من ذلك دون الثقات الى اصول الاستنتاج انه كان في القرن الخامس علماً لاتباع المجمع الخلقيدوني ٠ هذا وليس في كلام ديونيسوس بن صليبا من كتبة السريان الذي كان في القرن الثاني عشر (اي سنة ١١٦٠) ولا في كلام نيقوفور كاليست من كتبة اليونان الذي كان في القرن الرابع عشر (اي سنة ١٣٣٠) ولا في كلام غيرهما من المتاخرين الذين اخذوا عنهما من برهان قاطع على صحة هذا الراي المسنود اليهما والذي لم يذكره احد قبلهما ممن تقدم عصريهما وهما لا يصلحان شاهدين في امر تاريخي سبقهما بنحو سبعة قرون على الاقل دون ان يسنداه الى مصادر ثقة كما لا يغرب والاَّ فليس من المعقول ان يكون هذا الاسم لفئة كبيرة من الناس وشهيرة في سوريا خاصة قد اتخذ اصله من الملك مرقيان في بحرة القرن الخامس ولم يظهر له من اثر عند المؤرخين والكتبة من اي صنف كانوا قبل القرن الثامن (كما يسلم اصحاب هذا الراي انفسهم) ولم يذكر احدهم اصل هذه التسمية على مايدَّعيها بعضهم قبل القرن الثاني عشر ٠ ذلك فضلًا عن ان المؤرخ سعيد بن بطريق بطريرك الملكية الاسكندري الذي كان قبل ابن صليبا بنحو قرنين وقد ذكر اسم الملكية مرارا في تاريخه وهو مشهور عند العلماء المحققين بحرصه على مجد امته وبمخترعاته التافهة في امر التاريخ لم يبلغ الى مثل هذا الاختراع ولم يظهر له عنده من اثر بل جل ما جاء في تاريخه من هذا القبيل انما هو ما يظهر منه ان اسم الملكيين كان قبل عهد مرقيان الملك المشار اليه مرادفاً لاسم ارثوذكسيين لانه قال (صفحة ١٠٠ كما روى العلامة السمعاني في المكتبة الشرقية) « وكان مرقيان الملك حسن الامانة وكان يدين ويقاتل عن امانة الملكية » فاين هذا من كلام ديونيسيوس بن صليبا الذي قال في شرح الليتورجية (فصل ١) بانهم « يسمون ملكيين من اجل انهم لما تركوا ايمان آبائهم واعتنقوا مذهب مرقيان الملك » فلينصف المنصفون

هولاء رهبان دير القديس مارون الذي على العاصي بالقرب من حماه وكل الاديار التي تتبعه واهل الجوار الذين امسكهم اولئك الرهبان الفضلاء على العقائد القويمة . الى ان افضت نوبة الملك الى انسطاس وكان يميل الى مذهب الطبيعة الواحدة فاثار الاضطهاد على بيعة الله وحط فلابيانوس القديس عن كرسي انطاكية سنة ٥١٢ وجعل مكانه عنوةً ساويرس المارق الذي كان على الراي الفاسد وشديد البغضة لاصحاب المجمع الرابع الخليقدوني فبذل قصارى الجهد في مطاردتهم والتنكيل بهم بواسطة انسطاس الملك حتى شفى منهم غليله وبلغ من اهل حماه وجوارها ولا سيما رهبان دير مار مارون حد القسوة والاضطهاد فقتل من قتل ونفى من نفى ونهب الكنائس والاديار وهدم دير مار مارون المذكور حتى صار قاعًا صفصفًا ونجا من هذه الشدة كل طويل العمر ممن تركوا اوطانهم وهربوا الى الاماكن المامونة

وسنة ٥١٨ هلك انسطاس بصاعقة انقضت عليه وخلفه يوستين الصالح فاعاد الامان والسلام الى الكنيسة وانتصر للمجمع الخلقيدوني واتباعه وابطل كلما كان عمله سالفه ورد الاباء ورؤساء الكهنة الى كراسيهم واهتم بعقد مجمع مكاني حرم فيه ساويرس وبعد اعمال صالحة من مثل هذه قضى نحبه لعشر سنين من ملكه فخلفه ابن اخته يوستنيانوس الذي اقتفى اثار خاله واصدر اوامره في مضايقة اشياع نسطور واوطاخي وابيناريس وغيرهم من اهل الضلال ووضع شرائعه المعروفة باسمه وجدد بناء دير مار مارون على العاصي كما ذكر بروكوب المؤرخ فاستقامت حينئذ الاحوال واستتبت الراحة للكنيسة

ومن بعد هذه الشؤون قام رجل اسمه يعقوب البرادعي فتشيع لاتباع ساويرس قصد ان يحيي مقالته فتصدى له افرام الامدي خليفة افراسيوس على الكرسي الانطاكي وكان حميد السيرة شديد الغيرة على الايمان الارثوذكسي

وقد بنى كنيسة كبيرة في انطاكية سنة ٥٣٢ دعا الى تكريسها مئة واثنين وثلاثين اسقفاً كانوا اذ ذاك في سورية وفي اجتماعهم علموا قوانين المجمع الرابع وحرموا ساويرس وكل من قال بقوله وتشيع له ·

وبعد ذلك بمدة غير قليلة اخذ اهل الطبيعة الواحدة يقولون بالمشيئة الواحدة في السيد المسيح مسلمين في الظاهر بالطبيعتين الالهية والانسانية فيه تعالى نخدعوا هرقل الملك حتى انتصر لهم وثبت هذا الضلال من نحو سنة ٦٢٨ لى سنة ٦٨٠ التي فيها عقد الملك قسطنطين الرابع المعروف باللحياني المجمع السادس وابطل هذه البدعة الجديدة . وقيل انه بسبب هذا الضلال اشتد غضب الله على اولئك الضالين واظهر لهم سنة ٦٣٢ في الجوّ عند الظهيرة شهباً من نار على شبه السيف المسلول وبعد هذه الرؤيا اخذ العرب يجتاحون سورية حتى فتحوها كلها ·

ففي كل هذه الاحوال التي توالت على الكنيسة الانطاكية بعد المجمع الخلقيدوني مما لا يختلف فيه اثنان بقي رهبان القديس مارون ثابتين بلا ريب على الايمان القويم ومستمسكين بعقائد المجمع المذكور ومناضلين عنها حتى الدم ومجتهدين كل الاجتهاد في رد الناس اليها وظفروا بخصومهم تمام الظفر من بعد عهد انسطاس الملك وساويرس البطريرك الدخيل ولا سيما بعد المجمع الخامس الذي انتصر لهم حتى بلغ من امرهم ان كل الذين تبعوا المجمع الخلقيدوني المقدس وتشيعوا له ضد اليعاقبة خاصة دعوا منذ ذاك الحين «حزب مارون» ولنا على ذلك شاهدان عريقان في القدم حريان بكل اعتبار في عالم التاريخ وهما اثران جليلا القدر احدهما «رسالة رهبان بيت مارون» الى اليعاقبة اكتشفها مؤخراً حضرة المستشرق الفاضل الاب ناو الكاهن الافرنسي الجليل في كتاب خطي كتب بالسريانية في القرن الثامن وجده في بعض تنقيباته في خزانة كتب لندرا الخطية القديمة والى جانبه جواب اليعاقبة على هذه الرسالة · وقد ترجم حضرة

الاب ناو المشار اليه هاتين الرسالتين بالتدقيق الى اللغة الافرنسية ونشر هذه الترجمة في نشرة شركة القديس لويس للموارنة (عدد ٩٧) التي تطبع في باريس كل ثلاثة اشهر : وقد سبق هذه الترجمة بمقدمة اظهر فيها اولاً قيمة الكتاب الذي اخذ عنه ومكان وجوده ثم اردف ذلك بقوله « ان ذلك يبين بزيادة صحة ايمان رهبان القديس مارون من القرن السادس الى القرن السابع والاولية التي كانت لذلك الدير على كل اديار سورية الثانية » ثم قال « انه يتحصل من هذه الكتابة ان رهبان مار مارون الذين كانوا يمثلون حزب اصحاب الايمان القويم واشياع المجمع الخلقيدوني والقديس لاون البابا قد نصبوا جدلاً في انطاكية مع اشياع بطرس القلينيقي الذي كان بطريركاً على اليعاقبة من سنة ٥٧٨ الى سنة ٥٩١ فهذا لم يستطع ان يجاوبهم في فرصة خمسة ايام كانوا اعطوه اياها بوجه التمديد ولا حزبه استطاع ان يجاوب على كتاب كان رهبان القديس مارون ارسلوه اليه بواسطة رجل منهم يُدعى مار قسطنطين : فكتب حينئذ المارونيان فيلبوس وتوما الرسالة التي نحن بصددها وكلفا اسحق وسمعان بحملها الى اليعاقبة وبان يكلفا رهبانهم وظهرائهم واساقفتهم بالجواب عليها او بالرجوع عن اغلاطهم : فمن خطة الموارنة في هذه المهمة وطريقتهم مع اليعاقبة يظهر حسناً انهم كانوا رؤساء الحزب الارثوذكسي كما كانوا رؤساء رهبان سورية الثانية في المجمع القسطنطيني سنة ٥٣٦ ومن ثم فاقرب الى الحقيقة على ما يظهر خلافاً لما كان يقال ان اصحاب الايمان القويم واشياعهم قد اتخذوا اسم « موارنة » وعرفوا به »

« اما تاودوروس من دير (بيت) مارابا » فقد كتب اليهم جواباً مطولاً يسميهم فيه « فروع كرم لاون واغراس الكرم الخلقيدوني »[1]

---

(١) ومما يجب الانتباه اليه هنا انه لا ذكر في هذه الرسائل لا للملكية ولا للملك مرقيان الذي يقال انهم نسبوا اليه لانتصارهم للمجمع الخلقيدوني الذي امر

ويقرفهم بانهم استعملوا العصي ضد اليعاقبة : ولكن كل هذه التهم ترجع اليوم على الموارنة بالفخر لان مما يجب الانتباه اليه ان خصمهم هذا الالد لا يقرفهم بضلال من حيث الاعتقاد الا ما يخالف الاعتقاد بضلاله » الى هنا كلام العلامة الاب ناو

وبعد ان بين هذا المستشرق المحقق ان هاتين الرسالتين يجب ان تكونا مكتوبتين بعد سنة ٥٩١ بقليل وهي السنة التي مات فيها بطرس القلينيقي بطريرك اليعاقبه قال ما ترجمته :

ومما يجب الانتباه اليه ان الموارنة قد دُعوا هنا « اصحاب بيت مارون المقيمين في ارض افامية (او حماه) وان رسالتهم كتبت في ارميناز (او ارماز) »(١)

فمن هـذا الكلام المسند الى الرسالتين اللتين نحن بصددهما يظهر لكل ذي بصيرة مجردة عن الاهواء ان رهبان دير مامارون الذين كانوا في سورية الثانية رغماً عن الاضطهادات الشديدة التي اثارها عليهم ساويرس

هذا الملك بعقده وعضده وعضد بعد ذلك اشياعه • فلو كان ذلك صحيحاً اي ان اشياع هذا المجمع سموا ملكية لما فات اليعاقبة ان يدعوهم به هنا كما يرى المتأمل البصير •

(١) وهنا وضع حضرة الاب ناو حاشية قال فيها ما ترجمته

« لم يُقل (اصحاب دير مارون) كما قيل في مواضع اخرى بل هنا كما في تاريخ الماروني (الاتي ذكره) جاء بوجه البساطة « اصحاب بيت مارون » والحال انا نرى في الرسالة التي نحن معوّلون على نشرها ان عبارة « اصحاب بيت بطرس » يراد بها اليعاقبة اشياع بطرس (القلينيقي) فمن الممكن اذا ان لا يراد هنا بعبارة (اصحاب بيت مارون) رهبان الدير الاولي فقط بل كل اشياعهم ايضاً »

هذا ونحن قد اجتزأنا هنا على ما جاء في مقدمة الاب ناو عن اثبات الرسالتين المذكورتين لان ما جاء منهما فيها يفي بالمقصود • وقد علمنا ان حضرة العلامة المذكور قد اهدى الرسالتين المذكورتين الى سيادة العلاّمة المطران يوسف الدبس ليعني بنشرهما فلا بد ان يقوم سيادة المشار اليه بذلك عن قريب

البطريرك الدخيل الملحد بواسطة انسطاس الملك المتحامل على بيعة الله في اوائل القرن السادس وقد استمروا ثابتين على الايمان القويم مستمسكين اشد الاستمساك بعقائد المجمع الخلقيدوني الذي بذلوا دماءهم وكل نفيس لديهم دونه وظهراء للبابا لاون الكبير القديس الذي نادى بهذا المجمع المقدس وقد وافقهم وتشيع لهم في ذلك جم غفير من المؤمنين في نواحي حماه وحمص وقنسرين والعواصم ومنبج حتى الرها بحيث كل الذين كانوا على مذهب المجمع الخلقيدوني المقدس والقديس لاون الكبير بابا رومية كان يدعوهم اليعاقبة خصومهم الالداء «اصحاب بيت مارون . واشياع رهبان مارون . وفروع كرم لاون واغراس الكرم الخلقيدوني » ومن جواب اليعاقبة اصحاب بطرس القلونيقي بطريركهم على رسالة الموارنة التي ذكرناها آنفاً يظهر جلياً ان اصحاب مارون كانوا في اواسط القرن السابع او في القسم الاخير منه قد تغلبوا على اليعاقبة المذكورين بكثرة عديدهم وانتصار ملوك قسطنطينية لهم بعد انسطاس مثل يوستين الصالح وابن اخته يوستنيانوس الكبير الى عهد هرقل الملك فقرعوا لهم العصا واستخلصوا منهم الكنائس والاديرة وضايقوهم اشد المضايقة تحت قيادة رهبان مار مارون الذين كانوا يناضلون عن الايمان القويم بالمحاضرات والمناقشات والجدالات الدينية والبراهين العلمية :

ومما يثبت ذلك ايضاً ما جاء في التاريخ الكنسي السرياني لابن العبري الجاثليق اليعقوبي الشهير (قسم ١ ص ٢٧٠—٢٧٤) وهذه ترجمته : لما ابن كسرى ملك الفرس اغتال والده (سنة ٦٢٨) استرجع سورية هرقل ملك قسطنطينية وجاء الى الرها فسار امامه الشعب والكهنة والرهبان . واذ نظر كثرة عدد الرهبان قال للذين على مذهبه لا يصح ان ندع شعباً نظير هذا كثير العدد والفضل بعيداً عنا : ودخل يوم عيد الى كنيسة اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وجاد بهبات نفيسة لكل الشعب يحمله على التمسك بالمجمع الخلقيدوني وفي اخر الذبيحة تقدم الملك

ليشترك بالاسرار حسب عادة الملوك المسيحيين فاحتدم اشعيا مطران الرها غيرةً وابى ان يبيح الاسرار للملك قائلاً له اني لا اوليك اياها الا اذا حرمت المجمع الخلقيدوني كتابةً: اما الملك فاستشاط غيظاً وطرد الاسقف اشعيا من الكنيسة الكبرى ودفعها الى اشياع المجمع المذكور»

«واذ بلغ الملك الى منبج زاره البطريرك انسطاس ومعه اثنا عشر اسقفاً فطلب منهم جميعاً صورة ايمانهم واذ تلاها اوسعها مدحاً ولكنه لم يغفل عن الطلب منهم ان يقبلوا المجمع الخلقيدوني واذ ابوا اغتاظ الملك وكتب الى كل المملكة انه اذا وجد من لا يسلم به (اي بالمجمع المذكور) يجدع انفه وتصلم اذناه ويؤخذ بيته: وحينئذ تركنا كثيرون واخذ رهبان مارون الذين في منبج وحمص يظهرون قسوتهم فهدموا كثيراً من الكنائس والاديرة وكان اذا اشتكى اصحابنا الى هرقل لا يستجيبهم. وانما اله النقمة قد ارسل العرب لينقذونا من الروم لكن كنائسنا لم تردّ الينا لان كل فريق حفظ ما كان يملكه بيد اننا على الاقل نجونا من كيد الروم وبغضهم لنا»

وقد اورد هذه الشهادة حضرة الاب لامنس في مقالته عن الموارنة التي ذكرناها غير مرة ملخصة على ما ياتي «قال (اي ابن العبري) ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان دير مارون واليعاقبة مشاحنات فانتزع الاولون من ايدي اليعاقبة كنائسهم برضى ملوك القسطنطينية فحاول اليعاقبة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا بالمرغوب»

اما الشهادة الثانية التي تثبت القضية التي نحن بصددها فهي التي توفق الى اكتشافها حضرة العلامة نلدكه الشهير نشرها في احد مجلدات المجلة الاسيوية الالمانية عن كتاب سرياني قديم العهد فيه اخبار خمس سنوات تبتدئ من سنة ٩٧٠ للاسكندر وتنتهي سنة ٩٧٥ له اي من سنة ٦٥٨ الى سنة ٦٦٣ المسيحية: وقد نقل هذه الفقرة عن تلك المجلة

حضرة الاب لامنس اليسوعي واثبتها في مجلة المشرق الغراء (٢ : ٢٦٥) وهناك وصف حضرة الكاتب المشار اليه قيمة هذا التاريخ الذي وجدت فيه هذه الفقرة باحسن بيان · واليك ترجمتها عن الاصل السرياني المثبت بعينه في المجلتين المذكورتين

« وفي سنة ٩٧٠ (للاسكندر) وهي السنة السابعة عشرة للملك قسطنت [1] في شهر حزيران ... اتى اسقفا اليعاقبة تاودورس وسبوخت الى دمشق وتجادلا امام معاوية مع اصحاب مار مارون في امر الايمان : ولما غُلبا امرهما معاوية ان يدفعا له عشرين الف دينار وان يلزما السكوت . وجرت العادة (مذ ذاك) على اساقفة اليعاقبة ان يدفعوا هذا الذهب (اي مثل هذا المبلغ) لمعاوية لئلا يرخي اليد بهم فيضطهدهم ابناء الكنيسة »

هذا ومن المعلوم المشهور ان القديس يوحنا مارون (الذي هو راس سلسلة بطاركة الموارنة) كان من رهبان دير مار مارون وكان على الاغلب في ايام هذا الجدال الذي جرى امام معاوية من جملة هؤلاء الرهبان لان هذا الجدال تم في سنة ٦٥٨ وقد جُعل يوحنا مارون اسقفاً على البترون سنة ٦٧٦ كما بينه علماء الموارنة باسهاب اي بعد هذا الجدال بنحو ١٨ سنة اشتهر فيها بالغيرة على الايمان المستقيم الراي حتى قال فيه اليعاقبة انفسهم ما رواه العلامة المدقق البطريرك اسطفانوس الدويهي اخذاً عن قصة معلمهم يعقوب البراذعي الذي نُسبوا اليه كما هو مشهور في تاريخه المشهور وقد روى كلامهم باصله السرياني وانما نحن هنا نؤدي ترجمته الحرفية كما ياتي « عند ما يلتقي الهراطقة والارثوذكسيون يسألهم الهراطقة من انتم ؟ فيجيب الارثوذكسيون : نحن من حزب امانة يعقوب اول الرسل واخي الرب وهذه الامانة هي التي يعظنابها يعقوب هذا الالهي [2] اما خصومهم فيجيبون :

(١) اي قسطنت الثاني الذي ملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ مسيحية

(٢) قوله « يعقوب هذا الالهي » يراد به يعقوب البراذعي زعيم فئة اليعاقبة

انا من حزب امانة افرام الآمذي او يوحنا السرومي البطريرك عدو الله[1]

الذي منه أخذت اسمها كما هو مشهور وليس كما يدعي صاحب هذه القصة بان اسمهم من القديس يعقوب الرسول اخي الرب على ما روي هنا لان القديس يعقوب الرسول لم يعلم في الكنيسة تعليماً مخالفاً لما بين ايدينا من تعاليم الرسل وتقاليد الكنيسة الجامعة والا لما كان مذهب اليعاقبة من قبيل الهرطقة كما لا يغرب وكانت الكنيسة المقدسة احرص الناس عليه ولكن اين هذا التعليم الذي يستند اليه اليعاقبة في كلام القديس يعقوب الرسول ؟

(١) قوله افرام الامذي يراد به بطريرك انطاكية الذي جاس على هذا الكرسي بعد افراسيوس البطريرك وبنى كنيسة كبيرة في انطاكية سنة ٥٣٢ كما ذكرنا سابقاً وكان قويم العقيدة . اما يوحنا السرومي فالمراد به على ما يظهر يوحنا مارون البطريرك رأس سلسلة بطاركة الموارنة وقد جاء في قصته انه ينسب الى سروم وهي قرية كبيرة بالسويدية قريبة من انطاكية كانت مقاماً لابيه اغاتون او اقطاعة له . على ما ذكر العلّامة الدويهي في تاريخه المشهور بالطبع (ص ٥٠)

وقد جاء في اول هذه القضية (ص ٥٣ من التاريخ المذكور) ما حكايته « كان يوحنا السرومي (الذي سمي فيما بعد مارون) ابن اغاتون بن ايديبس بن اخت كارلومانيو البرنس الذي قدم من فرنسا الى انطاكية فاستولى عليها وعلى بلاد سورية في دولة الروم كما تشهد بذلك القصة المكتوبة بخط كرشوني في كتاب قديم موجود في كنيسة السيدة بدمشق وهذا نصها « وكان رأس الامة المارونية رجل اسمه يوحنا فاضل عالم خير مستقيم كثير الفضائل وهو من اصل شريف اسم ابيه اغاتون وامه انوهاميا واسم جده ايديبس ابن اخت ملك فرنسا وكان اسم الملك كرلومانيو . فلما قدم الى سورية واستولى عليها بقي الامير ايديبس ابن اخته في مدينة انطاكية فرزقه الله ولداً سماه اغاتون واغاتون ولد له يوحنا فتادب يوحنا بالعلوم الروحية والتفاسير الانجيلية ومهر في السريانية وسلك طريق النسك والعفة واقيم بطريركا على هذه الامة »

ثم اعترض العلّامة الدويهي نفسه في الصفحة ٦٧ من تاريخه المذكور بقوله « فان قلتَ انه قد حصل تناقض فيما اوردت ... لان هذا الخبر يثبت ان يوحنا يتصل نسبه بكرلومانيو ملك فرنسا مع ان بكتاب المورخ يخبر عنه انه ملك على فرنسا سنة ٧٧١ فيكون مارون قبل الملك المذكور بنحو ماية سنة وهذا خلف . واجيبك . ان هذا امره مبهم علينا لاننا لم نقف على تاريخ يطلعنا على اخبار ملوك فرنسة اطلاعاً

شافياً ولا نعلم ان كان الملك المذكور دخل بلاد سورية او تولاها ويمكن ان تكون هذه القصة منسوبة الى غيره او انها صادقة على احد اقربائه الذين سلفوا قبل ان يضبطوا عنان سلطنة فرنسة وليس ببعيد ان يكون قدم احدهم الى بلاد سورية وتولاها بمنزلة برنس • وهذا قريب التناول لان تلك الطائفة الجليلة تلقب بلفظة كرلو ويتميز كل منهم عن الاخر بما يلحق اسمه من الالقاب كقولهم كرلومانيو اي الكبير وكان عم المذكور يدعى كرلومان اي الشديد القوي وجده كرلومرتلو اي المطرقة • وكذلك الذين اتوا بعدهم سمي احدهم كرلو كلفو اي الاصلع واخر كرلوغراسو اي السمين وآخر سيمبلكس اي الساذج • وقد قيل عن هذا انه هو الذي جاء الى سوريا وسمي ملك فرنسة ولم يكن بعد تقلد السلطنة بل انه كان بمنزلة البرنس الذي كان يتولى انطاكية في دولة الروم • وانما سمي ملكا من حيث المنصب الذي حصله في سوريا لان العرب سمي كل من كان متقدماً من دولة الافرنج ملكا مثل اوجان البرنس الذي سعى باختيار يوحنا مارون لاسقفية ابترون فان اليعقوبية يدعونه ملكا وهو ليس بملك بل برنس • وهذا القدر كاف فيما قلناه بهذا الشان » انتهى كلام الدويهي •

فكل من طالع كلام هذا العلامة الفاضل في قصة مار يوحنا مارون على ما روينا آنفاً بالحرف الواحد لا بد من ان ينتبه الى هذا الامر من حيث نسبة يوحنا مارون الى كرلومانيو ملك فرنسة بواسطة جده اليديس الذي جاء عنه في هذه القصة انه ابن اخت هذا الملك وهذا مما يقتضي ان يكون كرلومانيو في اواخر القرن السادس او على الاقل في اوائل القرن السابع لان يوحنا مارون على رأي العلامة الدويهي وغيره قد صار مطرانا على البترون في سنة ٦٧٦ فلا بد من ان يكون عمره اذ ذاك اكثر من ثلاثين سنة • فكم كان عمر ابيه اغاتون حين ولد له يوحنا هذا وكم كان عمر جده اليديس عند ما ولد له اغاتون وكم كان عمر جدة اغاتون التي هي بحسب هذه القصة اخت كرلومانيو عند ما ولد لها اليديس ؟ فلا بد والحالة هذه من ان نرجع الى اواخر القرن السادس كما اشرنا • والحال ان كرلومانيو ملك فرنسة قد استولى على زمام المملكة كما روى الدويهي عن كتاب المؤرخ على ما ذكرنا آنفاً في اواخر القرن الثامن اي سنة ٧٧١ فلا يمكن اذا ان تصح هذه الرواية على ظاهرها عن يوحنا مارون البطريرك الاول للطائفة المارونية • وقد انتبه الى ذلك العلامة الدويهي نفسه كما رأينا وحاول تطبيق هذه القصة على التاريخ الصحيح فلم يتوفق الى

القديس يوحنا مارون كان في ذاك العصر زعيم اهل الايمان فمن الضروري

الجواب الكافي على هذا المشكل كما يرى المتامل في ما ذكرنا آنفاً . وقد راجعنا تواريخ ملوك فرنسة الذين دعوا باسم كرلوس دوقاً بصفة مميزة فوجدنا اولاً الدوق كرلوس تلو كان من سنة ٦٨٩ الى سنة ٧٤١ . ثم الملك كرلو كلفو من سنة ٨٤٠ الى سنة ٨٧٧ ثم كرلوغراسو من سنة ٨٨٢ الى سنة ٨٨٧ ثم كرلوسيمبلكس من سنة ٨٩٣ الى سنة ٩٢٩ اما كرلومانيو فانه ولد سنة ٧٤٢ وملك بالاشتراك مع كرلومان من سنه ٧٦٨ الى سنة ٧٧١ فاستقلَّ وحده بالملك حتى سنة ٨١٤ فلا يوافق والحالة هذه ان يكون احد هولاء خالاً لجد يوحنا مارون الاول الذي كان على رأي علماء الموارنة في سنة ٦٧٦ مطراناً على البترون وفي سنة ٦٨٦ بطريركا

فاخذنا من ثم نتبصر في فض هذا المشكل ورد هذا الاعتراض بما يوافق التاريخ والعقل لاننا رأينا من جهة ان مثل هذه القصة القديمة العهد لا يجب ان تُزرى اذ لا يمكن ان تكون منتحلة وقد ذكر ما يناسبها عبد الله بن الطيب الذي كان في النصف الاول من القرن الحادي عشر كما روى العلّامة الدويهي نفسه (ص ٦٥ و ٦٦) ومن جهة اخرى لا يمكن ان توفق مع الحقيقة التاريخية كما اشرناه وبينا كنا نعمل الفكر في هذا الامر الخطير وننقب في الآثار التاريخية التي بين ايدينا اذ نبه خاطرنا الى ملاحظة مهمة في هذا الشان حضرة العلّامة الفاضل الخوري بطرس شبلي الدفوني تلميذ مدرسة سان سوابيس الباريزية الذي يصرف اطيب اوقاته في البحث والتنقيب على آثار طائفته العزيزة بدقة نذر لا نظير لها . فاذ كنا ذات يوم نتحدث معه فيما خالجنا من الريب في امر هذه الرواية اخبرنا انه في بعض مطالعاته عثر في تاريخ الاسلام لعلّامتنا الدويهي المفضال الذي لم يشهر حتى الآن بالطبع على كلام استوقفه ملياً حيث يقول « انه في سنة ٣٢٧ هجرية انتقل البطريرك يوحنا من انطاكية الى لبنان وجعل كرسيه في يانوح ... » ولم يكن اذ ذاك تحت يدنا نسخة من هذا التاريخ لنراجعها في هذه المادة لكننا قدرنا لاول وهلة ان هذه القصة اقرب الى التصديق في هذا يوحنا مارون الثاني منها في يوحنا مارون الاول وعلى هذا بنينا كل دروسنا بهذا الصدد فناتي عنها ما ياتي وفيه نرى فض هذا المشكل الصعب المنال

اولاً . قد جاء في سلسلة بطاركة الطائفة المارونية للعلّامة الدويهي التي نشرها الاستاذ رشيد افندي الخوري الشرتوني في مجلة المشرق (١ - ١٥١) ثم على حدة

ما ملخصهُ « ان اول هوءلاء البطاركة انما هو يوحنا مارون الاول جلس على كرسي البطريركية في سنة ٦٨٦ ورقد بالرب سنة ٧٠٧ وقد خلفهُ ابن اختهِ كوروس (وهو قورس او قورش) الذي بعث كما هو محرر في قصة خالهِ فطلب التثبيت من الكرسي الروماني وساس قومه سياسة الابرار الى آخر حياتهِ • ثم عقب في الرياسة على كرسي انطاكية جبرائيل على ما وجدنا في النسخ القديمة • ومن بعد جبرائيل صير يوحنا الذي تكنى هو ايضاً باسم مارون وترهب في دير مارون الذي على النهر العاصي وقد كتب عنهُ ابن القلاعي في الميمر عن الجامع قائلًا • « وبعده قام مارون ثاني • من الدير الرباني • معلم شاطر ملفاني • يدعى يوحنا ابارو وقد جا ليانوح وبطرك كان • وسكنهُ في جبل لبنان • وايمان مارون ما تغير » وعند ما دنا هذا من الموت اخلى الكرسي الى يوحنا آخر كان اصلهُ من قرية دملصا من عمل جبيل كما هو مرقوم في الاخبار القديمة عن يوحنا الذي تقدم ذكره انهُ لما قارب الموت جمع جميع كهنة جبل لبنان واقام لهم بطريركا بدلهُ يدعى باسم يوحنا من قرية دملصا »

واردف العلامة الدويهي هذا الكلام بقولهِ « فهوءلاء البطاركة الخمسة المتقدم ذكرهم اسمهم واضح انهم كانوا مقيمين في جبل لبنان وانهم تخلفوا بعد تاوفان من الرسالة التي في سنة ١٤٩٥ شيعها جبرائيل بن القلاعي الى القس جرجس ابن بشاره في الفصل الحادي عشر ووجدنا ايضاً ذكرهم في كراسة سريانية كانت عند سالفنا المغفور لهُ البطريرك جرجس من قرية بسبعل قد نسخها داود بن ابرهيم سنة ١٦٢٤ (وهي سنة ١٣١٥ م) فتكون اقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة وثمانين سنة وفي نسخ اخرى عرضها علينا اخونا المطران جرجس ولد حبقوق وغيره » انتهى كلام الدويهي في السلسلة

ثانيًا • قد جاء في سلسلة البطاركة للعلامة السمعاني التي طبعها حضرة الاب يوحنا نطين الدرعوني الحلبي اللبناني برومية ما حرفيتهُ « ثم عدد ٦٦ يوحنا ثاني باسم مارون الذي قدم من دير مارمارون الذي على نهر العاصي • وعند ما قرب الى الوفاة في سيدة يانوح دعى الكهنة والروساء فاختاروا على مشورته يوحنا الذي كان من قرية دملصا »

ثم راجعنا تاريخ الاسلام للعلامة الدويهي عند ذكره تواريخ سنة ٣٢٧ الهجرية فاذا فيه ما نصهُ الحرفي « وفي سنة ٣٢٧ وهي السنة السادسة لدرغول

واصحابه حتى استحق ان يكون مطراناً ثم بطريركاً على قومه :

كانت نقلة البطريرك يوحنا من انطاكية الى جبل لبنان ... كما وجدنا في التواريخ السريانية بل انهُ مضى الى يانوح وكانت يانوح من اشرف القرى والمجالس في جبة المنيطرة واهلها كثيرو الغيرة والعبادة فابنوا دير مار جرجس كلهُ من الحجر الازرق في غاية الصناعة والشرافة وهو باق الى يومنا هذا لكنهُ خال . وقد اثروا دفعات عديدة الغير المومنين ان ينقلوا حجارتهُ فلم يتركهم الله. ثم ان البطريرك يوحنا لما قرب اجلهُ جمع جميع كهنة البلاد واقام لهم بطركا آخر باسمهِ من قرية دملصا »

فمن كل ذلك يتحصل ان يوحنا مارون الثاني قد كان في اول امره راهباً في دير مار مارون الذي على العاصي ثم صار بطريركا على انطاكية وبسبب الاضطهاد جاء من انطاكية الى جبل لبنان . وجعل مقامهُ في قرية يانوح التي في جبة المنيطرة . وان اهل جبل لبنان كانوا منتمين اليهِ من ذي قبل ولهذا تلقوه بالترحاب والخضوع والطاعة بدليل انهُ عند ما دنا اجلهُ استدعى اليهِ كهنة الجبل وسمى لهم بطريركا يخلفهُ منهم وهو يوحنا الثالث من قرية دملصا التي في بلاد جبيل وان كل ذلك قد جرى منذ سنة **٣٢٧** الهجرية الموافقة لسنة **٩٣٩** المسيحية اي في النصف الاول من القرن العاشر .

فما المانع اذا من ان تكون قصة يوحنا مارون البطريرك التي وجدت في دمشق الشام ويُظن ان كاتبها عبد الله بن الطيب الذي مات في اواسط القرن الحادي عشر (دويهي ص **٦٥** و **٦٦** و **٣٤٧**) مختصة بالبطريرك يوحنا مارون الثاني الذي نحن بصدده ?

فاذا صح ذلك يصح لا محالة ايضاً ما جاء في هذه القصة من انهُ ابن اغاتون وانوهاميا وجده اليديبس او عبدون (كما سماه ابن الطيب ص **٦٥** دويهي) هو ابن اخت كرلومانيو ملك فرنسة . لان بين تاريخ مجيء هذا البطريرك الى جبل لبنان وبين استيلاء كرلومانيو على صولجان فرنسة **١٦٨** سنة فقط . فمن يوحنا مارون هذا الى ابيهِ الى جدة ابيهِ التي يقال انها اخت كرلومانيو يمكن استغراق هذه المدة بكل سهولة وفي ذلك ما يصحح هذه الرواية والله اعلم .

اما كرسي البطريركية المارونية في يانوح الذي اسسهُ هذا البطريرك بحسب هذه الروايات فلا تزال آثاره القديمة المعروفة حتى الان عند الموارنة وغيرهم تدل

ولنا على ذلك شهادة اخرى مأخوذة عن مؤرخ يعقوبي مجهول الاسم من سكان حران او الرها يمتد تاريخه الى سنة ٨٤٦ للمسيح اتى بها حضرة الاب الفاضل س. رونزقال اليسوعي عن المجلة الاسيوية الالمانية التي اخذت عنها الفقرة السابقة وقد اثبتها هذا الباحث المدقق في المقالة التي نشرها في مجلة المشرق (٢ : ٤٥٧) حيث ناقش حضرة الابوين لامنس اليسوعي و بشاره الشمالي المارو ني في حقيقة صاحب الفقرة المذكورة عن تاريخ الجدال الذي جرى امام معاوية بين اليعاقبة والموارنة. وهذه ترجمة هذه الشهادة التي نحن بصددها عن السرياني حرفاً بحرف : قال المؤرخ اليعقوبي ما حكايته « وبعد ان ملك افيماروس [١] ثلاث سنين [٢] رجع يوستنيانوس من الجلاء في عسكر عظيم وقتل كل امراء الروم فقاموا عليه وقتلوه وابنه طيباريوس وملكوا عليهم فيليبيقوس سنة واحدة ونصفاً [٣] ولان هذا اراد ان يؤلف مجمعاً ليقيم هرطقة الموارنة قام عليه الروم وفقأوا عينيه

على صحة هذا الخبر وفخامة هذا المقام وشان الذين سكنوه مدات طويلة على التوالي لا سيما والقرية المذكورة رحبة الاراضي كثيرة المياه جيدة التربة و الهواء منيعة الموقع جميلته للغاية. وهذه الاثار هي أنيوم مع قسم كبير من هاتيك الاراضي و المياه وقف لمدرسة مار يوحنا الحبيب البطريركية التي انشأها وحبس عليها تلك الاملاك وغيرها السعيد الذكر و الحميد الاثار البطريرك يوحنا الحاج المثلث الرحمات احسن الله ثوابهُ ونفعنا ببركات دعائهِ آمين .

و بهذا التوجيه الوجيه للغاية المسند الى الاثار التاريخية المذكورة نرانا وفينا بالمقصود وفضضنا هذا المشكل و وفقنا بين هذه القصة المعتبرة وما جاء فيها من الروايات التاريخية حتى لا يبقى فيها من ريب . ونحن لا ندعي العصمة فان اصبنا فغاية ما يرام و الا فالعذر من شيم الكرام .

(١) هو طيباريوس الثالث ملك الروم الملقب ابسيماروس

(٢) والصواب انهُ ملك سبع سنين اي من سنة ٦٩٨ الى سنة ٧٠٥

(٣) هذا ملك من سنة ٧١١ التي بها قتل يوستنيانوس الاخرم وابنه الي اوائل سنة ٧١٣

وملكوا عليهم انسطاس (الثاني) فلما ملك ثلاث سنين [١] خلعوه وملكوا ثاودوسيوس (الثالث) وبعد سنتين خلعوه وملكوا لاون [٢]

واما قبل ذلك ففي ايام يوستنيانوس وقسطنطينيوس [٣] الذي في زمانه كانت هرطقة الموارنة سنة ٩٩٠ [٤] في الثلاثين من شهر نيسان [٥] في يوم الفطير (اي الالام) في الساعة الثالثة حدث زلزال عظيم خربت به بطنة سروج وكنيسة الرها القديمة ومات جم غفير من الناس» [٦]

---

(١) اي من سنة ٧١٣ الى سنة ٧١٦

(٢) وهو لاون الثالث الملقب بالايزوري ملك من سنة ٧١٧ الى سنة ٧٤١

(٣) وهو قسطنطين الرابع المعروف باللحياني ملك من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥

(٤) يونانية الموافقة لسنة ٦٧٨-٦٧٩ مسيحية

(٥) والصواب في الثالث من نيسان • وقد جاء ذكر هذه الحادثة في ثاوفان المورخ الرومي بما ترجمتهُ « سنة ٦٧٠ (٦٧٨) في هذه السنة حدث زلزال عظيم في بين النهرين دُكت بهِ قبتا كنيسة الرها وقد جدد بناءها معاوية اجابة لسوال النصارى »

(٦) ان ما في هذه الفقرة التاريخية من الشطط وقلة التدقيق يبطل قيمتها ويوءكد ان صاحبها اليعقوبي انما كان في القرن العاشر او بعده لانهُ على ما يظهر قد استقى ما قالهُ فيها عن « هرطقة الموارنة » من روح سعيد بن بطريق بطريرك الاسكندرية الملكي الشهير • اما الخلل الذي يلوح منهُ التحامل المذموم ففي قولهِ ان فيليبيقوس ملك الروم « اراد ان يوءلف مجمعاً ليقيم هرطقة الموارنه فقام عليهِ الروم لذلك وفقأوا عينيهِ » وذلك شطط ظاهر لان فيليبيقوس هذا لم يظهر ارادتهُ بتاليف المجمع فقط كما يتحصل من قول هذا المورخ بل الف فعلاً مجمعاً خاصاً من زمرة من اهل الفساد واعوانهِ وحرموا المجمع السادس العام المقدس وابطلوا كل العقائد التى كان حكم بها واصدروا في ذاك حكماً خطياً ممضي منهم بكل قحة وجسارة كما روى ثاوفان الموءرخ الرومي الثقة وقد ذكر هذا المجمع مرتين في تاريخهِ بما لا يشتم منهُ اقل رائحة بان هذا الملك الغر انما عقده انتصارا لهرطقة الموارنة كما اراد الموءرخ اليعقوبي في هذه الفقرة التي نحن بصددها • فمن هنا يظهر جلياً ان هذا الموءرخ انما اراد بقولهِ « هرطقة الموارنة » مذهب المونوثيلية وهو مذهب المشيئة الواحدة في ربنا الذي حاربهُ وابطلهُ وحرمهُ المجمع المسكوني السادس المقدس كما

فقول هذا المؤرخ اليعقوبي « هرطقة الموارنة » مرتين في هذه الفقرة

هو مشهور و بما ان فيليبقوس هذا عمل على نقضهِ وسعيد بن بطريق هو اول من سمى هذا المذهب بهرطقة الموارنة على ما اتصل بنا نتج بلا ريب ان هذا الكاتب اليعقوبي قد اخذ كلامهُ هذا عن سعيد المذكور لانهُ وافق ما في قلب اليعاقبة من البغضة والحقد لكل من دعي بهذا الاسم • اما الشطط البليغ الذي في كلام اليعقوبي المذكور فهو اظهر في قولهِ « واما قبل ذاك ففي ايام يوستنيانوس وقسطنطينوس الذي في زمانهِ كانت هرطقة الموارنة فكانهُ يريد بذاك ان هذه الهرطقة التي يسميها « هرطقة الموارنة » وهي المونوثيلية كما بينا انما ظهرت في ايام قسطنطين اللحياني وهذا بطلانهُ بين لا يحتاج الى برهان لان هذه البدعة انما ظهرت في ايام هرقل جد قسطنطين المذكور نحو سنة ٦٢٨ ولم تعزَ قط الى الموارنة الا عند سعيد بن بطريق وانما قسطنطين هذا حاربها بالمجمع السادس المقدس وعمل على ملاشاتها فاين هذا من كلام المؤرخ اليعقوبي المذكور ؟

ومما يظهر ملياً ان هذا الكاتب اليعقوبي (الذي لا يصلح ان يدعى مؤرخاً) ياتي الكلام على عواهنهِ دون تدقيق قولهُ « في ايام يوستنيانوس ... سنة ٩٩٠ (يونانية وهي سنة ٦٧٨ - ٦٧٩ مسيحية) » لان يوستنيانوس هذا لم يكن في ذاك الحين ملكا على الروم وانما كان والده قسطنطين اللحياني الذي بعد ذاك بنحو سنة عقد المجمع السادس المقدس المذكور ورقد بالرب في سنة ٦٨٥ وخلفهُ ابنهُ يوستنيانوس هذا المعروف بالاخرم وكان عمره نحو ست عشرة سنة كما روى ثاوفان المؤرخ وغيره بالاجماع • فيكون عمره في السنة التي عينها اليعقوبي اقل من عشر سنين فلا يمكن ان يقال والحالة هذه انهُ ربما كان ما لكاً مع ابيهِ قسطنطين • هذا فضلًا عن ان اغلاط اخرى سقط فيها بهذه الفقرة الصغيرة المع اليها حضرة الاب رنزفال ونحن عنهُ في الحواشي المعلقة عليها • فهل يمكن بعد ذاك ان يعتبر قولهُ في هذا المعنى الذي نحن بصدده ؟

ولقد ذهب بعض الناس الى ان الموارنة قد اتبعوا مذهب المشيئة الواحدة وتشيعوا لهُ بشدة حتى صار اسم « الماروني » واسم « المونوثيلي » (وهو اسم اصحاب هذه البدعة بالرومية) بمعنى واحد • بيد ان هذا الزعم الواهن ليس لهُ نصيب من الصحة ولا اساس من الحقيقة يبنى عليهِ • وانما مصدره النفور والحقد بل الحسد الذي عند مبتكريهِ نحو هذه الامة الكريمة • واول من اختلقهُ وصدع بهِ بكل جسارة انما هو سعيد بن بطريق كما ذكرنا آنفاً وذاك في تاريخهِ العربي الذي

انما هو على حد قول الشاعر

واذا اتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي باني كامل

فقد في هذا الزمان كل اعتبار وثقة عند علماء التاريخ المحققين لما جاء فيهِ من الاخبار الشتى المفتعلة التي لا تنطبق على الحقيقة ولا تثبت على مسبار او ميزان·

فسعيد هذا كان رجلًا من الملكية نشأ في فسطاط مصر وظهر في اواخر القرن التاسع او اوائل العاشر للمسيح وكتب تاريخهُ في الربع الاول من هذا القرن نفسه وهو يبدأ فيهِ من كون العالم وينتهي الى سنة ٩٣١ مسيحية الموافقة لسنة ٣٢٠ هجرية وهي السنة التي صار فيها بطريركا على الاسكندرية· وقد شحن كتابهُ هذا بالترهات والاباطيل والابتكارات التي لم يثبتها احد سواه من قبله وفي جملة ذلك ما اختلقهُ عن القديس مارون وعن الموارنة المنسوبين اليهِ · وقد قال في المجلد الثاني (ص ١٩١ وفي محال اخرى) ما مؤداه « وكان في عصر موريق رجل راهب اسمهُ مارون يزعم ان لسيدنا المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلًا واحدًا · فافسد مقالته الناس واكثر من تبعهُ في مقالتهِ هذه اهل مدينة حماه وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم فدعي التابعون لدينهِ والقائلون بمقالتهِ مارونيين نسبة اليهِ· ولما مات بنى اهل مدينة حماه ديرا بحماه وسموه ديرمارون »

وقد تطرف في ذلك الى ان دعا ايضًا كل من تبع مذهب المشيئة الواحدة وانتصر لهُ مارونيًا كسرجيوس وبيروس وبطرس وبولس بطاركة قسطنطينية وقورش وبطرس من بطاركة الاسكندرية ومقدونيوس وسرجيوس ومقاريوس بطاركة انطاكية · الى ان قال ان هرقل الملك كان مارونيًا ولذلك نهض قواده ووزراؤه وبطشوا بهِ · وان انوريوس بابا رومية تبع مقالة مارون وان يوحنا الذي خلفهُ حرم مارون واتباعهُ لتمسكهم بالطبيعتين والمشيئة الواحدة وان المجمع السادس الذي عقد في قسطنطينية انما عقد تربيغًا لبدعة مارون واتباعهِ الى غير ذلك من مثل هذه الترهات الظاهر بطلانها

وقد اقتفى آثار سعيد المذكور في هذه الرواية المبتكرة جمهور من مؤرخي السريان والروم واللاتين منهم غليلموس اسقف صور اللاتيني كاتب تاريخ الصليبيين المشهور وجرجس بن العميد وتوما الكفرطابي الذي يدعي انهُ ماروني وعبد الله بن انطيب الذي كان مارونيًا ومرق من طائفتهِ واتصل بنساطرة العراق وتوفي هناك سنة ١٠٤٣ وهذا اليعقوبي المجهول الذي ذكرناه في اول هذه الحاشية وغيرهم · وعن غليلموس المذكور خاصة اخذ هذه الرواية جمهور من

والشاهد في هذه الفقرة التاريخية انما هو قوله ما ملخصه :

كتبة الفرنجة على علاتها . وبالجملة ان مصدر هذه الحكاية الملفقة انما هو سعيد ابن بطريق المذكور

هذا وكل من له اقل المام في تاريخ تلك الازمنة يرى باقل تبصر بطلان هذه الرواية من كل وجه ويقطع بانها محض اختلاق وفرية لا سيما وهو لا يمكنه ان يجد احدا سبق اليها ولا في كتب المؤرخين الثقاة قبل القرن العاشر ما يسندها او يصلح برهانا وحجة لها باحد الوجوه . ومن عرف ان ابن بطريق انما كتب هذه الرواية في اوائل القرن العاشر وان هذه بدعة المونوثيلية ظهرت بين الربع الاول والربع الثاني من القرن السابع وتلاشت من عالم الوجود تقريباً بالمجمع السادس الذي عقد في قسطنطينية نحو سنة ٦٨٠ بحيث كان عمرها على ما ذكر في اول اعمال هذا المجمع المسكوني نحو ست واربعين سنة . ومن عرف من جهة ثانية ان موريق الملك الذي زعم ابن بطريق ان هذه البدعة قام بها مارون في عهده قد جلس على تخت مملكة الروم سنة ٥٨٢ بعد طيباريوس وانهُ في السنة العشرين من ملكهِ اغتالهُ فوقاس وتولى زمام المملكة مكانهُ وان مارون الذي ينتسب الموارنة اليهِ ويزعم ابن بطريق انهُ منشيء بدعة المشيئة الواحدة عاش في اواخر القرن الرابع والمعتمد في قصتهِ على الخصوص ما كتبهُ عنهُ تاودوريطوس اسقف قورس . ومن راجع من جهة ثالثة اعمال المجمع السادس المذكور الذي عقد في ذاك العهد واعمال كل المجامع الخاصة التي عقدت قبلهُ لهذه الغاية منذ ظهور هذه البدعة حيث لا يرى من أثر لذكر مارون ولا الموارنة اتباعه بين المبتدعة كل ذلك يجبره لا محالة ان يقطع باختلاق هذه الرواية عن الموارنة وبطلانها لانها من نتائج الاهواء الملتوية والغرور .

ومن اراد مزيد بيان في هذا الصدد عليهِ بمطالعة القسم الثاني من تاريخ العلامة المحقق البطريرك اسطفانوس الدويهي المطبوع في بيروت (من ص ٢٩٢ الى ص ٣٦٧) وكتاب روح الردود للعلامة العامل المطران يوسف الدبس (ص ص ٣٥ و ٤٠ و ٩٤ و ١٢٨ و ١٣٦ و ١٤٠ و ١٤٧ و ٢١٨) ثم كتاب الدر المنظوم للعلامة المفضال البطريرك بولس مسعد (ص ص ١٢٥ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٧١) والمكتبة الشرقية للعلامة المدقق الشهير السيد يوسف شمعون السمعاني (مجلد ١ ص ٥٠٦) وفي محال كثيرة من كتبهِ العديدة وغير من ذكر من علماء الموارنة حيث يرى ايضاً آراء اكابر علماء التاريخ مثل بارونيوس وسواه في تاريخ ابن بطريق عينهِ .

« ان هرطقة الموارنة قامت او ظهرت في عهد الملك قسطنطين اللحياني

ذلك ولقد اطلعنا في مجلة المشرق البيروتية على مقالة « في صحة الدين المسيحي للاب الفاضل والفيلسوف الكامل تاودورس ابي قرَّة اسقف حرَّان » عني بنشرها حضرة الخوري قسطنطين باشا الراهب الباسيلي المخلصي (٦ - ٦٣٣ و ٦٩٣ و ٨٠٠) فاذا في القسم الاخير منها (ص ٨٠٢ و ٨٠٣ و ٨٠٤) لفظة « منوثلي ومنوثليين » محضورة بين هلالين بخلاف لفظتي « نسطوري و يعقوبي » في هذه المقالة عينها فانهما عاريتان عن التقييد بالهلالين المذكورين فاستلفت ذلك نظرنا ولم نستطع الى فهمهِ سبيلًا حتى وردتنا كتابة موءرخة في ٢٨ ايلول سنة ٩٠٣ من حضرة ناشر هذه المقالة بها يدعونا الى الاشتراك في ما عول على نشره بالطبع من تآليف العلَّامة ابي قرة المشار اليهِ وقد قال فيها ما حكايتهُ « وقد حذفت منهُ لفظة (موارنة) في كل مواضعها المتعددة و ابدلتها بلفظة (منوثليين) حبًّا بكم وكرامة لشان طائفتكم ولئَّلا يفوت نفعهُ احدا من الطوائف الكاثوليكية » اه

ففهمنا قصد ناشر هذا الميمر من تقييد لفظة « منوثلي » بالهلالين . ولكن لا يمكننا ان نصف ما كان اشد استغرابنا لذلك ومع انا شكرنا كثيرا حسن نية حضرة الخوري قسطنطين باشا المذكور لم يرق لنا ما ظهر من اعتقاده بان لفظة « موارنة » التي جاءت في محل لفظة « منوثلية » في النسخة الحديثة التي اعتمد عليها على قولهِ انما كانت من كلام تاودورس صاحب المقالة في الاصل مما لم نكن لنعتقده نحن لاسباب شتى سنذكر بعضها .

و انا انرى ان حضرة الناشر ما حملهُ على ابدال لفظة (موارنة) بلفظة (منوثلية) في مواطنها من هذا الميمر الا اعتقاده بان القضية ذات اهمية كبرى عند الموارنة وعند جلة الموءرخين المحققين فكان من الواجب عليهِ و الحالة هذه في مادة مهمة نظير التي نحن بصددها ان يجدَّ في مراجعة نسخ اخرى غير التي اعتمد عليها ليصحح الرواية او يثبتها شان العلماء الراسخين الذين يعنون في نشر آثار السلف لفائدة ابناء جلدتهم وتعزيز جانب العلم و الحقيقة حذرا من اضلال من يطالعون مثل هذه الآثار فتضيع الغاية المقصودة من هذا العمل النبيل بل تُعكس كما لا يغرب .

فلو اجتهد حضرتهُ في مقابلة رواية النسخة التي بين يديهِ على النسخة التي أخذت عنها على الاقل وهو لا يجهلها لانهُ اشار اليها في المقدمة التي علقها على هذا الميمر لكان فضلهُ اوفر ونال كتابهُ من الثقة في صحة الرواية ما اكسبهُ مدحًا وفخرا ودفع عن اهل التحقيق موءونة العناء وكان ذلك احرى كثيرا من ان يتصرف مثل هذا

التصرف في هذه اللفظة التي كلف نفسهُ عن حسن قصد الى ابدالها على ما وصفنا

ونحن نرى انهُ اصاب في ابدالها من حيث لا يدري بيد انهُ بلغنا عن ثقة انهُ لم يبدلها الا في مجلة المشرق وفي النسخ التي اخذها عن هذه الطبعة على حدة • اما الطبعة الجديدة التي عوَّل على نشرها ضاماً اليها كل ما عثر عليهِ من مقالات اسقف حران واقترح الاشتراك بها فانهُ ازمع قسمتها الى صنفين ففي الذي يوزعه على مشتركيهِ من الموارنة يبقي هذه اللفظة مبدلة كما في مجلة المشرق وفي الذي يوزعهُ على غيرهم ولا سيما في اوربا فانهُ يبقي لفظة « موارنة » دون ابدال وهذا الذي حدا بنا الى تعليق ملاحظاتنا في هذه الحاشية كما يلي بايجاز •

اولاً • قد جاء في توطئة حضرة الاب لويس شيخو اليسوعي على هذه المقالة في مجلة المشرق (ص ٦٣٤) ما حكايته « ولعل النسخة التي وصفها حضرة الاب (الناشر) هي المنقولة عن النسخة الاصلية التي ذكرها السمعاني في المكتبة الشرقية (مج ٢ ص ٢٩٢ حاشية) وقال انهُ اطلع عليها في صيدا السيد افتيموس الصيفي اسقف الروم الملكيين الشهير • فراجعنا كلام العلامة السمعاني في المحل نفسهِ بهذا الشأن واذا ليس بهِ اقل ملاحظة في هذا المعنى اي من حيث وجود لفظة « موارنة » بمعنى (مونوثيلية) في احدى مقالات ثودورس ابي قرة التي اطلع عليها مع انهُ لو عثر على شيءٍ من ذلك لما فاتهُ ان يذكره ويذكر رأيه فيهِ وهو من الاهمية بمكان لا سيما وهو يدفع هناك كلام احد السريان الذي ينسب هذه البدعة للموارنة ويحمل على انخداعه بترهات ابن بطريق • فالارجح اذاً ان لا يكون من اثر لذكر الموارنة بمعنى المونوثيلية في النسخة التي وقف عليها هذا العلامة المحقق الشهير •

ثانياً • ان العلامة اسقف حران صاحب هذا الميمر هو فيما يقال تلميذ القديس يوحنا الدمشقي وقد قيل فيهِ ايضاً انهُ ناصب البدعة المونوثيلية نظير معلمهِ والقديس مكسيموس المعترف (مشرق ٦-١٠١٢ حاشية) والحال لا في تآليف القديس مكسيموس ولا في تآليف القديس يوحنا الدمشقي ولا في تآليف القديس صفرونيوس اقل ذكر للموارنة بمعنى المونوثيلية ولا في سواهم من معاصريهم حتى ولا في المجمع السادس وغيره من المجامع الكثيرة التي عقدت لنصب هذه البدعة ورذل مبتدعيها والمنتصرين لها من اثر لذلك • فهل يمكن والحالة هذه ان يتفرد اسقف حران وحده في ذكر الموارنة بمعنى المونوثيليين دون اقل مسند او حجة ؟ وقد رأيت ان اول من برز بهذه المقالة المخترعة في حق الموارنة انما كان سعيد بن بطريق وهو متاخر عن العلامة ثاودورس ابي قرة فلا حاجة الى المراجعة

ثالثاً . ومما يزيد هذا البرهان رسوخاً هو ان القول بان الموارنة و المونوثيلية سيان يقتضي ان يكون « مارون » مبتدع هذه الضلالة الوخيمة حتى يصح ان يقال في عصر من الاعصار ان كل مونوثيلي ماروني و بالعكس كما اراد ابن بطريق الذي بهذا المعنى دعا هرقل الملك و انوريوس البابا وجيورجيوس وقورش وغيرهم موارنة . و الحال ان هذا القول محال وليس من اثر لرجل يدعى مارون بين المبتدعة قبل رواية ابن بطريق المردودة كما بينا آنفاً . فاذا لا يمكن ان يسلم بذلك . ولا يرد على ذلك ان رهبان مار مارون هم الذين نهضوا بهذه البدعة وناصروها حتى عرفت بهم و اشتهر اسمهم بها حتى صار كل مونوثيلي يدعى مارونياً اي من اشياع رهبان مار مارون لان مثل هذا القول لا يقبل عفوا بل يحتاج الى برهان وضعي ولو كان ذلك صحيحاً ومشتهرا الى هذا الحد لما فات اباء المجمع السادس الذي بالغ في التدقيق لاحصاء اسماء اصحاب هذه البدعة المشهورين بالانتصار لها ان يذكر رهبان مار مارون واتباعهم المعروفين تحت اسم موارنة كما يراد بين اسماء الذين حرموا بسبب هذه البدعة . والحال لا اثر ولا اقل ذكر في اعمال هذا المجمع للرهبان المذكورين او لاسم مارون والموارنة . فاذا . . . .

رابعاً . ومن انعم النظر في كلام الفيلسوف اسقف حران في هذا الميمر عينه يرى لا محالة رأينا من انهُ لا محل عنده اذكر اسم « ماروني » مكان « مونوثيلي » لانهُ قبل البلوغ الى تقريف اهل هذه البدعة ونصحهم بالاقلاع عنها ياتي على مثل ذلك بحق اهل البدع التي سبقتها وخاصة بحق النساطرة واليعاقبة و يبني كلامهُ على اسلوب و احد فيذكر اولا اسماء المبتدعة و المجامع التي حرمتهم و رذلت مقالاتهم ثم يلتفت الى مشايعيهم واتباعهم مناديا اياهم بالاسم العام الذي اشتهروا بهِ نسبة الى البدعة او الى احد مبتدعيها الذين ذكرهم سابقاً اي باسم يشمل اهل البدعة التي يدحضها جميعهم على اختلاف فروعهم واذ يبلغ الى اصحاب المشيئة الواحدة المعروفين عامة بالمونوثيليين يقول ما حرفيتهُ « ثم خرج مقاريوس وقورس وسرجيوس وقالوا ايضاً في المسيح ما قالوا فانكرت الكنيسة قولهم و بارزهم ناس من الاباء . فاجتمع المجمع السادس المقدس بالقسطنطينية بارسقف رومية فطرحهم وابطل قولهم فقبلت الكنيسة المقدسة هذا المجمع كما قبلت المجامع التي كانت قبلهُ وهجرت مقاريوس واصحابهُ و بصقت قولهم . فما بالك يامونوثيلي قبلت المجمع الاول والثاني والثالث مسترسلا منبسطاً ولم تر ان لك مع رأيهم رأياً كما ادرك الروح

او بعده بقليل على ما ورد عنهم في تاوفان اذا عدلنا تاريخ السنين عنده

القدس »

فنحن لا ندري كيف يصح هنا ان ينادى الماروني مكان المونوثيلي دون اقل توطئة اذاك كمادة هذا الكاتب المجيد ولا ندري اي دخل للماروني حتى ولو سلمنا بان الموارنة كانوا اذاك العهد مونوثيلية كما يريد بعضهم • لان الكاتب الفضال انما يوجه كلامهُ الى كل الذين تبعوا هذه البدعة عامة فمن البديهي ان يناديهم باسمهم العام الذي يجمع كل فرقة منهم • والحال انهُ لم يكن قط اسم « الماروني » ولا في عصر من الاعصار عاماً على كل « مونوثيلي » الا في رأس ابن بطريق ومن اخذ عنهُ • فاذا ظهرت ارجحية حجتنا لكل منصف من المحققين المجردين عن الهوى والاعرَضنا هذا الرجل الشهير بعلمه وفضلهِ الى نسبة التحامل اليهِ •

خامساً • والذي يزيد هذه الحجة قوَة وبيانا هو قولهُ هنا بعد مناوأة اهل البدعة « قبلت المجمع الاول والثاني والثالث » دون ان يذكر المجمع الرابع ثم قولهُ في آخر الصفحة ٨٠٣ « فانت يا مونوثيلي ان نقمت على المجمع الخامس والسادس الخ » فان الموارنة اي اشياع مارون ورهبانهِ وكل من والاهم كانوا من اشد المنتصرين للمجمع الرابع وقد استشهد جمهور منهم لاجلهِ • ولا يمكن ان يقال فيهم انهم « نقموا على المجمع الخامس » الذي انتصر لهم بعد ان لجأوا اليهِ من جور ساويرس واصحابهِ كما تشهد التواريخ الصحيحة وخاصة اعمال هذا المجمع الخامس نفسه• فلا يمكن والحالة هذه ان يكون العلاّمة الفيلسوف تاودورس ابي قرة قصد في هذه المواضع الموارنة كما حرف بعض النساخ او كاتب هذه النسخة التي نحن بصددها • بل من الارجح جدا على ما يرشد العقل السليم ان يكون كتب في الاصل « مونوثيلية » كما صحح ناشر الميمر المذكور •

اخيرا • ولهذا ابي قرة مقالات شتى نُشر قسم وافر منها في مجموعة الاباء لمين (مج ٩٧ من ص ١٤٦١ الى ص ١٦١٠) باليونانية واللاَّتينية معاً وقد راجعنا كل ذاك فلم نعثر على ذكر للموارنة ولا للمونوثيلية • ثم وقفنا على مقالة حديثة لحضرة الاب لويس معلوف اليسوعي (مشرق ٦ - ١٠١١) في مجموعة بعض مقالات لتاودورس ابي قرة المذكور اكتشفها في المتحف البريطاني يرتقي تاريخ نسخها كما روى الى سنة ٨٧٧ وبين المقالات التي ذكر عنوانها من هذه المجموعة مقالة « في صحة الدين المسيحي وانتشاره بين الامم » ثم عرفنا من مقدمة حضرة الخوري

على الراي الصحيح حتى يوافق السنة الثامنة او التاسعة لقسطنطين المشار اليه : وكل ذلك موافق ايضاً للزمان الذي فيه اقيم يوحنا مارون الاول مطراناً على البترون بحسب راي علماء الموارنة الذين قالوا بالاجماع ان ذلك قد تم سنة ٦٧٦ للمسيح ·

فمن كل هذه الامور الراهنة والشواهد الصحيحة التي اوردناها حتى الان قد يمكن ان يستنتج ما ياتي

اولاً · ان جمهوراً غفيراً من اهل حماه وجوارها ممن كانوا على مذهب رهبان مار مارون ايام الشدة التي اثارها ساويرس الكافر واشياعه على الكنيسة الانطاكية بمعاضدة انسطاس الملك في اوائل القرن السادس قد هربوا من وجه مضطهديهم القساة وفازوا بانفسهم هم وعيالهم تاركين ديارهم ولاجئين الى الحصون التي تجاورهم ليحتموا فيها : افلا يمكن والحالة هذه ان يكون جبل لبنان في عداد هذه الاماكن الحصينة التي لاذ بها اولئك المساكين ؟

ثانياً · ان الذين رحلوا عن تلك الاماكن بسبب هذه الشدة لا بد من ان يكون ذهب معهم من نجوا بانفسهم من الرهبان ايضاً فامسكوا هذا الجمهور على المذهب القويم الذي لاجله كانوا عرضة لهذا الاضطهاد

ثالثاً · ومن بعد ان انقضت مدة الاضطهاد وخيم الامان والسلام على سورية في عهد يوستين الملك الذي جلس على تخت الملك بعد انسطاس

قسطنطين باشا ناشر هذا اليمر ان النسخة القديمة الماخوذة عنها هذه (وهي التي ذكرها العلامة السمعاني على ما نرى) هي عن نسخة اقدم وجدت في دير مار سابا بقرب اورشليم يرتقي عهد كتابتها الى اواسط القرن الحادي عشر· فمن الواجب اذا ان يرجع في تحقيق هذه الرواية الى النسختين المذكورتين وفي ذلك فصل لكل خلاف من هذا القبيل · اما الان وليس لنا من وصول الى احداهما فحسبنا والسلام ·

وانتصر للمجمع الخلقيدوني المقدس ورد الاباء ورؤساء الكهنة الى كراسيهم على ما ذكر المؤرخون ثم في عهد يوستنيانوس الكبير بعده الذي اقتفى اثاره وجدد بناء دير مار مارون على ضفة العاصي · اليس من المعقول ان يكون قسم كبير من الذين هاجروا ايام الشدة عادوا الى اوطانهم ايام السلم والامان كما يجري في كل عصر ؟ — فاذا صح هذا الافتراض المبني على قواعد الاستنتاج القياسي فلا بد من ان يكون جرى للذين هاجروا الى جبل لبنان ما جرى لغيرهم ممن هاجروا الى ناحية اخرى وبقي بين العائدين الى اوطانهم الاصلية وبين الباقين في مهاجرهم علائق وثيقة العرى وصلات لم تنقطع لا سيما وقد جمع بين الفريقين رابط واحد وغاية واحدة من حيث الدين والدنيا : ومن المعلوم ان جبل لبنان لا يبعد كثيرًا عن تلك المواطن المهجورة اولاً ثم المأهولة بالاهل والاحباب حتى يتقدر بصواب انقطاع هذه العلائق في مدة قصيرة بين الفريقين ·

رابعاً · ومما قد يثبت دوام هذه الصلة بين اهل جبل لبنان في ذاك العصر وبين رهبان مار مارون على الاقل انما هو ما يُروى من ان القديس يوحنا مارون الذي كان من رهبان هذا الدير كان من اول امره يعتني باهل جبل لبنان لاجل تهذيبهم وحفظهم على مذهبه ولا يقدَّر انه كان وحده يقوم بهذه المهمة بل كان معه معاونون من الرهبان المذكورين لهذه الغاية الحميدة وكان هو الزعيم فيهم · ولهذا قيل فيه ان يوحنا الفيلادلفي النائب الرسولي للبابا مرتينوس الاول في الامصار الشرقية قد اقامه مطرانًا على مدينة البترون وجبل لبنان ليقوى على حفظ اهل هذه البلاد بالايمان القويم :

خامساً · ومما قد يثبت هذا القول الاخير ما خلا كلام علماء الموارنة شهادة رواها العلامة الدويهي في اول تاريخه المشهور وفي محال اخرى منه عن كتاب معتقد اليعاقبة وهذا نصها بالحرف الواحد « لما غارت

الملوك الذين للروم على السريان وقتلوهم قام مارون وافق ملك الفرنج الذي في انطاكية وكان اسمه اوجان برنس وقال له يا ملك الزمان نحن خائفون على جبل لبنان لئلا تدوره طائفة الملكية الى امانتهم لان بوستنيانوس قيصر يبغض السريان التابعين ليعقوب ولامانته فقم الى الكردينال الذي عندك الزمه ان يكرسني مطران لان امسك بعض اناس على الامانة الافرنجية واما امانة يعقوب فلا اذكرها. فكرسه مطران على البترون وانه وجد الملكية وصل تملكهم الى قرية اسمها اميون فارتفع مويرين وابن اخته بريهيم عن الملكية الى سمار جبيل واحماهم من الجزية التي فرضوها الملكية على من لا يتبع دينهم ووافقوه كل السريان والذين في جبل لبنان تابعوا مارون [1] »

---

(١) قولهُ « مارون » يريد بهِ يوحنا مارون . وقولهُ « مويرين » كذلك وانما صغره الكاتب للتحقير اشارة الى ما لهذا الرجل في قلب اليعاقبة من الحقد . وكذلك قولهُ « بريهيم » اراد بهِ ابرهيم فصغره للتحقير ايضاً.

ولا ينكر ما في كلام هذه الشهادة من المعارضات التاريخية التي يجب استثباتها مثل وجود الافرنج والكردينال في انطاكية على عهد يوستنيانوس قيصر مما لم نر لهُ اثراً في التواريخ. وربما كان ذلك بعد عهد يوستنيانوس فتوافق هذه الشهادة قصة يوحنا مارون الثاني على ما بينا في الحاشية السابقة والله اعلم .

والذي يظهر ان هذا الكاتب لم يتعمد التدقيق في هذه الرواية بل القى الكلام على عواهنهِ لانهُ لم يكن من غرضهِ ان يبين تاريخ المسألة التي يكتب فيها بل سبب الفرقة بين الطائفتين من السريان هما اليعاقبة والموارنة فقال بالاجمال « لما غارت الملوك الذين للروم على السريان وقتلوهم قام مارون وافق ملك الفرنج الذي في انطاكية » فكاننا بهِ يريد ان يبين ان الموارنة فرقة من اليعقوبية وهذا ايضاً لا يوافق الحقيقة لان اتباع مارون ورهبانهِ كانوا منذ اول نشأة اليعقوبية خصوماً الداء لهم وقد جرت بين الفريقين حروب ومعارضات ومناقشات شديدة منذ المجمع الخلقيدوني فصاعدا كما يظهر مما اثبتناه حتى الان في متن هذه المقالة .

ومهما يكن من امر هذه الشهادة فالظاهر ان كاتبها من القرن الحادي عشر او الثاني عشر على الاكثر عند ما عمت اللغة العربية كل سورية (طالع مكتبة شرقية مج ٢

فلو لم يكن لهذا الرجل علائق سابقة من هذا القبيل مع اهل جبل

ص ٦٥) وقد يتحصل منها في كل حال ان الموارنة كانوا في عصر القديس يوحنا مارون على خلاف في المذهب مع اليعقوبية و الملكية. اما خلافهم مع الملكية فظاهر. واما خلافهم مع الملكية فيدل عليهِ دلالة صريحة قولهُ « نحن خائفون على جبل لبنان لئلّا تدوره طائفة الملكية الى مذهبهم » واما مذهب يوحنا مارون والموارنة في ذلك الحين فالظاهر انهُ كان المذهب المستقيم اي مذهب الطبيعتين والمشيئتين في ربنا وذلك ظاهر من قولهِ « الزمهُ بكرسي مطران لان امسك بعض اناس على الامانة الافرنجية » ومن المشهور الذي لا ريب فيهِ ان الامانة الافرنجية كانت المذهب المستقيم الذي ذكرناه آنفاً . اما قولهُ في آخر هذه الفقرة « واحماهم من الجزية التي وضعوها الملكية على من لا يتبع دينهم ووافق كل السريان والذين في جبل لبنان تابعوا مارون » فيدل دلالة واضحة على ان اهل جبل لبنان كانوا قبل يوحنا مارون هذا على خلاف في المعتقد مع الملكية وكانوا يُعدون من اتباع مارون ورهبانهِ . وهذا الذي قصدنا ان نبرهنه في المتن كما يرى المتامل .

وهنا مجال لان نبدي رأياً جديداً في اصل تسمية « الملكية » فقد رأينا في الحاشية الاولى التي وردت في هذه المقالة بطلان مدعى بعض الناس بان الملكية انما سموا بهذا الاسم نسبة الى الملك مرقيان الصالح الذي عضد المجمع الخلقيدوني لتشيّعهم لهذا المجمع واتباعهم تعاليمهِ القويمة . لان الذي ظهر حتى الان من الاثار التاريخية القديمة انما هو ان اشياع هذا المجمع انما دعوا « خلقيدونيين وسينودوسيين (نسبة الى سينودوس باليونانية ومعناها مجمع) واتباع رهبان مار مارون واصحاب بيت مارون وفروع كرم لاون واغراس الكرم الخلقيدوني » كما رأيت في الشواهد العريقة في القدم والاعتبار التي وردت في هذه المقالة .

مع ان جل ما استطاع ان يورده اصحاب الرأي المخالف من الشواهد التي جاء فيها اسم « ملكية » مجردا لا يتجاوز القرن الثامن وهو لا يصلح برهانا على كون هذا الاسم ظهر على اثر المجمع الخلقيدوني المذكور نسبة الى الملك مرقيان الذي سعى بتاليفهِ وعضده . ومما يعارضهم ايضاً ان هذا الاسم لم يكن عاماً في عصر من الاعصار على كل اتباع هذا المجمع المقدس كما كان الواجب لو صح افتراضهم بل هو لفئة خاصة من اهل سورية امتازت بهِ عن سائر الطوائف المسيحية والفت طائفة على حدة لها بطرك ومطارنة وطقوس خاصة بها تميزها عن غيرها .

ومما ينقض هذا التقدير الذى لا يدعمهُ من تاريخ انهُ لو صح ان اتباع المجمع

الخلقيدوني المقدس دعوا « ملكية » نسبة الى مرقيان الملك على ما ذكرنا لكان اولى بهذا الاسم رهبان دير مار مارون واشياعهم الذين اشتهروا اكثر من الجميع بمناصرتهم لهذا المجمع المقدس وتعاليمه منذ اول امره الى الاعصار المتاخرة وقد تجشموا بسببه اضطهادات وشدائد بليغة واستشهد منهم لاجله نحو ثلاثمائة وخمسين راهباً تعيد لهم الكنيسة باجمعها في ٣١ تموز ذلك فضلا عما جاء في اعمال المجمع الخامس العام من آثارهم . والحال انهم لم يدعوا قط بهذا الاسم الذي لم يظهر قبل القرن الثامن كما بينهُ اصحاب هذا الرأي نفسه . فاذا ...

ولهذا لا يمكننا ان نسلم بهذا الرأي المبتسر لان ما يوجب عفواً يُنكر عفواً .
وانما الذي يظهر لنا هو ان هذه الفئة دعيت « ملكية » بعد حين في سورية اولا . وسبب ذلك على الخصوص هو ان بطريركية انطاكية قد تقسمت الى طوائف شتى بحسب المذاهب واول طائفة ظهرت ككنيسة على حدة لها بطاركة ومطارين ورعية وكنائس غير خاضعة لبطريركية انطاكية العامة هي طائفة النساطرة . ويليها طائفة اليعاقبة ومنهم الارمن وقد جروا مجرى النساطرة . وبقي كل اهل هذه البلاد ممن لم يتبعوا طائفة من هذه الطوائف خاضعين لبطريركية انطاكية الحقيقية التي كانت تحت سيطرة ملوك قسطنطينية وبطاركتها ينصبون بطريركا عليها من شاؤوا وكان على مذهبهم حتى استولى العرب على كل سورية ودوخوها تحت حكمهم فلم يعد مستطاعاً لبطاركة انطاكية ان ياتوا الى كرسيهم وانما كانوا يقامون في قسطنطينية ويقيمون فيها . فنهض اذ ذاك فئة من السريان المعروفين باتباع رهبان مار مارون ونادوا ببطريرك لهم والفوا كنيسة على حدة لها مطارنة وكهنة ورعية وكنائس وطقوس خصوصية ودعوا باسم « موارنة » وكان معظمهم في جبل لبنان واتصلوا بكنيسة رومية كما هم الان .

اما الذين بقوا حينئذ من اهل سورية غير تابعين لا النساطرة ولا اليعاقبة ولا الارمن ولا الموارنة بل استمروا خاضعين لبطريرك انطاكية الذي كان يقيمهُ بطريرك قسطنطينية وملوكها فقد تميزوا ككنيسة على حدة ايضاً وكان بطريركها ورعيته الخاضعة لهُ تحت سيطرة قسطنطينية . فترك اذ ذاك هوءلاء الطقس السرياني الذي كان طقس الكنيسة الانطاكية واتخذوا الطقس اليوناني مترجماً الى السريانية او العربية بحسب الحاجة كما تشهد كتب طقوسهم القديمة . ومن ثم فبسبب انقياد هذه الكنيسة لبطريرك العاصمة ولملوكها وخضوع هذه الرعية لبطريرك انطاكية

مطرانًا عليهم : هذا وليس من دليل على ان هذه العلائق بين اهل جبل لبنان وبين رهبان دير مار مارون قد ابتدات من يوحنا مارون هذا بل المعقول بالاكثر ان يكون هو خلفًا لمن سلفوا قبله من اخوانه الرهبان الذين كانوا يعنون بامر اهل لبنان في الروحيات كما اشرنا ·

سادسًا · ان كل الذين كانوا في سورية متشيعين لرهبان مار مارون ومتشبثين بعقائد المجمع الخلقيدوني نظيرهم ومنتصرين له ضد اليعاقبة مناوئيه كانوا يدعون منذ اواسط القرن السادس على الاقل « اصحاب او اشياع رهبان مار مارون » وبعد ذلك اي في اواسط القرن السابع « اصحاب بيت مارون » دون ذكر الرهبان ويعرفون في كل مكان من سورية بهذا الاسم الذي على مايظهر كان اليعاقبة خصومهم يدعونهم به لانهم كانوا متشيعين لهولاء الرهبان كما ذكرنا

ومن هنا يُفهم كيف ان الموارنة قبل ان ظهروا بهذا الاسم في جبل لبنان على عهد مار يوحنا مارون بطريركهم الاول كانوا ممتدين في جهات حمص وحماه وانطاكية وقنسرين والعواصم حتى منبج والرها وسائر المحلات التي ذكرها حضرة الاب لامنس مستدلا عليها باثارهم كجهات الموصل وبين النهرين والعراق ·

سابعًا · يتحصل من شهادة ابن العبري وشهادة المؤرخ اليعقوبي الرهاوي اللتين اوردناهما سابقًا ان اليعاقبة وكل المخالفين لمعتقد المجمع الخلقيدوني

المنصوب من قبل قسطنطينية والمقيم اول الامر فيها وبسبب اتخاذهم طقس الروم الذي قد يسمونهُ ملوكيًا لموضع فخامتهِ ولانهُ طقس عاصمة الملوك ويستعمل فيهِ التاج الملوكي ايضًا وقد امتازوا بكل هذه الامور وبمذهبهم الديني ايضًا الذي كان على مذهب قسطنطينية أُطلق عليهم اسم « ملكيين » ولهذه العلل نفسها دعوا « رومًا » ايضًا تمييزًا لهم عن سائر الفئات النصرانية في سورية اللواتي عُرف كل منها باسم خاص كما ذكرنا · ومن ذاك الوقت اخذت هذه الطائفة تنقلب مع كنيسة القسطنطينية كيفما تقلبت في كل معنى الى يومنا هذا ·

المقدس لما اشتد ازرهم وتنفست كربتهم بعد فتوح العرب لسورية ونالوا تمام حريتهم وتقربوا من الخلفاء كما يعلم من تواريخ تلك الايام اخذوا من ثم يأتثرون من اشياع رهبان مار مارون ويضطهدونهم كما استطاعوا حتى تضعضعت احوالهم وضعفت واضطر جمهور منهم ان يلجأ الى جبل لبنان تحت راية القديس يوحنا مارون الذي لم شعثهم وضمهم الى اخوانهم الوطنيين فاخذوا جميعاً يذودون عن حياضهم ويشنون الغارة عند الاقتضاء على مناوئيهم : فانحصروا اذ ذاك في محل واحد تحت اسم « موارنة » والفوا كنيسة على حدة . ولهذا قال المؤرخ اليعقوبي بذكور فيهم ما رويناه قبلا ومؤداه « ان بين سنة ٦٧٨ و ٦٧٩ وهي سنة ٩٩٠ للاسكندر على عهد قسطنطين اللحياني قامت اي ظهرت هرطقة الموارنة »

ومن المقرر ان الموارنة لم يكن لهم « هرطقة » او مذهب مخصوص لا في ذاك التاريخ ولا في سواه قبله او بعده كما بينا في الحاشية السالفة فلا يمكن اذاً ان يفسر هذا الكلام « اي ظهرت هرطقـة الموارنة » الا بالمعنى الذي نقصد بيانه وهو انه لما تألب اشياع مارون من كل صوب وانضموا بعضهم الى بعض في جبل لبنان هرباً من الجور والاضطهاد من سيف الفاتحين في تلك الايام ألفوا شعباً واحداً ممتازاً عن سواه في معتقده واغراضه الدينية والمدنية حتى صاروا كانهم كنيسة منفصلة عن بطريركية انطاكية فقال لذلك اليعاقبة فيهم انهم ابتدعوا هرطقة جديدة في هذا التاريخ نفسه وسموها « هرطقة الموارنة » كما راينا والا فمن الغريب ان يقال ان هرطقة الموارنة ظهرت في الحقبة التي صار فيها يوحنا مارون مطراناً على البترون وجبل لبنان وفي التاريخ الذي عينه تاوفان المؤرخ الرومي لدخول المردة والبلاذري المؤرخ العربي لدخول خيل الروم والجراجمة الى جبل لبنان .

ثامناً . فاذا صح هذا التقدير المسند الى الحقائق التي بين ايدينا الا

يصح ان يكون مردة تاوفان وجراجمة البلاذري واصحاب هرطقة الموارنة شعباً واحداً على الاقل في تلك الحقبة ولو تعددت الاسماء ؟

ويقال ان يوحنا مارون البطريرك قد نشأ في سروم ولهذا يدعى احياناً بيوحنا السرومي كما روينا سابقاً . وسروم هي بلدة في جبل اللكام الذي جاء منه الجراجمة الى جبل لبنان . ويقال ايضاً انه قد جاء من وطنه الى دير مار مارون الذي على العاصي فترهب فيه . فلو لم يكن قومه على مذهب هؤلاء الرهبان في ذاك الاوان لما جاء اليهم وانخرط في سلكهم . او اكان اعتنى على الاقل بعد ذلك في رد قومه واهل جواره الى مذهب رهبانه ولم يتغاض عنهم آتياً الى لبنان .

وقد شهد اليعاقبة انفسهم في الفقرة التي مر ايرادها عن كتاب معتقدهم ان ابرهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون صعد مع خاله الى سمار جبيل وحمى الموارنة من اداة الجزية . فالظاهر من هذه الشهادة ان ابرهيم المذكور لم يأتِ سمار جبيل مع خاله القديس وحده بل كان معه زمرة من الابطال استطاع بهم ان يجتاح البلاد حتى بلغ لبنان وتحصن في سمار جبيل وحمى اهل هذا الجبل من خصومهم .

فابرهيم هذا انما كان من جبل اللكام وقومه الذين جاء بهم الى لبنان لحماية ابناء مذهبه اجابةً لطلب خاله كانوا ايضاً من جبل اللكام : ومما يُقدَّر بكل صواب انهم كانوا ممن اطلق عليهم اسم « جراجمة » في ذاك الزمان . لان اسم الجراجمة كان قد اطلق في اول الامر على ما يظهر من كلام البلاذري على اهل مدينة من جبل اللكام بالقرب من انطاكية يقال لها « الجرجومة » اشتهروا بالباس في الحروب حتى كان يخشاهم كل اهل جوارهم فحموا ذمارهم ما استطاعوا وانضم اليهم جمهور من الناس ممن لم يكن لهم ملجأ في هاتيك الاحوال المشهورة فاطلق

على الجميع اسم الجراجمة لانهم اجتمعوا تحت راية واحدة . قال البلاذري « وان امرهم كان ايام استيلاء الروم على الشام وانطاكية الى بطريق انطاكية وواليها فلما قدم ابو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم اذ خافوا على انفسهم »

ففي قوله ان امرهم كان الى بطريق انطاكية وواليها وانهم بعد فتح انطاكية لزموا مدينتهم دليل على انهم لم يكونوا يلزمونها قبل ذلك بل كانوا كجيش تحت امر والي انطاكية الرومي يخدمون اغراضه في انطاكية وفي كل الايالة بما يريده منهم . وقد استعملهم العرب بعد فتح انطاكية ثانية لمثل هذه الغاية . قال البلاذري « فغزا الجرجومة (حبيب بن مسلمة الفهري الذي تولاه ابو عبيدة على انطاكية بعد فتحها ثاني مرة) فلم يقاتله اهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام » فمن هنا يتضح على ما نرى ان اهل جبل اللكام كانوا كلهم على هذه الطريقة وكان يطلق عليهم جميعاً من باب التغلب اسم الجراجمة لاشتهار هؤلاء اولا من مدينتهم الكبيرة والمنيعة ولحاق اولئك بهم .

وكان هولاء الجراجمة من النصارى وقد قال البلاذري في تاريخ سنة ٨٩ هـ (٧٠٧ م) عند ذكره فتح الجرجومه اخر مرة « فافتتحها (مسلمة ابن عبد الملك) على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام ... وعلى ان لا يكرهوا ولا احد من اولادهم ونسائهم على ترك النصرانية » وعلى الارجح كانوا على مذهب رهبان مار مارون كاهل كل تلك النواحي في ذاك العهد ولهذا نراهم اذا تضايقوا اتوا الى اخوانهم في جبل لبنان وامتزجوا بهم واتفقوا معهم في كل شيء دون حرب ولا خصومة ولا اقل منازعة على امر من الامور .

ولم يكن اهل جبل لبنان اقل باساً ولا احط شاناً لذاك العهد من

الجراجمة . وقد روى عنهم العلامة الدويهي في تاريخه المشهور (ص ٦٨) اخبارًا موجزة نقلها كما قال عن كتاب قديم العهد وصل اليه من سالفه البطريرك جرجس وقد نسخه داود بن ابرهيم في سنة ١٦٢٦ اليونانية الموافقة لسنة ١٣١٥ المسيحية وهو يتضمن اخبارًا مختلفة من جملتها ما ياتي « انه في ابتداء دولة العرب كان يوسف ملكًا على جبيل وكسرى على الداخلية ومن اسمه سميت كسروان . وكان ايوب متوليًا قيصرية فيلبس وبيت المقدس في خلافة عمر . وبعد ايوب قام الياس وهذا انجد هرقل عند قدومه الى بلاد الشام . وبعد هؤلاء دخل على تدبير بلاد جبيل وجبل لبنان يوسف الملك واستصحب معه اثني عشر الف فارس بطل وسار بهم الى بلاد ارمينية وظفر بجيش سابور وكان قائده سرجيوس الارمني فهدم معاقله وحصونه وسلب نعمته ثم عاد راجعًا . فلما اتصل بسابور ان عسكره ولى مكسورًا امتلأ غيظًا وحنقًا على سرجيوس وامر به فطرح في نهر ارسينس ومات غريقًا . ثم ان عساكر يوسف الملك جازت سواحل البحر والبقاع حتى ولجت بلاد معاوية وشتتت اهلها في كل صقع . ولما توفي يوسف ملك مكانه يوحنا وكان اسدًا مهيبًا » والكتاب المذكور يخبر عنه هكذا (وهنا الدويهي يثبت النص السرياني بذاته اما نحن فاكتفينا باثبات ترجمته الحرفية) قال « وقام بعد يوسف ملك اسمه يوحنا فاستولى على الارض المقدسة وخرج من لبنان الى الكرمل وفي صحبته جماعة عظيمة واراد المسير الى اورشليم فخرج عليه لصوص كثيرون من بلاد (الرجزة واحاطوا به فوق برج الغرباء وهلك من جماعته ثلاثة الاف بالسيف ثم ارتد على الرجزة وبلادهم وقتل منهم تسعة الاف وسلب اشياءهم ومواشيهم والنساء والفتيان ورجع الى بلاده وقطن بسكنتا »

وليس من العدل ان تزرى هذه الشهادة النفيسة لا من جهة ناقلها لانه رجل مشهور بفضله وعلمه وصحة نقله مما لا يكابر به الا الماحك ولا

من جهة الكتاب الذي نقلت عنه لانه كتاب قديم العهد يرتقي نسخه الى سنة ١٣١٥ فمن اللازم ان يكون أُلف قبل هذا العهد بما لا يمكن تحديده ولا من جهة مؤلفه لان الظاهر انه وطني يكتب تاريخ وطنه وقومه وهو احق الناس بمعرفة احوالهم وما يتعلق بتواريخهم الا اذا رؤي هناك بعض الغلو في اعمال هؤلاء الامراء الذين يسميهم ملوكاً بحسب عادة ذاك الزمان٠

فمن هذه الشهادة اذاً يظهر ان اهل جبل لبنان قد كانوا قبل عهد القديس يوحنا مارون ذوي شان وباس وصولة فلا عجب اذا كان ينضوي اليهم كل من اخنى عليه الدهر من اخوانهم في المذهب ايام الشدة ويجدونهم عند الحاجة ٠ كما قد يظهر من كلام البلاذري نفسه في ايام عبد الملك بن مروان « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه اشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه » ثم بعد اخباره عن قتل القائد الرومي غيلةً بواسطة سُحيم بن المهاجر قال « فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام » ثم قال بُعيد ذلك عند وصفه ميمون الجرجماني « وانما نُسب (اي ميمون) الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم » ومن ذلك ايضاً ما جاء في كتاب معتقد اليعاقبة في الفقرة التي ذكرناها آنفاً عن صعود ابرهيم مع خاله القديس يوحنا مارون الى مار جبيل برجاله لنجدة الموارنة على خصومهم٠

وهذا آخر ما اردنا تحبيره في هذا القسم الاول وقد جاء فيه أمور لم تتقرر بعد فاوردناها على علاتها دون ان نبدي رأينا او ندقق فيها ما شاء

البحث والتدقيق رعاية للظروف الحرجة التي تحول دون البغية ٠ ولم يكن من غرض هذه المقالة الا ما كان يتعلق بامر المردة والجراجمة والموارنة من حيث اصلهم والعلائق التي كانت بينهم ٠ وما توسعنا في هذا البحث الى هذا الحد حتى كدنا نخرج عن الموضوع الا قصد الافادة وبيان وجه المسئلة الحقيقي وجمع شتات الشواهد التي وقعت لنا مما قد يكشف النقاب ويزيل بعض الاوهام عن امور شتى تتعلق بتلك الاعصار الخالية ٠ وقد ترجح عندنا من ذلك ان الجراجمة سكان جبل اللكام قد امتزجوا بسكان جبل لبنان وجمعت بينهم الاغراض الدينية والمدنية حتى صاروا امة واحدة اطلق عليها فيما بعد اسم « الموارنة » وكان جبل لبنان مهد هذه الامة وموئلها وملاذها المنيع ومرجعها عند الضيق كما هو الان ٠ وبذلك ابطلنا راي حضرة الاب لامنس اليسوعي ومن ناصره فيه وهو ان المردة ليسوا الموارنة بل هم الجراجمة لانه اذا صح قوله هذا وصح قولنا المومأ اليه (وليست حجته اقوى من حجتنا) حصل التناقض كما يرى المتأمل .

اما رأينا المعوّل عليه فهو ان المردة (كما يدعوهم المتاخرون) او المردائيتي (كما يدعوهم مورخو الروم والفرنجة) او المرديون (كما يروق لنا ان ندعوهم من قبيل ترجمة اسمهم الرومي وهو على النسبة عندهم) ليسوا الجراجمة ولا الموارنة كما اراد بعضهم وانما هم خيل للروم ارسلهم الملك قسطنطين اللحياني الى جبل اللكام فجبل لبنان حتى يفرز اهل هذين الجبلين ويشترك الجميع في ازعاج دولة العرب التي كانت فتحت سورية والهائها عن التوغل في فتح سائر البلدان من مملكة الروم ما امكن ٠ ولقد فعلوا تحت قيادة احد قواد الروم حتى اضطروا العرب الى عقد صلحين ثقيلتين عليهم مع قسطنطين اللحياني المشار اليه ثم مع ابنه يوستنيانوس الاخرم من بعده ٠ وقد خدع العرب هذا الاخير الذي تولى المملكة وهو فتى غر حتى رضي بان يكون من شروط الصلح الاخيرة اخراج عسكر

المردائيتي من جبل لبنان · وقد اخرجهم فعلاً واحكمهم في ارمينية ولم يدرِ بانه انما هدم بذلك سوراً نحاسياً من وجه المملكة الرومانية كما قال جلة المؤرخين : وهذه هي القضية التي نقصد اثباتها في القسم الثاني من هذه المقالة وبالله التوفيق :

القسم الثاني

في اثبات كون المردة او المردائيتي هم غير الجراجمة ولا الموارنة

توطئة

ان اول من ذكر « المردائيتي » اي المردين او المردة في جبل لبنان من الكتبة الاقدمين ومؤرخي هاتيك الاعصار الخالية انما هو ثاوفان المورخ الرومي في تاريخه الشهير · وقد اخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين كبولس الشماس وانستاس المكتبي [1] وقدرينوس وزوناراس وابن العبري في تاريخه السرياني وغيرهم وكلهم قد اقتصروا في الرواية على ما ذكره ثاوفان نفسه عن هؤلاء دون زيادة ولا خلاف جوهري مما يثبت

(١) ان بولس الشماس وانسطاس المكتبي قد كتبا تاريخهما في اللاتينية وكلا التاريخين على ما يظهر واحد لان المادة واحدة والكلام او التعبير اللاتيني واحد بعينه ولا يخالف الاول عن الاخر الا في امور طفيفة غير جوهرية وكلاهما ناقلان تاريخ ثوفان من اليونانية دون زيادة فلا يجب والحالة هذه ان نحسبا الا ترجمة عن ثوفان لا كما وهم بعضهم ·

اعتمادهم عليه في النقل لا سيما وهو اقدم عهداً منهم وروايته من الثقة بحيث لا يعارضها شيء من الآثار التاريخية ولا يشوبها ادنى ريب وكل المؤرخين الذين ذكروها اذا لم يُسلّم بانهم اخذوا عنه فلا اقل من ان يكونوا شهوداً عدلاً على صحتها لزيادة الثقة فيها . والذي يزيدها قوة من هذا القبيل هو ان ثاوفان كان قريب العهد من تاريخ هؤلاء المردائيتي الذي يرويه لانه ولد سنة ٧٥١ وهولاء انما ظهروا في جبل لبنان على قوله في السنة الثامنة او التاسعة لقسطنطين اللحياني ملك الروم الموافقة لسنة ٦٧٧ المسيحية كما ذكرنا في القسم الاول مراراً

اما الجراجمة فقد جاء ذكرهم في تاريخ (فتوح البلدان) لاحمد البلاذري (ص ١٥٩) حيث عرّفهم وذكر بعض اخبارهم مع العرب ايام فتح سورية ببعض التفصيل . وقد وافق ذلك تاريخ ظهور المردائيتي المذكورين في جبل لبنان فجاء في كلامه ما يوافق كلام ثاوفان المذكور عن حوادث هاتيك الايام في جبل لبنان وما جاوره مما يبين حقيقة امر هؤلاء المردائيتي الذين يذكرهم ويذكر دخولهم الى لبنان تحت اسم « خيل الروم »

والبلاذري انما كان بعد عهد ثاوفان المؤرخ الرومي بمدة قليلة لان هذا كان في اواخر القرن الثامن وانتهى في تاريخه الى سنة ٨١٣ اي في اوائل القرن التاسع والبلاذري كان على ما يظهر في بهرة القرن التاسع : ومن المعلوم ان البلاذري هو اول مؤرخ عربي اتى بذكر الجراجمة وحوادثهم ايام فتح سورية وعنه اخذ من جاء بعده كابن الاثير في الكامل (٤ : ١١٨) عند ذكر عصيان الجراجمة . وياقوت في معجم البلدان (٢ : ٥٥) ولا يمكن ان يكون البلاذري اخذ عن ثاوفان ولا عن الذين اخذوا عنه لانه لم يكن يعرف الرومية وهو نفسه يصرح بانه انما اسند روايته تلك الى مشايخ من اهل انطاكية فضلا عما يظهر من

مجرد الوقوف على روايته ورواية ثاوفان وسائر مورخي الروم ·

فعندنا والحالة هذه مصدران وثيقان في بيان امر المردائيتي واصلهم ومصدر واحد في بيان امر الجراجمة واختلافهم عن المردائيتي كما رايت ولما كان كل معولنا في هذه القضية على هذين المصدرين راينا ان نصدر هذه المقالة بهما اولاً ثم ناتي على اثبات قضيتنا منهما خاصة ثم ندعمها بما يوافق هذا القصد من الشواهد التاريخية ·

وهذه ترجمة ما جاء في ثاوفان المؤرخ الرومي عن « المردائيتي » بالتدقيق

« سنة ٦٦٩ م — في هذه السنة دخل المردائيتي الى لبنان واستولوا على كل ما هو من جبل اللكام [1] حتى المدينة المقدسة واحتلوا بعض مشارف لبنان وضوى اليهم جماعة كثيرة من العبيد والاسرى ومن الوطنيين حتى انهم في مدى زمن قصير بلغوا الوفاً كثيرة · ولما سمع معاوية ومستشاروه بذلك خافوا خوفاً شديداً حتى انهم لموضع اعتقادهم بان مملكة الروم محمية بعناية الله ارسلوا رسلاً الى قسطنطين الملك في طلب الصلح وفوضوا اليهم ان يعرضوا ايضاً الجزية السنوية · فقبل الملك هؤلاء بالحلم واستجاب طلبهم وانفذ معهم الى سورية البطريق يوحنا الملقب بالبتزيوكودي وهو شيخ حنكه الدهر واشتهر بالفطنة في امر المصالح العمومية بحيث يمكنه ان يداول العرب فيما يوافق المصلحة على ما يرام وان يقرر شروط الصلح · فلما بلغ سورية جمع معاوية خواصه من بني امية وقريش واستقبله بحفاوة ومن بعد الاخذ والرد في امر الصلح تم الاتفاق بين

(١) جبل اللكم انما هو جبل السويدية الذي فوق انطاكية · اما تاريخ سنة ٦٦٩ م عند ثاوفان فهو يوافق تاريخ سنة ٦٧٧ م في الحقيقة على ما بينا غير مرة · ويجب ان تعلم ان المحققين قد وجدوا فرق ثماني سنين او اكثر بين التاريخ الذي يعينه ثاوفان وتاريخ الحقيقي ·

الفريقين على تحرير شروط الصلح كتابة بعد تعزيزها باليمين وكانت كما يلي : اي ان يدفع العرب لخزينة الروم كل سنة ثلاثة الاف وزنة من الذهب وثمانية الاف مملوك وخمسين فرساً كريماً .

ومن بعد ان تقرر ذلك بين الفريقين وتم عهد الصلح بين الروم والعرب الى ثلاثين سنة واستلم كل فريق صكا شرعياً بها عاد ذاك الرجل الشريف المشار اليه بهدايا نفيسة الى الملك . وما كاد يبلغ خبر هذا الصلح الى سكان الغرب حتى ارسل خاغان امير الابريين وسائر ملوك تلك المقاطعات وحكامها واكابر رجال الطوائف الغربية رسلاً يحملون الهدايا الى الملك لاجل عقد الصلح بينهم وبينه . فاجاب الملك سولهم واقر عهد الصلح معهم على ما يوافقه وهكذا ساد الامان والسلام في الشرق والغرب معاً »

ثم ان ثاوفان يذكر في تاريخ سنة ٦٧٠ خبر الزلزال الذي حدث فيما بين النهرين . وفي سنة ٦٧١ يذكر موت معاوية وتولي ابنه يزيد مكانه .

وفي سنة ٦٧٢ يذكر عقد المجمع المسكوني السادس في قسطنطينية بعناية قسطنطين الملك .

وفي سنة ٦٧٣ يذكر ان قسطنطين الملك نحّى اخويه هرقل وطيباريوس عن الملك واستقل به مع ابنه يوستنيانوس .

وفي سنة ٦٧٤ يذكر خبر خروج موخار المارق واستيلاءه على بلاد فارس وادعاءه النبوة والاضطراب الذي حصل بين العرب من جراء ذلك .

وفي سنة ٦٧٥ يذكر موت يزيد وخلافة مروان وخروج عبد الله ابن الزبير .

وفي سنة ٦٧٦ يذكر موت مروان وخلافة ابنه عبد الملك : ثم يقول

بعد ذلك ما ترجمته :

« وفي هذه السنة حلّت المجاعة والوباء في سورية . وتولى عبد الملك على العرب . وبسبب غزوات المردائيتي في الارجاء التي حول لبنان وثقل وطأة الوباء قد طلب هو نفسه (اي عبد الملك) تجديد عهد الصلح التي كانت عقدت اولاً على عهد معاوية فارسل رسلاً الى الملك في ذلك وتعهد بان يقدم ثلاثمائة وخمسة وستين وزنة من الدنانير الذهبية ومثل هذا العدد من المماليك وقدراً لا يقل عنه من الخيول الكريمة »

« سنة ٦٧٧ م في هذه السنة رقد قسطنطين الصالح بسلام بعد ان حكم سبع عشرة سنة وخلفه ابنه يوستنيانوس . »

« سنة ٦٧٨م وهي الاولى ليوستنيانوس ملك الروم -- في هذه السنة ارسل عبد الملك رسلاً الى يوستنيانوس لاجل اقرار الصلح وقد عُقدت بالشروط الآتية : اي ان يقمع الملك جيش المردائيتي الذي كان يسطو من لبنان ويمنع غزواته . اما عبد الملك فانه يقدم كل يوم للملك الفا دينار من الذهب وفرساً ومملوكاً وان كلا الملكين يتقسمان بينهما قسمة سوية متعادلة مداخيل قبرس وارمينية وايبارية . فاوفد الملك بولس الفقيه الى عبد الملك لاجل اقرار عقد الصلح وابرامه بصكوك مكتوبة امام شهود وكان لهذا الفقيه استقبال حسن ومن بعد قضاء هذه المهمة عاد الى الملك وهذا اصدر امراً الى المردائيتي فاخذهم نحو اثني عشر الفاً من المحل المذكور وقد دكّ بذلك القوة الرومية لان تلك المدن التي كان يسكنها العرب على قمم الجبال من حد المصيصة الى ارمينية الرابعة كانت اصبحت كلها ضعيفة العدة وخالية من السكان بسبب غزوات المردائيتي الذين ذُللوا بعد ذلك . وبالواقع فان كل صنوف المصائب والبلايا حلت منذ ذاك اليوم حتى الان على المعاملة الرومية بفعل العرب »

« وفي تلك السنة عينها بعث عبد الملك زياداً اخا معاوية على موخار

الخارجي في فارس فقتل موخار زياداً المذكور وعرف عبد الملك فتوجه الى ما بين النهرين . وفي هذه الاثناء خرج عليه سعيد فاسرع عبد الملك عائداً الى دمشق التي كان سعيد استولى عليها وبعد ان اغراه على فتحها بعهود المسالمة غدر به وقتله . اما يوستنيانوس فانه كان بعدُ فتىً بلغ السادسة عشرة سناً واخذ يتعرض بسوء رايه لكل امور المملكة فارسل لاون القائد بالجيوش الرومية الى ارمينية فقتل السراكسة الذين كانوا هناك واخضع ارمينية للولاية الرومية ومثلها ايبارية والبانية وبلقاقية ومادية وجمع المال من كل الاقطاعات المذكورة وارسل ذخرة وافرة الى الملك . فبلغ عبد الملك هذا الامر واتى الى قرقيسية ومنها الى انطاكية »

« سنة ٦٧٩م في هذه السنة حصلت مجاعة في سورية فهاجر كثير من سكانها الى الولايـة الرومية . اما الملك فانه اتى الى ارمينية واستقبل جيش المردائيتي ذاك السد النحاسي سد المملكة الرومية الذي كان في لبنان واُخرج منه . وحل عهد الصلح الذي كان مع البلغار منتهكاً شروط المحالفة التي كان قررها فاخاف بها . وبما انه كان صمم النية على وضع البلغار وبلاد السلاف تحت ربقة العبودية امر بارسال كتائب خيل الى ثراقية »

« سنة ٦٨٢ م في هذه السنة سكن في مملكة العرب كل ما كان جائشاً من الخلافات والحروب وضعت اوزارها وبعد ان اخضع عبد الملك كل الخوارج ومدّ سرادق الاماني على الشعوب اخذ يسعى جهده في توطيد اركان السلام »

« وفي هذه السنة نفسها نكل يوستنيانوس بعهد الصلح الذي كان ابرمه عن جنون في النفس مع عبد الملك . وعوّل على نقل اهل قبرس الى بلاد اخرى عن رعونة وعدم روية . ورفض قبول الدراهم التي ضربها عبد الملك حديثاً وارسلها نظير جزية ولم يكن له بها عهد قبل ذاك الحين .

وانخدع لتوسلات العرب لظنه انها من قبيل الخوف لا من قبيل الخديعة حتى اذا امنوا غزوات المردائيتي يلجأُون بطرق مفتعلة الى نقض عهد الصلح كما جرى فعلاً بعد كل هذه الاحوال »

وهذا كل ما جاء في ثاوفان عن تاريخ دخول المردائيتي الى جبل لبنان وخروجهم منه الى آخر ما جاء فيه عنهم اوردناه بكل دقة : واليك الان كلام البلاذري في هذا الشان لتتدبره وتقابله بكلام ثاوفان المذكور آنفاً .

﴿ ذكر الجراجمة ﴾

« في تاريخ فتوح البلدان للبلاذري »

(مشرق ٦ : ٣٠٧)

« حدثني مشايخ من اهل انطاكية ان الجراجمة من مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج بين بيّاس وبوقا يقال لها « الجرجومة » وان امرهم كان في ايام استيلاء الروم على الشام وانطاكية الى بطريرك انطاكية وواليها . فلما قدم ابو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم اذخافوا على انفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم ولم يتنبهوا عليهم . ثم ان اهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجه اليهم ابو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله اهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية وان يُنفّلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم . ودخل من كان في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم واهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف لانهم تلوهم وليسوا منهم . ويقال انهم جاءوا بهم الى عسكر المسلمين وهم ارداف لهم فسموا

رواديف . فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوّجون اخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم . فلما كانت ايام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك (بن مروان) الخلافة بعده لتوليه اياه عهده واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة المصعب بن الزبير « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك » ووافق ذلك ايضاً طلب عمرو بن سعيد بن العاص الخلافة واغلاقه ابواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلاً وذلك في سنة ٧٠ (٦٨٩) ثم ان عبد الملك وجه الى الرومي سُحيم بن المهاجر . . . فقتله ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى اليه بالامان فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام واتى الانباط قراهم فرجع العبيد الى مواليهم . وكان ميمون الجرجماني عبداً رومياً لبني ام الحكم اخت معاوية بن ابي سفيان وهم ثقفيون وانما نُسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم فبلغ عبد الملك عنه باس وشجاعة فسال مواليه ان يعتقوه ففعلوا وقوّده على جماعة من الجند وصيره بانطاكية فغزا مع مسلمة بن عبد الملك الطوانة وهو على الف من اهل انطاكية فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود فغمّ عبد الملك مصابه واغزى الروم جيشاً عظيماً بثاره »

« قالوا ولما كانت سنة ٨٩ (٧٠٧) اجتمع الجراجمة الى مدينتهم واتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرية وروسيس فوجه الوليد بن

عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم خلق من الخلف فافتتحها على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام و يجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مدّان من قمح وقسطان من زيت وعلى ان لا يكرهوا ولا احد من اولادهم ونسائهم على ترك النصرانية وعلى ان يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من اولادهم ونسائهم جزية وعلى ان يغزوا مع المسلمين فينفّلوا اسلاب من يقتلونه مبارزةً وعلى ان يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من اموال المسلمين . فاخرب مدينتهم وانزلهم فاسكنهم في الحوّار وسفح اللولون وعمق تيزين وصار بعضهم الى حمص ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه ثم هرب الى بلاد الروم »

« وقد كان بعض العمال الزم الجراجمة بانطاكية جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك الى الواثق بالله (رحه) وهو خليفة فامر باسقاطها »

« وحدثني بعض من اثق به من الكتّاب ان المتوكل على الله (رحه) امر باخذ الجزية من هولاء الجراجمة وان تجرى عليهم الارزاق اذ كانوا ممن يستعان بهم في المسالح وغير ذلك . وزعم ابو الخطاب الازدي ان اهل الجرجومة كانوا يغيرون في ايام عبد الملك على قرى انطاكية والعمق واذا غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن في اواخر العسكر وغالوا في المسلمين فامر عبد الملك ففرض لقوم من انطاكية وانباطها وجعلوا مسالح واردفت بهم عساكر الصوائف ليذودوا الجراجمة عن اواخرها فسموا الروادیف واجري على كل منهم ثمانية دنانير . والخبر الاول اثبت »

الى هنا انتهى البلاذري في ذكر الجراجمة وخيل الروم وما جرى لهم في ايام معاوية وعبد الملك بن مروان وبعدهما الى ان خربت مدينتهم الجرجومة وتفرقوا عنها ايدي سبا وحسن معاملة الخلفاء لهم

ولنأت الان الى اثبات قضيتنا

ان كل من طالع كلام ثاوفان المؤرخ الرومي الذي ذكرنا هنا ترجمته المدققة يرى بادنى تبصر ان « المردائيتي » اي المردهين او المردة انما هم قوم اتوا الى جبل لبنان من الخارج ودخلوه بهذا الاسم في السنة الثامنة او التاسعة لقسطنطين ملك الروم الملقب باللحياني وخرجوا منه بهذا الاسم ايضاً في السنة الاولى او الثانية لابنه يوستنيانوس الثاني الملقب بالاخرم وانهم كانوا في لبنان وخرجوا منه بصفة جند او عسكر محارب بامر ملك الروم وهم خاضعون له واليه مرجعهم في كل امر على ما يظهر اولاً من قول معاوية ومستشاريه عند ما دخل هولاء المردهين الى جبل لبنان واستولوا على كل ما كان من جبل اللكام حتى المدينة المقدسة وتحصنوا في بعض مشارف لبنان « ان مملكة الروم محمية بالعناية الالهية » ثانياً من اضطرار معاوية وبعده عبد الملك بن مروان اقتداء به الى طلب عقد صلحين ثقيلتين عليهما مع قسطنطين ملك الروم ثم مع ابنه يوستنيانوس بعده بسبب هؤلاء المردهين وغزواتهم ومضايقتهم للعرب حول لبنان . ثالثاً من اشتراط عبد الملك على يوستنيانوس الاخرم قمع المردهين ومنع غزواتهم وقد تحمل لاجل هذا الشرط اثقال باقي الشروط ليغري ملك الروم على ذلك ثم من قبول الملك بهذا الشرط وعمله به عند ما اصدر امره باخراج جيش المردهين من لبنان وشخوصه بعد ذلك الى ارمينية لاستقباله : فلو لم يكن هؤلاء المردهون عسكراً كما دعاهم ثاوفان مرتين في معرض كلامه عنهم ولو لم يكونوا خاضعين لملك الروم كسائر جند المملكة وقد اتوا لبنان بامر المملكة لما صح ان تتم فيهم كل هذه الاحوال التي ذكرناها آنفاً :

والذي يزيد ذلك وضوحاً انما هو ان هؤلاء المردهين قد دخلوا لبنان وخرجوا منه قبل ان يطلق على سكان لبنان اسم « موارنة » ثم انهم لم

يكونوا من الوطنيين في جبل لبنان لان ثاوفان قد صرح بان الوطنيين قد ضوو ا اليهم وانهم دخلوا الى جبل لبنان آتين اليه من الخارج ·

ومن ثم فمع صراحة هذه الرواية المعتبرة لم يكن من حاجة الى كثرة الاجتهاد لاجل اثبات هذه القضية التي نحن بصددها · ولكن لما كان قد ساد الوهم وتغلب على بعض الناس حتى استسلموا اليه دون التفات الى الحقيقة التاريخية في امر هذا الجيل من الناس استناداً الى بعض الاراء المبنية على التخمين والتقدير وقد شاعت كانها حقيقة راهنة عدت كل بحث وتدقيق على راي بعضهم وكان قد فتح باب البحث والجدال فيها هذه الايام الاخيرة كما ذكرنا في مقدمة هذه المقالة كل ذلك مما سوّغ لنا الاجتهاد في البراهين التي تزيل هذا الوهم وتقرر الحقيقة ٠ ولهذا نقول وبالله المستعان :

عدد ١

ان من اخص البراهين والبينات التي من شانها ان تدفع كل وهم يحول دون فهم المراد من كلام ثاوفان المؤرخ الرومي في امر هذه الفئة التي ظهرت في لبنان ودعاها « مردائيتي » اي مردبين او مردة ما جاء في تاريخ فتوح البلدان للبلاذري المؤرخ العربي عند كلامه عن الجراجمة ومقابلة رواية الاول برواية الثاني : قال ثاوفان « دخل المردبون او المردة جبل لبنان · · · وضوت اليهم جماعة كثيرة من العبيد والاسرى ومن الوطنيين » · وقال البلاذري « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى جبل لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » فلاحظ هنا ان « المردبين او المردة » في قول ثاوفان انما هم بمثابة « خيل الروم وقائدها » في كلام البلاذري : وان « الوطنيين الذين ضووا الى المردبين » في رواية الاول « هم كالجراجمة والانباط الذين ضووا الى خيل الروم » في رواية

الثاني : فاذا صح ان كليهما يرميان الى غرض واحد ويتكلمان عن حادثة واحدة وقوم واحد بعينه في تاريخ واحد نتج لا محالة ان الذين يسميهم ثاوفان بالمردائيتي اي المردئيين او المردة انما هم خيل الروم جاءوا الى جبل اللكام ثم الى جبل لبنان من الخارج تحت قيادة احد قواد الروم :: والحال ان ذلك لما يسهل اثباته جداً من وجوه عديدة اخصها معارضة رواية ثاوفان عن المردئيين وتاريخ دخولهم جبل لبنان والاعمال التي جرت بسببهم برواية البلاذري في كل هذه الظروف واليك ذلك :

قال البلاذري « فلما كانت ايام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك (بن مروان) الخلافة بعده لتوليه اياه عهده واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة المصعب بن الزبير خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان . . . فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك ووافق ذلك ايضاً طلب عمرو بن سعيد بن العاص الخلافة واغلاقه ابواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلاً وذلك في سنة ٧٠ (٦٨٩) »

وقد رايت فيما اثبتناه عن تاريخ ثاوفان ان هذا يذكر في سنة ٦٧٥ م (صح ٦٨٣) موت يزيد وخلافة مروان وخروج عبد الله بن الزبير . وفي سنة ٦٧٦ م (صح ٦٨٤) يذكر موت مروان وخلافة ابنه عبد الملك ثم يقول بعيد ذلك ما ترجمته « في هذه السنة حلت المجاعة والوباء في سورية وتولى عبد الملك على العرب وبسبب غزوات المردائيتي في الارجاء التي حول لبنان وثقل وطأة الوباء قد طلب هو نفسه (اي عبد الملك) تجديد عهد الصلح التي كانت عقدت على عهد معاوية » ثم قال في تاريخ

سنة ٦٧٨ م (صح ٦٨٦) وهي السنة الاولى ليوستنيانوس ملك الروم — في هذه السنة ارسل عبد الملك رسلاً الى يوستنيانوس لاجل اقرار الصلح ... وفي هذه الاثناء خرج عليه (اي على عبد الملك) سعيد فاسرع عبد الملك عائداً الى دمشق التي كان سعيد استولى عليها »

فكل من تدبر هاتين الروايتين وقابل بينهما راى لا محالة ان المؤرخين الرومي والعربي يرويان رواية واحدة بعينها عن حوادث تاريخية وقعت بعينها في فترة واحدة من الزمن وفي محل واحد ومع الاشخاص الذين يعزوان هذه الحوادث اليهم بعينهم كأن احدهما ينقل عن الاخر ببعض التصرف مع انهما لا يعرف احدهما الاخر بل كل منهما ينقل عن مصدر مختلف وهذا مما يزيد في صحة الخبر . الا ترى ان البلاذري يجعل حوادث خيل الروم بجبل لبنان مع عبد الملك بن مروان حتى اضطروه الى طلب الصلح بين تاريخي موت يزيد ومروان الخليفتين وخروج ابن الزبير في العراق وخروج عمرو بن سعيد بن العاص في دمشق وكيف قد وافقه ثاوفان في كل ذلك ؟

ولرب معترض يقول ان ثاوفان قد سمي الذي خرج على عبد الملك في دمشق « سعيداً » مع ان البلاذري يقول انه « عمرو بن سعيد بن العاص » فهذا الخلاف ليس مما يغير جوهر الرواية ولهذا لا يجب ان يعبأ به لان ثاوفان معذور في عدم تدقيقه في اسماء العرب وهو رومي يكتب في قسطنطينية اما البلاذري فانه يكتب تاريخ امته في بلاده ولغته ولذلك فهو احرى بهذا التدقيق في مثل ذلك كما ان ثاوفان احرى بالتدقيق في اسماء الاشخاص الذين يذكرهم من الروم دون ان يكترث كثيراً لغيرهم : ولهذا نراه اكتفى هنا بتسمية هذا الخارجي سعيداً بدلاً من ان يسميه عمرواً بن سعيد ، ولكن ليس من ريب في ان الحادثة التي يرويها عن سعيد هي نفس الحادثة التي يرويها البلاذري عن عمرو

ابن سعيد كما يرى المتأمل :

ثم لا يجب ان يُعلق اقل اهمية على اختلاف السنة التي وقعت فيها هذه الحادثة اي من حيث ان البلاذري يقول انها وقعت في سنة ٧٠ وهي سنة ٦٨٩ م وثاوفان يذكرها في حوادث سنة ٦٨٦ م فان الفرق قليل جدًا لا يتجاوز السنتين فلا يُعتد به لان مثل هذا الفرق قد يحصل عند اكبر المؤرخين في حوادث اهم من هذه : ومع هذا فان ثاوفان لا يتحرى كل هذا التدقيق في امر قلّ ما كان يهمه وعليه نراه يقول « وفي هذه الاثناء خرج عليه سعيد » وهي عبارة مبهمة تحتمل تقديماً وتأخيرًا في التاريخ . وهو يريد بقوله « في هذه الاثناء » الفترة التي توجه بها عبد الملك الى العراق كما يظهر لمن راجع هذه الرواية كلها . وهذا القول يوافق قول البلاذري بان عمرو بن سعيد المذكور عصي واغلق ابواب دمشق « حين خرج عبد الملك عنها »

هذا اما قول البلاذري « ان خيل الروم قد خرجت الى جبل اللكام ... ثم صارت الى جبل لبنان في هذه الاثناء » اي في اول عهد خلافة عبد الملك بن مروان فانه وان ظهر لاول وهلة مخالفًا لقول ثاوفان بدخول المردين الى جبل لبنان على عهد معاوية لا يترتب عليه مع ذلك كبير اعتراض يستحيل حله لان المتأمل النبيه يقدر باقل تبصر ان يؤلف بين الروايتين دون عناء وذلك ان البلاذري يقول ان عبد الملك « اقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك » افلا يُستدل من هذه الفقرة دلالة صريحة على ان « خيل الروم » هؤلاء انما كانوا على عهد معاوية ايضاً وانهم في ذاك الحين دخلوا جبل لبنان وضوت اليهم جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين فاضطروا معاوية الى عقد هذا الصلح كما روى ثاوفان عن المردين ؟ والا فما معنى هذا

الكلام وانت ترى ان الضمير في قوله « صالحهم. وؤدي اليهم. وارتهن منهم » يرجع لا محالة الى خيل الروم كما يثبت جلياً ان هؤلاء كانوا على عهد معاوية واضطروه كما اضطروا عبد الملك بن مروان بعده الى مصالحتهم

وعندنا ان لا عبرة في عدم تدقيق البلاذري في تاريخ هذه الحوادث او في ترتيب روايتها وهو يتفق تمام الاتفاق مع ثاوفان في اركانها على ما بينا: لان المؤرخ الرومي كان يمكنه ان يدقق في هذه الرواية تدقيقاً لا يتسنى للمؤرخ العربي لإستناد الاول على ما في خزائن المملكة من الاثار التي قد تبين هذه الحوادث وتاريخها باوفر دقة وبما انه كان يكتب تاريخ مملكة الروم في عاصمتها وهذه الحوادث كانت قريبة العهد منه لانها كانت منذ سنة ٦٧٧ وهو ولد في سنة ٧٥١ كما ذكرنا غير مرة فمن المرجح ان تكون الاوراق التي تتعلق بهذه الكوائن بقيت لعهد كتابته ووقف عليها واخذ عنها ما ذكره في امر المردهيين: اما البلاذري فانه وان كان يكاد ان يكون معاصراً لثاوفان فلم يسعده الحظ في الوقوف على شيء من الاوراق والكتابات التي تنبيء بهذا التاريخ ليستند اليها ولكنه اعتمد في ما رواه على ما وصل اليه من السنة الناس بالتواتر. وقد قال هو نفسه عند رواية ما نحن بصدده عن الجراجمة « حدثني مشائخ من اهل انطاكية ان الجراجمة الخ » ويظهر انه اسند كل ما رواه هناك الى هؤلاء المشائخ لانه بعد انتهائه من هذه الفقرة التي فيها خبرية خيل الروم قال ما حكايته « قالوا ولما كانت سنة ٨٩ (٨٠٨ م) اجتمع الجراجمة الى مدينتهم الخ » فيستدل من قوله هنا « قالوا » انه لا يزال يسند روايته الى قول المشائخ الانطاكيين المذكورين. ولما انتهى مما اخذه عنهم قال « حدثني بعض من اثق به من الكتاب ان المتوكل على الله (رحه) امر باخذ الجزية من هؤلاء الجراجمة الخ» الى ان قال في اخر هذه الرواية « والخبر الاول اثبت » وكل هذا يدل على ان البلاذري قد نقل الخبر كما رواه له بعض

المشائخ من اهل انطاكية على علاته ·

ذلك في تدقيق ما وقع من الخلاف بين ثاوفان والبلاذري في هذه الرواية وهو كما يرى المتأمل ليس في الامور الجوهرية التي تبطل صحة اتفاقهما في الاخبار على قوم واحد في ارض واحدة وفترة واحدة من الزمان وقد قلنا انهما متفقان في اركان هذه الرواية عن هؤلاء القوم وحوادثهم واليك مزيد بيان لهذا الامر :

اولاً · انهما يتفقان في خبر دخول المردة يين او خيل الروم الى جبل لبنان وانضمام الوطنيين وغيرهم اليهم · وعندنا انهما متفقان ايضاً في امر استيلاء المذكورين على كل ما كان من جبل اللكام الى جبل لبنان الذي تحصنوا فيه على الاقل · لان قول البلاذري « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام · · · ثم صارت الى جبل لبنان » هو معنى كقول ثاوفان « دخل المرديون جبل لبنان واستولوا على كل ما كان من جبل اللكام الى المدينة المقدسة » لان قول الاول بخروج خيل الروم الى جبل اللكام ومجيئهم منه الى جبل لبنان يستدل منه على انهم استولوا اولاً على جبل اللكام وعلى كل ما كان في طريقهم بينه وبين جبل لبنان · ومما يسند هذا المعنى قوله ايضاً بان الجراجمة الذين هم سكان جبل اللكام وحماته قد ضووا الى خيل الروم ·

اما صمت البلاذري عن استيلاء المذكورين على كل ما هو من جبل لبنان الى المدينة المقدسة ايضاً خلافاً لما روى ثاوفان فانه قد يحمل على وجهين احدهما ان يكون مشائخ انطاكية جاهلين ذلك فلم يرووه للبلاذري او غير متحرين كل هذا التدقيق في سرد اعمال خيل الروم · او ان يكون المرديون (بحسب ثاوفان) لم يستولوا حقيقةً على ما تجاوز حدود لبنان من الجنوب بحصر معنى الاستيلاء بل جل ما هناك انهم كانوا يتصلون في غاراتهم ومغازيهم الى هاتيك الارجاء ويضايقون العرب فيها

حتى القوا الرعب في قلوبهم . وهذا ما يصرح به ثاوفان نفسه اذ قال في تاريخ سنة ٦٧٦ (صح ٦٨٤) ماحكايته « وبسبب غزوات المردائيتي في الارجاء التي حول لبنان « ثم قال في تاريخ سنة ٦٧٨ م (صح ٦٨٦) « ان يقمع الملك جيش المردائيتي الذي كان يسطو من لبنان » وكل هذا لا يدل على انهم استولوا حقيقة على كل ما هو من لبنان الى المدينة المقدسة كما يرى المتأمل . وقد تحاشي المؤرخ العربي ان يتوسع كالمؤرخ الرومي في تسمية مثل هذه السيطرة على الارض المقدسة المتاخمة لبنان استيلاءً بحصر المعنى . والظاهر انه محق في ذلك لان ليس من تاريخ او اثر تاريخي ايما كان مما يثبت ان المدينة المقدسة وما جاورها خرجت من يد العرب بعد فتحها لا في هاتيك الفترة ولا قبلها او بعدها . ولذلك نرى ان البلاذري وثاوفان لم يختلفا في معنى هذه الخبرية ايضاً ولو رواها كل منهما من وجه تختلف عن الاخر والله اعلم .

ثانياً . ثم يتفق المؤرخان العربي والرومي على ان خيل الروم او المردئين قد اضطروا معاوية الى طلب الصلح وابرامها ثم اضطروا عبدالملك بعده الى مثل هذه الصلح في اول عهد خلافته مع ملك الروم . وليس من اشكال في قول البلاذري ان معاوية وعبد الملك قد عقدا الصلحين المذكورتين مع خيل الروم وطاغيتهم . مع ان ثاوفان يقول بعقدهما مع ملكي الروم راساً فقط . فان ذلك مما يوفّق باكثر سهولة . لان من المرجح جداً ان يكون الخليفتان كفّا لغارات خيل الروم وقائدهم ومحالفيهم قد تعاطيا امر الصلح اولاً معهم لقربهم ولانهم هم الذين اضطروهما الى ذلك باعمالهم وبعد ان تقررت الهدنة معهم اخذ الخليفتان يتعاطيان امر ابرام الصلح الحقيقية مع الملك لاعتقادهم ان تلك الخيل التي كانت تسطو على الارجاء التي حول لبنان انما كانت من جيوش الروم الذين تحت امر المملكة ومرجع امرهم في كل حال الى ملوك الروم . والا لم يكن من

محل لطلب عقد الصلح مع ملكي الروم بسبب غزوات المردين وغاراتهم بل كان الاولى بالخليفتين المشار اليهما لو لم يكن ذلك ان يكتفيا في استرضاء المردين وحلفائهم من ان يلجأ الى قسطنطينية كما لا يغرب عن ذي بصيرة . فاذا صح ذلك ولا نخاله الا صحيحاً امكن القول بان ثاوفان اقتصر في الرواية على ذكر ما كان من ابرام الصلح الراهنة بين الخليفتين والملكين وهما اللتان وجد اوراقهما واثارهما في خزائن المملكة دون ان يتوغل في البحث الى كشف ما كان من مقدماتهما . اما البلاذري فانه كان اولى وهو في البلاد التي جرت فيها هذه الكوائن ان يعرف بالصلحين الاوليين اللتين ابرمتا مع خيل الروم اولاً ويذكرهما باكثر اسهاب كما فعل مقتصراً على الالماع الى ما كان بعد ذلك من ابرام الصلح مع ملك الروم .

وقد يظن ان البلاذري يقول « وصالح (عبد الملك) طاغية الروم على مال يؤديه اليه » انما اراد بطاغية الروم قائد خيل الروم الذي كان ذكره في اول هذه الفقرة فهذا الظن ليس في محله وانما اراد البلاذري بقوله « طاغية الروم » ملك الروم لا قائد خيل الروم وذلك واضح من مبنى الكلام المذكور للبصير العارف بطرقه وقد جاء في كتب اللغة « ان الطاغية لقب ملك الروم عند العرب » وهذا مما يثبت راينا .

ثالثاً . ويتفقان ايضاً في ذكر ما كان من مضايقة خيل الروم او المردين للعرب بحروبهم وغاراتهم ومغازيهم . ولو كان ثاوفان يصرح بذكر هذا الكلام الاجمالي دون البلاذري الذي يكتفي من ذلك بقوله « فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم ... وصالح طاغية الروم » ثم بعيد ذلك « فانه (اي معاوية) صالحهم على مال » : فما معنى المصالحة اذا لم تكن مسبوقة بحرب وعدوان ? وما معنى قوله « فاضطر عبد الملك » لو لم يكن خيل الروم يشنون الغارات على العرب الذين حول لبنان ويضايقون

الخلفاء بذلك وهم في حالة لا تمكنهم من التغلب عليهم في الحرب اذ ذاك ؟

فيستنتج من كل هذه الاعتبارات لكل ذي بصيرة نقادة ما يأتي من الاستنتاجات المنطقية الحرة :

اولاً . ان ثاوفان المؤرخ الرومي والبلاذري المؤرخ العربي انما يتكلمان في هذين المحلين اللذين اثبتناهما هنا عن شعب واحد بعينه يسميه الاول منهما « مردائيتي » اي مردة او مردة ويسميه الثاني « خيل الروم » وقد سماهم ثاوفان نفسه مرتين (كتيبة او جيش او خيل المردائيتي) في مطاوي كلامه عنهم .

ثانياً . ان المؤرخين المذكورين يرويان عن هؤلاء المردة الذين هم خيل الروم قصة واحدة بعينها وقعت لهم في زمن واحد ومكان واحد وفي احوال وظروف واحدة ولو اختلفت طريقة تادية هذه الرواية وسردها في امور غير جوهرية كما بينا .

ثالثاً . ان هؤلاء المردة الذين هم خيل الروم هم غير الجراجمة ولا الانباط ولا الوطنيون سكان جبل اللكام وجبل لبنان ومن ثم هم غير الموارنة خلافاً لما اراد حضرة الاب لامنس اليسوعي وحضرة الاب انسطاس الكرملي الذي اسند حضرة الاب لامنس المذكور في مقالة نشرها ايضاً في مجلة المشرق (٦ : ٣٠٣) وغيرهما من العلماء الافاضل . لان هؤلاء الجراجمة والانباط والوطنيين هم الذين ضموا مع العبيد والمماليك الى المردة او خيل الروم عند ما دخلوا جبل اللكام وجبل لبنان من الخارج بصفتهم العسكرية كما يتحصل من روايتي ثاوفان والبلاذري .

رابعاً . بل ايا من كان هؤلاء الوطنيون وكل الذين ضموا الى خيل الروم او الى المردة فمن المحقق انه لا يمكنهم ان يكونوا لا من خيل الروم ولا من المردة المذكورين لان هؤلاء دخلوا على اولئك من

الخارج والا حصل التناقض في الكلام كما يرى كل بصير من مجرد اطلاعه على الفقرتين التاريخيتين المذكورتين ٠

خامساً ٠ ان المردين انما هم كتيبة مقاتلين عليها قائد من قواد الروم ٠ وان هذا اسم « المردائيتي » الذي سماها به ثاوفان المؤرخ الرومي انما هو اسم خاص لها كاسماء العلم عرفها به الروم دون العرب الذين دعوها باسم عام مأخوذ من طبع حالتها وخطتها واعمالها بطريقة الوصف الذي يلجأ اليه الكتبة عادةً عند جهل اسم الشيء الذي يضطرون ان يتكلموا عنه خاصةً : وان هذه الفئة من الناس التي سماها ثاوفان بالمردائيتي والبلاذري بخيل الروم انما كانت من جند مملكة الروم وقد كان ملوك قسطنطينية يستخدمونهم كسائر الجنود في مغازيهم الحربية ومقاصدهم السياسية التي كان من جملتها ارسالهم هذه المرة الى جبل اللكام وجبل لبنان بقيادة قائد من قواد الروم وتحت لوائهم حتى يتحصنوا حيث طاب لهم من تلك الجبال المنيعة و يشغلوا العرب الفاتحين عن توغلهم في المملكة لانهم على ما يظهر من تواريخ تلك الايام كانوا قد بلغوا الى قسطنطينية نفسها وحاصروها زمناً طويلاً ٠

ولقد قامت هذه الجنود بخطتها احسن قيام وادت بمساعدة الوطنيين من جبل اللكام وجبل لبنان خدمة جليلة الى المملكة لانها قد ضايقت العرب بغاراتها على جوار الجبلين المذكورين وباعمالها الحربية المجيدة حتى اضطرت العرب الى عقد صلحين ثقيلتين عليهم ٠ ولذلك طلب عبد الملك ابن مروان في الصلح الاخيرة من يوستنيانوس الاخرم ملك الروم الفتى قمع هذه الجنود وكف غاراتها من لبنان كشرط جوهري للصلح وقد اجاب الملك الى ذلك واجراه فعلاً بكل سهولة عند ما استجلب على الفور بمجرد امره هؤلاء المردين نحو اثنتي عشر الفاً من لبنان كما ذكرنا غير مرة

فلو لم يعتقد العرب ان خيل الروم هؤلاء الذين هم المرديون

كانوا غرباء عن لبنان وجبل اللكام بل عن كل سورية وانهم كانوا في الحقيقة جنوداً لمملكة الروم مقيدين بامر الملك لما شكوا اليه غاراتهم وطلبوا منه هذا الطلب الغير المعقول فيما لو كانوا من الوطنيين لما في ذلك من الصعوبة بل من الغضاضة في شرف الدولة العربية كما لا يغرب. ثم لو كانوا من الوطنيين في جبل اللكام وجبل لبنان حقيقة كما يريد بعضهم لما قبل الملك بهذا الشرط لاجل اتمام عقد الصلح التي كان العرب المضطرين اليها والساعين بها لا الروم بل كان مجال واسع للملك ومستشاريه وحجة كبيرة لدفع طلب العرب هذا من حيث انه من الظلم الذي لا يحتمل ولم يسبق له نظير ان يجلوا قوماً ولو بعيالهم عن اوطانهم لا سيما ولا ذنب لهم الا مساعدة مملكة الروم على العرب خصومهم الالداء وردهم عن البلاد التي كانوا فتحوها بالسيف عنوة واستولوا عليها بالرغم على الروم. وقد كان هؤلاء المردبون كسور حصين للمملكة تجاه العرب بل آفة شديدة على هؤلاء بدليل ما جاء في ثاوفان نفسه وهو «اما الملك فانه باجلائه خيل المردائيتي الى ارمينية قد نقض ذاك السور النحاسي سور المملكة الرومية الذي كان قائماً في لبنان ورحل عنه» وفي محل اخر «وكانت المدن التي يسكنها العرب في اعالي الجبال من حدود المصيصة حتى ارمينية الرابعة كلها عارية من الحصون وخالية من السكان بسبب غزوات المردائيتي الذين كُفوا بعد ذلك عنها . ومنذ ذاك الحين الى الان حلت كل المصائب والمكاره على المقاطعة الرومية بفعل العرب» ولذلك نرى ثاوفان في تاريخ سنة ٦٨٢ (صح ٦٩) قد سفه رأي يوستنيانوس الملك الفتى الغر لانه خُدع بتظاهر العرب وترهاتهم ولم ينتبه الى الحيلة الشيطانية التي اختلقوها لاجل كسر شوكة المردبين متذرعين لذلك بطلب الصلح وقد احتسب الملك توسلاتهم تلك من قبيل الخوف لا من قبيل الاحتيال والخديعة .

فمن تدبر هذا الكلام بعين البصيرة المنزهة عن الهوى راى لا محالة ما نراه من ان هؤلاء المردة الذين هم خيل الروم ليسوا الوطنيين في جبل اللكام وجبل لبنان بل هم عسكر اتى الى هذين الجبلين بمهمة قضوها بنجاح وعند ما اعتقد الملك سيدهم ولو عن خداع انهم اتموها استدعاهم اليه فلبوا الامر صاغرين مما دل دلالة صريحة على انهم كما وصفناهم في هذه القضية ٠

والذي يزيد هذا المعنى قوة ورسوخاً ما جاء في رواية البلاذري عما كان بعد الصلح الاخيرة ٠ قال ما حكايته « ثم ان عبد الملك وجه الى الرومي سُحيم بن المهاجر ... فقتله ومن معه من الروم (غيلةً) ونادى في سائر من ضوى اليه بالامان فتفرّق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام واتى الانباط قراهم فرجع العبيد الى مواليهم »

فمن لا يرى من خلال هذا الكلام ان البلاذري لا يزال يميز بين خيل الروم وقائدهم وبين من ضوى اليهم من الجراجمة وغيرهم ؟ الم يكن من هذا القبيل قوله هنا ان سُحيماً عامل القائد الرومي « ومن كان معه من الروم » الذين هم المردائيني او خيل الروم بخلاف ما عامل من ضوى اليهم من اهل البلاد الذين عددهم باسمائهم كما كان عددهم قبلا ؟ فهنا انه قد قتل الاولين بحسب هذه الرواية لانه كان يعدهم غرباء وعسكراً للعدو ٠ وامن الاخرين وفرقهم بسلام في البلاد كل فئة الى جهتها دون ان ينالهم باذى ٠ وقد سمى الاولين « روماً » بلا قيد وسمى الاخرين « جراجمة وانباط وعبيد » كما كان سماهم قبلا تمييزاً لكل فئة من الاخرى [1] ومهما يكن من امر هذه الرواية فانه يتحصل في كل حال

---

(١) ونحن نرى ان هذه الرواية لا تخلو من الغلو لانها على ظاهرها تثبت بدون قيد ان سحيماً قتل قائد الروم وكل عسكره الذين من الروم ونادى

منها ان رواتها الذين اخذ البلاذري عنهم وهم على قوله مشايخ انطاكية قد عرفوا ان يميزوا خيل الروم وقائدهم من الجراجمة والانباط والعبيد الذين ضووا اليهم حتى في هذه الرواية ايضاً مما يدل على ان خيل الروم الذين هم « خيل المردائيتي » كما بينا كانوا في عرفهم دخلاء في البلاد وغرباء عنه . ولربما كان بعض هؤلاء المشائخ من ادرك على الاقل من كانوا في ذاك العصر التي جرت فيه هذه الحوادث فتاقنوها عنهم بالتقليد ورووها للبلاذري على اصلها . فهم اذاً احرى بالتصديق في هذه المادة واولى بالاعتبار من سواهم لانهم انما يتكلمون عن امور جرت في عصرهم وبلادهم كانهم شهود عيان لها (١)

بالامان في كل من كان ضوى اليهم من الجراجمة والانباط والعبيد . وهذا مما لا يحتمل وقوعهُ فعلاً كما روي هنا ولا يستطيع العقل السليم ان يسلم بهِ . لانهُ كيف يمكن ان يكون سحيم ميز بين الروم وبين من ضوى اليهم في موقعة هائلة نظير هذه فقتل قائد الروم فيها غيلة ثم قتل كل الروم الذين معهُ بحرب كما يقدَّر لم يشترك بها من كانوا معهم وحالفوهم حتى صاروا كانَّهم جيش واحد ? وعندنا ان جل ما قد يمكن ان يكون انما هو ان سحيماً قتل القائد غيلة كما روى ابن الاثير في الكامل وياقوت في معجم البلدان مفصلاً ثم قتل بعض الذين انتصروا لهُ من عسكره على اختلاف جنسهم واستسلم الباقون قانطين او هربوا جازعين كما يحدث عادة في مثل هذه المواقع . ومهما يكن من صحة هذه الرواية او عدمها فاننا نرى فيها حجة جديدة لاثبات ما نحن بصدده اي من حيث ان البلاذري يدعو خيل الروم هنا « روماً » بلا قيد ويميز بينهم وبين الجراجمة والانباط والعبيد تمييزاً اصرح كما يرى المتامل . اما نحن فاننا نعتقد ان خيل الروم الذين هم المرديون قد خرجوا سالمين من لبنان بامر ملك الروم الى ارمينية كما روى ثاوفان ورجع الوطنيون الذين كانوا ضووا اليهم الى مواطنهم آمنين فابتكر العرب هذه الرواية لبيان ملاشاتهم من لبنان والله اعلم .

(١) ان كل من تدبر كلام البلاذري في هذه الفقرة التاريخية عن الجراجمة يرى نظيرنا ان العرب لم يكونوا يعاملون الوطنيين الذين كانوا يفتحون بلادهم عنوة ولو بعد حرب عنيفة بالقسوة والعنف بل كانوا يجتهدون في اكتساحهم بالرفق

فاذا صح ذلك كيف يمكن ان يكون الجراجمة عين المردئيين وان الذين يسميهم الروم مردئيين هم الذين يسميهم العرب جراجمة كما اراد

وحسن المعاملات ولو مهما كانوا اشداء كالجراجمة الذين حملوا السلاح ضدهم وحاربوهم وعصوا عليهم مرارًا بعد مصالحات وتامينات متعددة لانهم على ما يظهر لم يكونوا يريدون ان يخلو البلدان التي كانوا يفتتحونها من السكان بل ان يخضعوهم ويمدوا ظل سلطتهم على اهلها . وكل ذلك ظاهر مما يجري بينهم وبين هؤلاء الجراجمة : قال البلاذري عن لسان مشائخ انطاكية الذين ربما كان بعضهم من الجراجمة في الاصل « ان حبيب بن مسلمة الفهري والي انطاكية من قبل ابي عبيدة بعد فتحها ثانيةً لما غزا الجرجومة لم يقاتله اهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على ان يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية وان يُنفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا في مغازيهم » الى ان قال « فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرةً ويعوجون اخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم » وبعد ذلك خرجوا مع خيل الردئيين كما رأينا الى ان قتل سحيم قائدهم فأمنهم دون ان يعاملهم بما جنت ايديهم بعد الامان والصلح المشار اليه آنفًا « ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام » دون معارضة ودون ان يُحسب لهم حساب ومع كل هذا عاد الجراجمة الى عصيانهم . قال البلاذري « قالوا (اي مشائخ انطاكية) ولما كانت سنة ٨٩ (٧٠٧) اجتمع الجراجمة الى مدينتهم واتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرونة وروسيس فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم في خلق من الخلف فافتتحها على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام » الى آخر ما جاء في الفقرة التي اثبتناها في اوائل هذا القسم الثاني :

ومن هذا يظهر ايضاً ان الجراجمة كانوا ابطال حرب ذوي باس وشدة وكثيري الحرص على دينهم المسيحي واستقلالهم حتى انهم كانوا يبذلون كل عزيز عليهم دون هذا الشرف الباذخ ولا يهابون سطوة احد ولا يحفلون بوعد او وعيد في سبيل ذلك فاحترمهم العرب الظافرون بهم واولوهم كل هذه الانعامات والامتيازات التي ذكرها البلاذري وعاملوهم معاملة الابناء :

ومن ثم فلو كان الرديون اي خيل الروم من الوطنيين او من اهل سورية حقيقة لعاملهم العرب مثل هذه المعاملة الحسنة واتخذوهم اعوانا كما فعلوا مع الجراجمة ولم يحتالوا على ملك الروم في ابعادهم عن لبنان كما روى ثاوفان :

حضرة الاب لامنس والعلامة نلدكه المستشرق الالماني الذي استند اليه كما قال وحضرة الاب انستاس الكرملي الذي اسند حضرة الاب لامنس في هذا الراي الجديد ؟

ذلك وقد جاء في تاريخ ابن العبري السرياني الشهير مايؤيد هذا الراي من حيث ان المردين هم خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري على ما بينا الى الان : قال ابن العبري (ص ١٠٩ من النسخة المنشورة حديثاً بالحرف الكلداني في باريس) ما ترجمته الحرفية « وارسل قسطنطين غزاةً روميين مريديين اي رجال حرب ([illegible]) يسميهم السريان جراجمة ([illegible]) فاستولوا على كل ما هو من جبل الجليل الى جبل اللكام وعلى جبل لبنان ايضاً وكابد العرب منهم اموراً كثيرة »

فقوله « غزاة من الروم » انما هو بمنزلة قول البلاذري « خيل الروم وعليها قائد من قوادهم » وقوله « مريديون » على النسبة هو كقول ثاوفان « مردائيتي » (وهذه ايضاً في الرومية منسوبة باداة النسبة في اخرها التي هي عندهم ايتي ولهذا ترجمناها بالمرديين على النسبة في العربية ايضاً) : فالمريديون اذاً عند ابن العبري هم عين خيل الروم او المردائيتي او المردة عنده سواه .

اما قوله ان السريان يدعونهم جرجوميين او جراجمة فوان كان لاول وهلة مما يصلح برهاناً لحضرة الابوين لامنس اليسوعي وانستاس الكرملي بان العرب يدعون المرديين جراجمة حتى يكون الجراجمة نفس المرديين مع ذلك فبما اننا بينا فيما اثبتنا الى الان بطلان هذه القضية بما لا نرى مردّاً عليه ترتب علينا ان نخرّج كلام ابن العبري هذا وان كان متأخراً بحيث لايصلح برهاناً ضد قضيتنا الى معنى يوافق الحقيقة فنقول:

ان هذه العبارة يمكن توجيهها الى معنيين احدهما ان لفظة ܓܪܓܘܡܝܐ السريانية التي ذكرها ابن العبري هنا قد يكون معناها « الوقح » على ماقال العلامة القرداحي صاحب اللباب في هذه المادة عن ابن بهلول في معجمه السرياني الشهير : وحينئذ تكون الكلمة في عبارة ابن العبري صفة بمعنى « الوقحين او الابطال الجسورين » وهذا يفض المشكل من اهون سبيل كما يرى المتأمل . او ان تكون هذه الكلمة من باب النسبة بالياء في السريانية الى مدينة الجرجومة التي في جبل اللكام على ما روى البلاذري وهي من ܓܪܓܘܡܐ ومعناها في الاصل الخروب او عجمه . فكأن الخروب قد كثر في تلك الارض حتى اشتهرت به ودعيت باسمه كما يرى في جبل لبنان مثلاً حيث سميت جهة منه « اقليم الخروب » لكثرته فيه

والذي نراه ان ابن العبري والسريان الذين اخذ عنهم هذه التسمية لهذا الجيل من الناس لم يريدوا الا المعنى الثاني لما فيه من الموافقة مع كلام البلاذري المذكور لان هذا يصرح بانه انما اخذ ما رواه عن الجراجمة عن « مشائخ من اهل انطاكية » فلا بد من ان يكون هؤلاء المشائخ من الوطنيين اي من السريان العارفين باحوال بلادهم حتى عوّل هذا المؤرخ الشهير على كلامهم في هذه المادة واسند روايته اليهم . فعن هؤلاء اذاً يمكننا ان نعرف ما كان يقصد السريان بتسميتهم القوم جراجمة او جرجوميين . قال البلاذري في تعريفهم عن لسان المذكورين ما حكايته « ان الجراجمة من مدينة على جبل اللكام . . . يقال لها الجرجومة » فاذا تقرر هذا المعنى نرى ان نوفق كلام ابن العبري على كلام البلاذري بالوجه الآتي وهو : ان البلاذري قد قال « خرجت خيل الروم الى جبل

اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وقد ضوت اليها الجراجمة »
وبما ان الجراجمة كانوا اشهر اهل هاتيك الناحية في تلك الحقبة حتى
اطلق اسمهم على كل من انضم اليهم ونهج نهجهم من اهل جوارهم وغيرهم
وهذا ظاهر من كلام البلاذري نفسه فيهم عند وصفه ميمون الجرجماني قال
« وانما نُسب (اي ميمون) الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل
لبنان معهم » فمن هذا القبيل على ما نرى دعا بعض السريان الذين استند
اليهم ابن العبري هذه الفئة (التي هي « خيل الروم » عند البلاذري
والمردائيتي عند ثاوفان والغزاة الروميون المرديون عنده) جراجمة لخروج
الجميع في جبل اللكام وجبل لبنان تحت راية واحدة : فالجرجوميون اذاً
في كلام ابن العبري انما هم المنسوبون الى الجرجومة على ما روى المؤرخ
العربي الذي سماهم « جراجمة » وقد شمل هذا الاسم كل من انضم اليهم
واشترك معهم بوجه من الوجوه في حروبهم التي اتوها في هاتيك الفترة من
الزمان في جبل اللكام وجبل لبنان حتى صار هذا الاسم عاماً على جميع
هؤلاء الذين منهم المرديون المذكورون وبذلك يتم توفيق رواية ابن
العبري مع روايتي ثاوفان والبلاذري كما يرى المتامل

هذا ولعل ابن العبري لم ينتبه هنا الى ان اسم ܓܪ̈ܓܘܡܝܐ
الذي يسمي به السريان هذا الجيل من باب النسبة الى مدينة الجرجومة
كما ذكرنا بل ظنه من باب الصفة التي تقوم مقام الموصوف بمعنى « وقحين
وجسورين وابطال حرب » كما فسره ابن بهلول في قاموسه على ما روينا
آنفاً عن اللباب . ولذلك لم يميز بين اسمهم واسم ܡܪ̈ܕܝܐ (المرديين)
لاعتباره ان ܓܪ̈ܓܘܡܝܐ (الجراجمة) انما هو لقب وصفي لهؤلاء
المرديين ولهذا لم يحفل بالتمييز بين الاسمين لحسبانه ان الذين يدعوهم

الروم مردائيتي هم الذين يدعوهم السريان جرجوميين لبسالتهم بالحرب . وهذا ظاهر من نفس عبارته بادنى تمعن لانه قال « ارسل قسطنطين غزاة روميين مريديين » ثم فسر ذلك بقوله « اي رجال باس يسميهم السريان جراجمة » (١)

وعندنا ان هذا المعنى الذي اختاره ابن بهلول لهذه اللفظة انما هو ماخوذ في الاصل من اسم الجرجومي او الجرجماني المنسوب الى الجرجومة لان هؤلاء الجراجمة كانوا على ما يظهر وقحين جسورين ورجال بأس وقد اشتهروا في ذلك حتى ذهب اسمهم مذهب المثل وصار بوجه الاستعارة بمعنى (الوقح) اذ اطلق على كل من كان على شاكلتهم : ومن بعد خراب الجرجومة الذي كان على ما روى البلاذري في سنة ٧٠٧ للمسيح وبعد انقراض هذا الشعب المعروف بالجراجمة نسبةً اليها وتشتته ايدي سبا اندرج هذا الاسم المنسوب في لغتهم بمعنى (الوقح) وفسره اصحاب المعجمات بذلك دون ان يذكرون اصله الذي ربما كانوا يجهلونه : والا فليس في اسم ܓܪܓܘܡܐ الذي دون اداة النسبة بمعنى « الخروب او عجمه » ما يسوغ اتخاذه على النسبة بمعنى (الوقح) كما يرى المتأمل :

ومع هذا فلو استعمله احد الكتاب الان بمعنى الوقح وهو لا يدري هذا الاصل كما فعل ابن العبري فلا حرج عليه : ذلك اما ما جرى لهؤلاء المرديين بعد عودهم من لبنان فلما كان مما يتم قصتهم بما لا يخلو من الفائدة وفيه على ما نرى ما يدعم قضيتنا هذه راينا ان نثبته ملخصاً في

(١) اعلم انا ترجمنا هنا لفظة ܓܪ̈ܓܡܐ بقولنا « رجال باس » على التقدير ولا ندري ما اذا كنا اصبنا بهذه الترجمة لانا فتشنا في ما بين ايدينا من المعاجم السريانية واليونانية فلم نهتدِ الى اثر لها واردنا ان يعلم القارىء ذلك لعلهُ يوفق الى تحقيق المعنى المقصود من هذه الكلمة فيجد فيها ما يفض هذا المشكل لانها تفسير قوله ܡܪܝܕ̈ܝܐ ومردفة بقولهِ ܓܪ̈ܓܘܡܐ

خاتمة هذا القسم الثاني من مقالتنا هذه كما ياتي :

قال ثاوفان المؤرخ في ذلك ما مؤداه « ان الملك يوستنيانوس قد جاء ارمينية في سنة ٦٧٩ (صح ٦٨٧) فاستقبل خيل المردئيين ذاك السور النحاسي الذي كان في لبنان ورحل عنه » ثم لم يعد ياتي بذكرهم بتةً : اما العلامة السمعاني امير كتبة التاريخ الشرقي فقد تقصى اخبارهم بعد ذلك واثبت ما عثر عليه من هذا القبيل في كتابه المعروف بمكتبة الناموس القانوني والمدني (مج ٤ باب ٥٠ ص ٦٢٠) حيث قال ما ملخصه ان الملك قسطنطين السابع الملقب ببرفيروجنات (اي المولود بالبرفير اذ كان ابوه ملكاً) من كتبة القرن العاشر اي بعد خروج المردئيين من لبنان بنحو قرنين او اكثر ذكر في كتاب تدبير الملك (باب ٥٠) « ان المردائيتي نُقلوا الى بمفيلية ووُضع قائدهم في مدينة اضالية » ثم انه في كتابه الاول في المقاطعات (باب ١٤) ذكر مقاطعة بمفيلية وقال « ان فيها المردائيتي الذين أُخذوا من لبنان تحت ولاية قائدهم وقد بقوا ثمَّ من عهد يوستنيانوس الى ايامنا (اي في منتصف القرن العاشر) » ومن جملة ما قال فيهم هذا الملك الكاتب في الباب الخمسين من كتابه المذكور « ان ملك قسطنطينية كان يقيم للمردائيتي والياً منهم يقال له في لغتهم « كاتو بانو » وان الملك لاون الحكيم والده اقام لهم في هذا المنصب رجلاً اسمه « استوراقيوس بلاتين » . ثم يستتلي العلامة السمعاني قائلاً « ومن ثم يظهر ان المردائيتي كانوا في بمفيلية على عهد لاون الحكيم واخيه الاسكندر وابنه قسطنطين برفيروجنات الكاتب المذكور اي في سنة ٩٥٠ » الى ان قال « وكان يقام لهم قاض منهم يقال له قاضي اضالية . واشتهر من قضاتهم رجل اسمه ميخائيل سنة ١٠٧٤ ترك تاليفاً في الناموس القانوني والمدني طبع في فرنكفورت سنة ١٥٩٦ » ثم قال « ومنذ عهد الملك ميخائيل الرابع الذي كان في ايامه قاضي اضالية المذكور

حتى اخذت قسطنطينية من يد الروم سنة ١٤٥٣ كان لكبير المردين مرتبة في عاصمة المملكة كما جاء في تاليف غريغوريوس كورنيوس كروبالات الذي كان حياً يرزق ايام فتحت قسطنطينية » وقد جاء في كتاب متى جانر في مراتب القصر القسطنطيني » ان كبير المردين كان السابع عشر رتبة بعد الملك »

ويقال الان ان المردين الذين خرجوا من لبنان وبقوا على حالتهم وامتيازاتهم الى فتوح قسطنطينية قد بقي منهم الى اليوم قبيلة معروفة في البانية باسم « المرديت » وقد حدثنا مرة حضرة العلامة السنيور دي غوبرناتيس قنصل دولة ايتالية العام في بيروت سابقاً وهو ممن يشتغلون باجتهاد في تواريخ الامم قال في حديث جرى له معنا في بطلان دعوى الموارنة بان المردة في الاصل منهم انه قبل ان ياتي الى بيروت كان قنصلاً لدولته بين هؤلاء المرديت وقد درس متقصياً بعناء شديد اخبارهم وتواريخهم وتقليداتهم وعني خاصة في معرفة اصلهم فعرف منهم انهم يرجعون الى اعالي ارمينية ولا يتجاوزون هذا الحد · واذ حدثهم بما كان وقف عليه في كتب الموارنة من ان هؤلاء منهم وانهم بالتالي يرجعون الى لبنان انكروا عليه ذلك كل الانكار واكدوا له ان ليس في اثارهم ما يشير اليه · وقد قال العلامة المطران يوسف الدبس في تاريخ سورية (مج ٥ ص ١١٨) ما حكايته « وكان المرحوم واصه باشا متصرف لبنان من هؤلاء المرديت الا انه لم يكن يقر بصحة هذا التقليد فقد سالته عنه فانكر صحته »

فقد يستنتج من ذلك اولاً · ان هؤلاء المردين لو كانوا في الاصل من جبل اللكام او من جبل لبنان واُخذوا عنوةً الى ارمينية لما كانوا صبروا على الاقامة في بمفيلية واضالية على توالي الايام دون ان يرجع ولو قسم منهم الى وطنه الاصلي واهله واحبابه الذين تركهم في لبنان لا سيما

بعد موت الملك يوستنيانوس الاخرم الذي اجبرهم فيما يقال على الجلاء قسرًا

ثانياً . اكانوا حفظوا لغتهم السريانية او ما يشبهها لانهم على مايظهر لم يخالطوا امة من الامم بعد جلائهم عن لبنان بل بقوا مفرزين عن اهل البلاد التي احتلوها . ونحن مع هذا لا نقطع في امر لغتهم ايام كانوا في لبنان وبعد خروجهم منه واقامتهم في بمفيلية لان ذلك يقتضي درساً اوسع لم يكن من غرض مقالتنا هذه . بيد اننا نرجح انها على الاقل في بمفيلية لم تكن السريانية .

ثالثاً . واذا صح ان هوءلاء المرديت الذين في البانية من اولئك المردين كما هو المرجح فعدم وجود اثر في تقليداتهم على ان اصلهم من لبنان دليل كافٍ على ان المرديين لم يحتسبوا قط لبنان وطنهم الاصلي لانهم لم يقيموا فيه الا نحو عشر سنين بالحرب والغزو تحت راية قائدهم كعسكر يقضي مهمة نُدب اليها من قبل مليكه ولما اتمها استدعاه الملك اليه وافره حيث شاء : ولو كان عسكر المرديين المذكور من اهل لبنان او من اهل جبل اللكام كما يريد اصحاب القضية المعاكسة لما تسنى للملك على ما نرى ان يجليهم بهذا العدد العديد عن اوطانهم في مدة قريبة جداً لما في ذلك من الصعوبة لا سيما في هاتيك الايام كما لا يغرب .

ونحن لا نريد ان نتمسك بذلك كبرهان كاف لرد القضية المعارضة وانما هو كنتائج او كدعائم لهاتيك البراهين الدامغة التي استفضنا في بيانها قبلا فيتحصل من كل ذلك ان المرديين ليسوا الجراجمة كما انهم ليسوا الموارنة لان هوءلاء وطنيون في جبل اللكام وجبل لبنان واولئك غرباء عنه .

عدد ٢

ولما كان من نتائج ثبوت قضيتنا هذه بطلان ما ذهب اليه بعض علماء الموارنة في اصل تسمية هذا الجيل من الناس « مردة » او مردائيتي او مرديين ترتب علينا لاجل تكملة هذا البحث التاريخي ان نخوض في امر هذه القضية ايضاً من وجه اوضح وفي ذلك مزيد اثبات لقضيتنا الاولى على ما نرى . فنقول وبالله التوفيق :

ان علماء الموارنة من تلاميذ المدرسة الرومانية المارونية الشهيرة بعد ان تعلموا اللغات الاوربية وتوغلوا في درس العلوم حتى برّزوا فيها فقد اصبحوا شديدي الغيرة والجد في التفتيش على اثار تاريخ امتهم الكريمة . فاخذوا ينشدون هذه الضالة في كل كتاب عثروا عليه من الكتب القديمة التي وصلت اليهم وكانوا كلما وجدوا شيئاً مما يتعلق بجبل لبنان وسكانه في الاعصر الخالية دوّنوه امامهم وبالغوا في دراسته حتى يبلغوا مبلغاً حسناً من الاستنتاجات المعقولة وقد ذكروا ذلك في مواطن شتى من مطاوي تآليفهم حتى يكاد لا يخلو كتاب من كتبهم التي ابرزوها الى عالم الوجود وهي كثيرة العدد والعائدة على العلم من كلام مهم في شان طائفتهم واثار تاريخها .

والظاهر انهم عند ما وقفوا في بعض تنقيباتهم وتفتيشاتهم على ما كتبه ثاوفان ومن اخذ عنه كبولس الشماس وانستاس المكتبي وقدرينوس وزوناراس وغيرهم من ان المردائيتي دخلوا لبنان في السنة التاسعة لقسطنطين الرابع المعروف باللحياني واستولوا على كل ما هو من جبل اللكام الى المدينة المقدسة وشنوا الغارات على العرب في جوار بلادهم حتى ازعجوهم . وان يوستنيانوس الثاني المعروف بالاخرم قد اخرجهم من لبنان واحلهم في جهات ارمينية حيث بقوا ممتازين باسمهم هذا وحالاتهم الى ما بعد ذلك بقرون . ووجدوا من جهة اخرى في اثار تاريخ وطنهم ما يناسب

ذلك في ذاك العهد نفسه من مثل الروايات التي ذكرناها عن مقدميهم في القسم الاول من هذه النبذة حيث يسمونهم ملوكاً . واتفاقهم احياناً مع الروم على محاربة العرب واختلافهم احياناً اخرى مع الروم الذي ادى بهم الى حمل السلاح ضدهم كخبر الموقعة التي جرت بينهم وبين موريق وموريقيان قائدي جنود يوستنيانوس الاخرم والمعركة التي جرت بينهم وبين عسكر الروم في قب الياس حيث اغتال قائد الروم مقدم اللبنانيين الياس فهب الجند اللبناني في وجه الروم ونادوا بسمعان خليفة للمقدم المقتول . وخروج المقدم يوحنا الذي تملك على لبنان بعد المقدم يوسف الى جبل الجليل وتنكيله بالرجزة . وخروج المقدم ابرهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون بخاله الى سمار جبيل . والقتال الذي كان بين اهل الكورة من الملكية واهل جبة بشري الى غير ذلك : ووجدوا من جهة ثالثة اسم « الملكية » مطلقاً في تواريخ العصور الغابرة على جماعة من المسيحيين في سورية ولبنان وقع بينهم وبين الموارنة اختلافات شتى ومنهم الملكية الذين في كورة طرابلس كما يرى من راجع تاريخ العلامة الدويهي ومقالة العلامة الخوري مرهج بن نمرون الباني في اصل الموارنة وما اثبته العلامة السمعاني في مطاوي تآليفه مما يحله العلماء في كل عصر محلاً عالياً خاصةً في المباحث عن الاثار الشرقية : كل ذلك حدا بهؤلاء العلماء الى ان يرتأوا ان هؤلاء المردائيين الذين ترجموهم بالمردة انما هم الموارنة سكان جبل لبنان لذاك العهد دعوا بهذا الاسم من معنى فعل ܡܪܕ السرياني الذي معناه عصي وتمرد لتمردهم على ملوك الروم ومحاربتهم جنودهم كما دعيت الفئة الاخرى التي والت ملوك الروم وقوادهم خلافاً لما فعل الموارنة « ملكية » نسبةً الى هؤلاء الملوك : وقد زادهم استحساناً بهذا الراي انهم لم يجدوا اسم الملكية مذكوراً في اثر من الاثار التاريخية قبل القرن

التاسع : وهذا مما يلابس الحقيقة ومن ثم لا نرى هؤلاء العلماء يقطعون به كانه حقيقة لا تُدفع بل اثبتوه في ما كتبوا بهذا المعنى على الرأي المرجح ودفعوا اقوال من عارضهم فيه لانهم لم يجدوا في كلام المعارضين ما يدك هذا الراي ويثبت خلافه (١)

---

(١) ان حضرة الكاتب الاديب حبيب الزيات قد نشر من مدة كتاباً مفيدا عنوانهُ « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » ضم اليهِ نبذة تاريخية تتعلق بالروم الملكيين الكاثوليكيين تحامل فيها على علماء الطائفة المارونية اذ قال في الصفحة ١٩٠ من هذا الكتاب ما حكايتهُ « كان يجب على المطران عطا حين تعرض للخوض في بيان لقب الملكيين ان لا يدع التنبيه على هذه الخرافة اللبنانية التي افنأتها على طائفتهِ الباني والدويهي والسمعاني وسائر من قلدهم »

فلم نكن لننتظر من اديب مثله نظير هذا التحامل على هوءلاء العلماء الاعلام الذين لا يستطيع ان يدرك لهم اثر غبار في مضمار وقد اعترف الثقلان بفضلهم وورد عيون تآليفهم جلة الكتبة والعلماء فيما يخص الاثار التاريخية الشرقية خاصة : ونحن قد كنا عارضنا هذا الكاتب برد اثبتناه في العدد ٣٩٩ من جريدة الارز الغراء لسنتها الثامنة دون ان نظهر اسمنا ولكنهُ لم يبق مكتوماً تمام الكتمان ولذلك وبما انهُ قد اتى هنا مجال حسن لاثبات هذا الرد الوجيز اثرنا ان نعيده في هذه الحاشية :

فلا يخفى على كل ذي ذوق سليم مافي كلام حضرة الزيات هذا من الاستخفاف والامتهان الغير اللائق بمثلهِ اديباً وهو يدعي اخلاص القصد في الخدمة الادبية والتنقير في الحقائق التاريخية مع رعاية آداب المناظرة .. ومع هذا لا نراه يجيء بشيء جديد من فضل ابحاثهِ في رد هذا الراي حتى تحدثهُ نفسهُ بامتهان مخالفهِ بل جل ما اتى بهِ انما هو باقراره من كلام المرحوم المطران يوسف داود السرياني الشهير عن كتاب « جامع الحجج الراهنة » الذي لم يشهر الى الان بالطبع ولم يعرض على انتقاد العلماء وبحثهم ولم نعرف منهُ غير الاسم :

وقد امعنا النظر في الفصل الذي اثبتهُ من هذا الكتاب في هذه المادة فاذا بهِ يقطع في امور لم تزل قيد البحث وقد خاض فيها العلماء المحققون في هذا العصر وجل ما ادركوا منها الريب في صحة رأي علماء الموارنة ومن تبعهم في امر « المردة والملكية » ثم لا نرى في كلام المطران يوسف داود الذي نحن بصدده من قوة

الحجة ما يسوغ لحضرة الزيات ان يسمي رأي علماء الموارنة « خرافة لبنانية » لو عرف قوة البرهان المنطقي لان جل ما هناك من الدفع انما هو محصور في ان اسم الملكية لم يرد في الاثار القديمة موافقاً لاسم المونوثلية وهذا وحده لا يمنع من ان يكونوا دعوا بهذا الاسم في سورية ايام كانوا من مذهب المشيئة الواحدة الذي نشأ منذ سنة ٦٢٢ او ٦٢٨ وبقي الى المجمع المسكوني السادس الذي عقد في قسطنطينية لاجل استئصال هذه البدعة واذ ارتدوا الى المذهب القويم بقي اسم الملكية ملازماً لهم كلهم وهو لا يدل بذاتهِ على المونوثلية بل على اشياع الملوك واتباعهم كيفما تقلبوا في المذهب للفرق بينهم وبين النساطرة الذين نسبوا الى المبتدع نسطور واليعاقبة الذين نسبوا الى يعقوب البرادعي تلميذ ساويروس واوطيخا المبتدع والموارنة الذين نسبوا الى القديس مارون لانهم تبعوا على الدوام مذهب رهبانهِ كما هو مشهور:

وهب ان السمعاني قد اخطأ في الاراء التي ابداها في اصل تسمية الملكية بهذا الاسم فان من قرأ كلامه بامعان وتجرد عن الهوى يرى لا محالة انهُ لم يقصد بذلك اخفاء حقيقة تاريخية تحاملاً على اصحاب هذا الاسم فلو تعمد ذلك لما غير رأيه الذي افتأتهُ ولم يقر بانهُ لم يعثر على اسم الملكية في الاثار التاريخية التي وصلت الى يده الا منذ القرن العاشر كما ذكر عنهُ صاحب كتاب « جامع الحجج الراهنة » • ولو قصد الخداع في هذا الامر لعرف كيف يخفي قصده هذا وكيف يثبت كلامهُ ويثبت عليهِ حتى لا يدع مجالا للمتأخرين ان يأخذوا عليهِ مثل المناقضات التي وقعت في كلامهِ كما يسميها بلا روية صاحب جامع الحجج الراهنة المذكور في هذا الفصل:

هذا واذا سلمنا بان رأي علماء الموارنة في اصل اسم الملكية لم يكن موافقاً للحقيقة كما يريد حضرة صاحب هذا الكتاب بناء على ما جاء في كتاب جامع الحجج الراهنة الذي اعتمد عليهِ أيستنتج من ذلك عفواً ان الملكية انما هي نسبة الى الملك مرقيان في القرن الخامس ? مع ان المطران يوسف داود نفسهُ يصرح في هذا الفصل بانهُ رغماً عن مزيد اجتهاده وجده لم يجد لهذا الاسم اثراً قبل القرن الثامن الذي وجد عند واحد من كتبته اسم بطريرك الملكيين وافتخر بها على السمعاني الذي لم يجد اثراً تاريخياً لهم قبل القرن العاشر او التاسع • فلا يزال والحالة هذه على من يريد اثبات هذا الرأي ان يأتي بشواهد تاريخية من مثل هذه على الاقل • من القرن السادس والا كان رايهُ من قبيل « الخرافة » كما سمى حضرة الزيات بكل جسارة رأي العلماء المخالفين لهُ : وليست شهادة ديونيسيوس بن

ومن اخذ عنه من المؤرخين بعده الذين اثبتوا قصة هؤلاء المردائيني او

الصليبي او ساويرس بن المقفع قبله ولا غيرهما ممن اتى بذكرهم من المتأخرين حجة قاطعة لاثبات هذا الزعم لان بينهم وبين ما يشهدون بهِ عفوًا نحو سبعة قرون على الاقل . فلا يحتمل ان يكون اسم الملكية اتخذ اصلهُ من الملك مرقيان الصالح في القرن الخامس وصمت عنهُ الصمت التام الى ما بعد ذلك بعدة قرون مع انهُ كان حقهُ أن يظهر على الاقل في كلام احد المؤرخين او الكتبة منذ اول وضعه كما ظهر اسم خلقيدونيين وسينودوسيين لاتباع المجمع الخلقيدوني الذي يقال ان بسببهِ سمي الملكية بهذا الاسم نسبةً الى الملك مرقيان المنتصر لهذا المجمع :

فكما حق لهُ والحالة هذه ان يرفض رأي العلماء الذين ذهبوا خلاف مذهبه في اصل هذا الاسم فدعاه « خرافة لبنانية » مخالفًا آداب المناظرة في استخفافهِ بعلماء اعلام لهم اجل اعتبار عند اهل العلم والتدقيق في الشرق والغرب حق لنا ان نواخذه بذلك بكل ادب ولطف : هذا ولا ندري ما يلزمنا ان نقول دون مس حاساتهِ اللطيفة فيما تحراه هو وصاحب كتاب « جامع الحجج الراهنة » في ايراد النتائج الواهنة من هذا البحث والكلام الخشن الذي يشعر بامتهان علماء الموارنة لا سيما وليس هنا مجال للخوض في بيان بطلان هذه النتائج التي هي اوسع من المقدمات : وما نحن الا محبين للعدل والانصاف فليتفضل علينا حضرة الكاتب الفاضل بما عنده من البراهين الراهنة غير ما ذكر في اثبات قضيتهِ « ان الملكية انما هي نسبة الى الملك مرقيان ظهرت في القرن الخامس بعد المجمع الخلقيدوني بسبب اتباعهم لهُ » فنكون لهُ من الشاكرين ونقطع معهُ بان كل من ذهب الخلاف على خطأ مبين . والا فسبيل كل عالم مدقق ان يرجح الرأي الذي تتغلب براهينهُ على الاخر دون ان يتهن بهِ وبانصاره وهو يعلم ان ليس بيده من البراهين والادلة ما هو اقوى مما بيد خصمهِ ومناظره وكل ذلك مبني على الافتراض والتخمين . ومع هذا فاذا استطاع ان يبرهن ان هذا الاسم اطلق على الذين اتبعوا المجمع الخلقيدوني وانتصروا لهُ نسبة الى الملك مرقيان الذي سعى بعقده وقد عضده وعضد انصاره بعد ذلك يبقى عليهِ ان يبرهن لنا كيف ان هذا الاسم نفسه لم يطلق بجامع الحجة على غير امتهِ ممن انتصروا لهذا المجمع واحتملوا لاجلهِ اشد العذاب والاضطهاد مثل رهبان مار مارون الذين تركوا للكنيسة المقدسة ٣٥٠ شهيدا بهذا السبيل ومثل كل من والاهم وناصرهم كما تذكر التواريخ البيعية . والا فليس من المعقول ان يطلق هذا الاسم على فئة دون الاخرى تخصيصًا ولو شمل الفريقين سبب

المردة لم يخطر قط على بالهم ان يدّعوا هذا الاسم وهذه النسبة · ولذلك لا نرى في كلام العلامة جبرائيل ابن القلاعي ولا في كلام سواه من قبله او بعده حتى عهد تلامذة المدرسة الرومانية المارونية لا اسم المردة ولا بمعناه كانه لم يكن قوم بلبنان دعوا بهذا الاسم بل ولا في كل سورية: حتى ان العلامة ابرهيم الحاقلاني الذي وقف على ما يظهر على تاريخ فئة «المردائيتي» في كتب مؤرخي اللاتين واليونان · وعرف منها انهم قوم دخلوا لبنان وخرجوا منه بعد ان عملوا ما عملوا على ما يروى هناك لم يدر في خلده لاول مرة ان هذا الاسم انما لقب به الموارنة في لبنان لتمردهم وعصيانهم على ملوك الروم بل ذهب في اهل هذا الاسم مذهباً اخر في غاية الغرابة · فقد وجدنا في حاشية للعلامة يعقوب الفواريسي صاحب الحواشي المعلقة على تاريخ ثاوفان الذي بين ايدينا عند ذكر المردائيتي للمرة الاولى (مجموعة مين مج ١٠٨ ص ٧٢٢) ما قاله الحاقلاني في اصل هؤلاء المردائيتي: قال صاحب هذه الحاشية «قال الماسوف عليه الحاقلاني في هذه الفقرة والكلمة (ص١٥٦) ما حكايته بالحرف: ان جماعة المردائيتي تقتبس اسمها من قبيلة «مراد» احدى قبائل «كهلان» التي كانت تسكن

واحد: اما الان ولا نظن ان لهُ وصولا الى هذه البراهين المطلوبة فنكتفي ان نطلب منهُ البرهان الكافي على امكان ان تسمى امةً كبيرة بهذا الاسم منذ القرن الخامس ويُصمت عنهُ عدة قرون صمتاً تاماً ثم يبرز في القرن الثامن او قبله بقليل ويدوم بعد ذلك بلا انقطاع الى يومنا هذا مع قطع النظر عن اختلاف المذاهب التي تتاب فيها اصحابهُ:

هذا ونحن قد بينا في هذا المتن حسن نية علماء الموارنة عند ما ذهبوا هذا المذهب وما استندوا اليه في بيانه وهو جائز عند كل العلماء المحققين ولا يحط من قدرهم بل بالعكس: اما رأينا الخصوصي في امر تسميتهِ هذه الامة الكريمة بالملكية فقد اوضحناه بايجاز في بعض الحواشي التي علقناها على القسم الاول من هذا البحث وبها غنىً:

في البقعة المناوحة السورية واليها يرجع كل القبائل العديدة بهذا الاسم ممن يسكنون اكثر مدن ودساكر العربية السعيدة (اي اليمن) وقد امتاز هذا الجنس بين العرب بشدة الباس ومعاناة السلاح واشتهروا خاصةً بالنصرانية التي كانوا شديدي الحرص عليها » ثم اردف صاحب هذه الحاشية بقوله « ان الحاقلاني اللبناني نفسه يعد ذاته من هؤلاء المردائيتي ويفتخر بهذا الاسم الذي هو والاسم المسيحي سيان » : فاين هذا من الراي الذي تولد عند علماء الموارنة بعد ذلك ؟

اما العلامة الدويهي الذي يميل الى الراي المشهور بان « المردة » من التمرد والعصيان فبعد ان تكلم في قصة مار يوحنا مارون عن ابرهيم ابن اخت هذا القديس وكيف جاء بخاله الى لبنان وساس قومه سياسة المقتدر الظافر وتغلب على جيش يوستنيانوس الاخرم وقواده هو والامير مسعود الى اخر ما جاء هناك (ص ٦٨ من تاريخه المطبوع في بيروت) استطرق بغتة الى السؤال الاتي وهو بحرفه « فان قيل من هم هؤلاء المتولون على جبل لبنان الذين اوقعوا الرعب في قلوب الفرس والعرب ولم يسموا موارنة بل مردة وعصاة ؟ » [1] وقد اجاب على هذا السؤال هو نفسه

(١) قد راجعنا كتاب الدويهي الخطي في هذا المحل فوجدنا هذا السؤال الذي يساله في نسخة بيروت المطبوعة قد جاء بعد كلام آخر غير الذي ذكرناه هنا ولا ندري لاي سبب قد تركهُ ناشر هذا التاريخ الاستاذ رشيد افندي الشرتوني : ولكن لما كان مثل هذا السوءال لا يوافق وقوعهُ الا بعد مثل هذا الكلام المتروك رأينا ان نثبت ملخص تلك الرواية على اصلها في هذه الحاشية اصلاحاً لما فرط : فان العلّامة الدويهي بعد ان روى قصة استنجاد ملك الفرس بمعاوية على الروم بواسطة سرجيوس القائد واستنجاد ملك الروم بمعاوية ايضاً على الفرس بواسطة القائد المدعو اندريا الخصي في وقت واحد وما جرى للقائدين المذكورين بحضرة معاوية وكيف خرج قائد الروم غاضباً وكيف نهض اذ ذاك معاوية وعبأ جيوشهُ وزحف على بلاد الروم حتى حاصر قسطنطينية سبع سنوات وذلك عن تاريخ ابن العبري قال « فاستغاث اهل قسطنطينية بالله بواسطة سيدة

بقوله « فالجواب على ذلك ان هذا الامر لم نحققه من التواريخ المذكورة آنفاً بل عرفنا اصلهم من قصة يوحنا البطريرك ... » مع ان هذه القصة التي يشير اليها ليس فيها اقل ذكر للمردة بل جل ما استند اليها في هـذا المعنى انما هو كلام آخر لا يتحصل منه ان الموارنة كانوا يدعون في ذلك العصر « مردة » ثم اتى بعد ذلك بذكر ما اخذه من اخبارهم واسمائهم عن الكتاب القديم الذي قال فيه انه اتصل اليه من سالفه البطريرك جرجس وقد نسخه داود بن ابرهيم سنة ١٦٢٦ يونانية الموافقة لسنة ١٣١٥ م كما ذكرنا في القسم الاول من هذا البحث : وليس في الذي ياتي به من ذاك الكتاب اقل ذكر لاسم « مردة » او لما بمعناه .

واليك ما قاله العلامة السمعاني في كتابه الشهير بالمكتبة الشرقيـة (ص ٥٠٨) مستدركاً على العلامة الدويهي ما قاله من ان سبب الفرق بين الموارنة وبين الملكية انما كان من حملة قائدي الروم موريق ومورقيان على يوحنا مارون ومن الموقعة التي جرت بين اهل الكورة وجبـة بشراي لان الذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرايهم سموا ملكية تبعاً للملك المبتدع والذين ثبتوا على الامانة تحت طاعة البطريرك يوحنا مارون سموا موارنة (كما يرى في الصفحة الثالثة والثمانين من تاريخه المذكور) قال العلامة السمعاني بعد ان بين كل ما وصل اليه من الاراء في اصل تسمية بعض نصارى سورية بالملكية وفندها ما ترجمته « وعلى ذلك فاني ارتئي على

الخلاص فاستجاب الله دعاءهم ونصرهم على يد آل جبل لبنان كما يذكر بكتابيوس المؤرخ قائلاً : لم تزل العرب تنتج بالظفر الى ان شارفوا القسطنطينية وحاصروها مدة سبع سنوات وكفهم اخيراً عن حصارها المتمردون وهم اهالي جبل لبنان والتزمت العرب حينئذ باداء الجزية للروم مدة ثلاثين سنة وهي ثلاثمائة وستون الفاً ن الذهب في كل عام وخمسون اسيراً وخمسون جواداً : ١ ه فان قيل من هوءلاء المتولون الخ

الظن الراجح ان اسمي المردة والملكية اسمان متضادان وجدا في عصر واحد لا للدلالة على اختلاف ديانة او طقس كما ظن بعض علماء الموارنة بل للدلالة على اختلاف غرض مدني فقط ٠٠٠ »

فمن كل ذلك يتحصل باقل تبصر ان علماء الموارنة الاعلام الذين يرجع اليهم في تواريخ امتهم لم يعثروا في آثارهم القديمة على ما يثبت هذا الراي اي ان المردة هم الموارنة وانما سموا مردة من تمردهم وعصيانهم على ملوك الروم : ولكنهم قد ارتأوا ذلك عن ظن مرجح بينوه في مطاوي كلامهم ولكل منهم فيه نظر لم يسلم به الاخر كما راينا : ولم يقصدوا على ما نرى نحن وكل لبيب نزيه ان يتمحلوا امرًا غير معقول او ينتحلوا لطائفتهم هذا الاسم لانه يرجعهم الى اصل نخيم كما قد يُظن ٠ لان اهل البلاد من انباط اي ارامبين ومن جراجمة هم اشرف من هؤلاء المردبين اصلاً ومحتدًا وعنصرًا ٠ اما هؤلاء المرديون فلم يكونوا اهل كرامة وقد قال ناشر تاريخ بولس الشماس في حاشيته على لفظة مردائيتي اول ورودها فيه (مجموعة مين نج ٩٥ ص ١٠٥٤) ما ترجمته « ان في النسخة القديمة التي لديونيسيوس هوغو الفلوريانيقي كان مكتوبًا على الهامش ما معناه الحرفي ان المردائيتي يدعوهم اليونان قرصانًا (اي لصوص البحر) » وقد سماهم ابن العبري ايضًا في تاريخه السرياني ܓܝ̈ܣܐ اي لصوصًا ترجمناها في محلها توسعًا بكلمة غزاة ٠ فاي نخر للموارنة اذا كان اصلهم من هؤلاء المردائيتي ؟ على ان الذي حدا بهم الى هذا الراي وهذا البحث انما هو حب الحقيقة واكتشاف تاريخ غامض لامتهم توفيقًا لما جاء في كلام ثاوفان المؤرخ وغيره في هذا الباب واتفاق تواريخ امتهم في ذاك الزمان مع هذا التاريخ كما اوضحنا ولذلك ذهبوا في هذه التسمية مذاهب شتى قريبة من العقل والحقيقة ٠

وكل احد يعلم ان الموارنة من قديم الدهر هم حريصون بنوع خاص على امر واحد في تاريخهم الا وهو دوام ثباتهم على الراي المستقيم في الدين القويم الذي بذل اجدادهم دونه كل نفيس من الدنيا حتى الدم وهذا الشرف الامثل انما هو وافر سليم لهم للغاية باذن الله تعالى فلا يهمهم بعده ان يكونوا من المردين او ان يكون المردة او المرديون منهم او ان يكونوا هم شعباً آخر دخل عليهم المرديون والجراجمة وغيرهم من الشعوب وجمع بينهم الغرض المدني وحده او المدني والديني معاً . ولذلك لا يمكن ان يقال بان علماءهم قد تعمدوا اختراع هذا الراي ضد الحقيقة لانه على ما نرى قد يمس على نوع ما سلامة مذهبهم لانه اذا صح ان المردة او المردائيتي من التمرد والعصيان على ملك الروم كان ذلك برهاناً قاطعاً على اتباعهم في ذاك الزمان مذهب المونوثلية لان الملك قسطنطين اللحياني انما كان صحيح العقيدة وقد اشتهر بصلاحه وتقواه ومناضلته عن المذهب الكاثوليكي القويم حتى سعى اخيراً بعقد المجمع السادس المسكوني المقدس ضد بدعة المونوثلية وبذل كل جهده وجده في استئصالها كما هو مشهور ومن ثم فان ثبت ان اهل لبنان دُعوا بهذا الاسم على عهده لتمردهم عليه نأتى عن ذلك لا محالة انهم كانوا هراطقة وهذا لا يسلم به احد من علماء الموارنة .

ونحن نرى ان هؤلاء العلماء لموضع اعتقادهم الراسخ بان اسم المردة اطلق على اللبنانيين من التمرد على ما ذكرنا ولموضع انتباههم ان ذلك يتأتى عنه كونهم كانوا هراطقة كما اشرنا اخذوا يجتهدون هذا الاجتهاد في تقرير سبب تسميتهم بهذا الاسم على ما ينفي عنهم كل شبهة هرطقة . ولهذا قال العلامة السمعاني ان سبب هذه الفرقة بين المردة والملكية انما كان عن غرض مدني لا ديني : وقال العلامة الحاقلاني بان اسم المردائيتي من قبيلة آل مراد احدى بطون كهلان في اليمن كما ذكرنا آنفاً

اما نحن فقد ذهبنا هذا المذهب الجديد لاجل الحقيقة مجردًا عن كل عامل او غرض دون ان نتعرض عن تعمد لغيرها في هذه القضية .

فعندنا من بعد ذلك كله ان لفظة « مردائيتي » التي ذكرها لاول مرة ثاوفان المؤرخ الرومي والتي ترجمها عنه من كتبوا في العربية عن هذه الفئة « مردة » اي عصاة وترجمناها نحن حديثًا « مردبين » اتباعًا للاصل لم تكن لا سريانية الاصل ولا عربية ولو اتفقت حروفها الاصلية مع مادة الفعل السرياني ܡܪܕ او مع مادة الفعل العربي « مرد او تمرّد » بمعنى العصيان :

وبيان ذلك اولاً . لان تاريخ اصل هؤلاء المردبين لا يدل على عصاوة او تمرد بل بالعكس كما راينا .

ثانيًا . لان الذي سماهم لاول مرة بهذا الاسم انما هو ثاوفان المؤرخ الرومي الذي كتب تاريخه بالرومية ولم يكن يعرف لا العربية ولا السريانية .

ثالثًا . لانه لو كان اسم المردبين المذكورين ماخوذًا في الاصل من معنى التمرد والعصيان وقد اطلق على اهل جبل لبنان او جبل اللكام لتمردهم وعصيانهم على المملكة كما يريد بعضهم ممن يميلون الى معاكسة راينا لكان الذين جلوا عن لبنان نبذوه عنهم لانه مما يشعر بذم وعدوان تجاه المملكة كما لا يغرب او كان على الاقل غيّره لهم الملك نفسه بعد خضوعهم ورضاه عنهم وتخويلهم ما خولهم اياه من الامتيازات على ما مرّ . ولم يكن ليحتمل ان يبقى مطلقًا عليهم اسم انما جلبه عصيانهم عليه وتمردهم على قواده كما يزعم اصحاب هذا الراي .

رابعًا . وان قيل ان الملك وارباب المملكة لم يكونوا يعرفون معنى هذا الاسم في السريانية او العربية فحسبوه علمًا بهذه الفئة اللبنانية فدعوهم به عن غير روية ولهذا قد عرّفهم به ثاوفان نفسه كعلم لهم عُرفوا به من

ذاك الحين الى ايامه دون ان يدقق في اصله . قلنا ان ذلك لا يزال يحتاج الى ادلة تاريخية تؤيده تجاه ما عندنا من الادلة التي ترفضه . فمشائخ انطاكية الذين روى البلاذري كلامهم في هذه الفئة وهم اولى الناس بان يعرفوا اسمها المشهور في ذاك الزمان عند العرب والسريان وكل اهل تلك النواحي كما يقدّر من طبع هذا الافتراض قالوا فيهم انهم « خيل الروم وعليهم قائد من قوادهم » كما رايت فلو كان اسم « مردة » قد اطلق عليهم حتى شاع كعلم لهم يستعمله الروم ايضاً في تعريفهم اسماهم هؤلاء السريان جيرانهم للبلاذري بهذا الاسم ولو مرة واحدة في روايتهم او على الاقل بما يشعر بمعناه ولم يصفوهم بعبارة تشعر بعكس ذلك من حيث نسبتهم الى الروم : ومع هذا فلا نرى هذا الافتراض معقولاً لان هذا الاسم بين حدين فاما ان يكون اطلقه عليهم السريان او العرب كما قيل او ان يكون اطلقه عليهم الروم انفسهم : فان كان الاول كيف امكنه ان يشيع في مدة قصيرة الى حد ان يتخذه الروم ايضاً كعلم لهذه الفئة ويتمسك به اصحابه وقد اطلقه عليهم حسادهم ومبغضوهم كما يقدّر؟ ويعارضه كون المذكورين منذ دخلوا الى جبل لبنان انما دخلوه بهذا الاسم دون ان يتمردوا على المملكة بل بالعكس قد خدموا المملكة خدمات جليلة حتى دعوا سور المملكة الرومانية واستحقوا ان ياتي الملك الى ارمينية خصيصاً لاجل استقبالهم واقرارهم فيها كما يظهر لكل من تتبع قصتهم في ثاوفان وغيره : وان كان الثاني تأتى عنه انه كان الاولى بالروم ان يسموهم باسم رومي يدل على هذا المعنى اذا كانوا يقصدونه بهذه التسمية لا باسم سرياني مجهول عندهم كما لا يعزب عن ذي بصيرة وحينئذ لا بد من تغييره عنهم متى خضعوا او اطاعوا ودخلوا في رضى الملك والمملكة كما نوهنا : بقي اذاً ان يكون الروم سموهم بهذا الاسم لانه علم لهم لا يقصد به معنى التمرد والعصيان .

خامساً . لو كان هذا الاسم سريانياً اطلقه عليهم حسادهم من اهل الجوار كما يراد لكان الاولى ان يبقى على اهل جبل لبنان وبلازمهم وليس من المعقول ان يكون اللبنانيون او الجراجمة قد استطاعوا حال انفصال هذا القسم عنهم الى بمفيلية ان ينسخوا هذا اللقب المكروه ويبدلوه باسم اخر احب اليهم بحيث يحملون خصومهم واهل جوارهم على موافقتهم في ذلك لا سيما وقد بقوا معهم على حالتهم العدوانية كما يظهر من تواريخهم : والا كيف لا يوجد اقل اثر من الاثار التاريخية القديمة لا عندهم ولا عند سائر الامم من اهل جوارهم او غيرهم فيه اثر لاسم المردة او لما يوافقه مطلقاً على اهل جبل لبنان او جبل اللكام ؟ ومع ذلك فما جاء عنهم في رواية ثاوفان وغيره يعارض هذا المعنى معارضة صريحة لان ثاوفان يقول « دخل المردائيتي الى جبل لبنان وضوى اليهم الوطنيون » فالوطنيون هنا هم اهل جبل لبنان وهذا مما لا ريب فيه ولم يكن اطلق عليهم اسم « مردة » عند دخول المردئيين المذكورين عليهم . وهكذا لما خرج هؤلاء عنهم بقي الوطنيون في اوطانهم اي في جبل لبنان وجبل اللكام ولم يعد يطلق عليهم اسم « مردئيين » او اسم « مردة » ولا ما بمعناه حتى يمكن استنتاج هذه النتيجة التي لا مقدمة لها كما يرى المتأمل البصير .

سادساً . وليس من المعقول ان يكون هذا الاسم مستحباً او مكروهاً عند اصحابه بالسواء فينبذه قسم منهم ويحفظه القسم الاخر الذي افترق عن قومه ووطنه بالرضى او بالرغم كما يراد . ومع ذلك فاذا جاءنا احد الناس بشاهد واحد من كتب العرب او السريان او اليونان ايضاً يدل على ان اهل جبل لبنان بعد خروج المردئيين عنهم قد عرفوا او دعوا بهذا الاسم ولو مرة واحدة بل اذا اتانا بشاهد واحد مقبول في هذا المعنى من كتب الموارنة انفسهم بحيث يكون مما سبق القرن السادس عشر وتلامذة

رومية رضخنا حالاً للراي المخالف وقطعنا كل جدال فيه او اعتراض عليه ·

هذا وربما تمسك بعض الناس بشهادة ابن العبري التي اثبتناها سابقاً عن تاريخه السرياني المذكور حيث يسمي هذه الفئة ܡܪ̈ܕܝܐ التي ترجمناها في محلها « مرديون » على النسبة فنقول ان ابن العبري لم يرد بهذا الاسم على ما نرى الاسم المشتق من الفعل السرياني ܡܪܕ بمعنى « عصي وتمرد » لانه لو اراد ذلك لقال ܡܪ̈ܕܐ (عصاة ومتمردون) دون اداة النسبة التي لا محل لها هنا في كلامهم · وقد بين ذلك ابن العبري نفسه بقوله ܡܪ̈ܕܝܐ ܐܘܟܝܬ ܠܦܦ̈ܘܐ فكانه فسر قوله ܡܪ̈ܕܝܐ بقوله ܐܘܟܝܬ (وهو حرف تفسير عند السريان بمعنى « اي » عند العرب) واردفها بكلمة يونانية الاصل وهي ܒܠܦܦ̈ܘܐ كما رايت وهي المقصود التفسير بهـا وما فعل ذلك الا ليزيل الوهم عن القارئ من حيث انه لا يريد بالاسم الاول ما قد تبادر للذهن من معنى المادة السريانية ولذلك قال ايضاً ما معناه « وهم المعروفون عند السريان بالجراجمة » اي الوخيين كما بينا ·

والذي يزيدك بياناً في ان ابن العبري لم يقصد بقوله ܡܪ̈ܕܝܐ معنى متمردين او عصاة انما هو ما حكاه هذا الكاتب نفسه في تاريخه المذكور (ص ١١١) حيث قال ما ترجمته « وهذا (اي عبد الملك بن مروان) عند مانودي به ملكاً وراى الحروب تحيط به من كل ناحية وتضايق خاصة من مرديط الروم (ܡܪ̈ܕܝܐ ܘܪ̈ܗܘܡܝܐ) الذين بلبنان عقد صلحاً مع يوستنيانوس لعشر سنين فاخرج لذلك يوستنيانوس

لصوصه (ܠܣ̈ܛܣܐ) الذين كانوا يبلغون اثني عشر الفاً من ارض العرب » فتراه هنا ذكر هؤلاء الذين نسميهم « مردبين او مردة » بلفظة ܡܪ̈ܕܝܛܐ على النسبة اليونانية بدلاً من لفظة ܡܪ̈ܕܝܐ التي كان سماهم بها في الفقرة السابقة على النسبة السريانية : وانت ترى مع نحاة السريان انه انما تنسب الاسماء الدخيلة اي الغريبة عن السريانية ولا سيما اليونانية الاصل بالطاء في اخرها على ما وردت في اصلها : وقد استعمل ابن العبري في التسمية الاولى اداة النسبة السريانية واردف هذا الاسم بالحرف التفسيري والاسم اليوناني الاصل بعده ثم استعمل هنا في هذا الاسم عينه اداة النسبة اليونانية ليدل على ما يظهر على غرابة هذا الاسم عن اللغة السريانية : وتراه ايضاً هنا قد اضاف اسم المرديط اي الروم ليبين انهم ليسوا من السريان . ثم نسبهم الى يوستنيانوس بقوله « ܠܣ̈ܛܣܐ » اي لصوصه ليدل على انهم انما كانوا من جنود المماكة لا من سكان البلاد . والله اعلم .

هذا وفي هذه الشهادة التي اثبتناها هنا عن ابن العبري ادلة جديدة من شانها ان تزيد قضيتنا بياناً ورأينا الذي اوضحناه حتى الان في النتائج التي اوردناها بعد مقابلتنا بين كلام ثاوفان وكلام البلاذري ثبوتاً : لان قوله هنا « مريديط الروم » وقوله « فاخرج يوستنيانوس لصوصه » كل ذلك يدل دلالة صريحة على ان هؤلاء المردبين انما كانوا « خيل الروم وجنود ملك الروم » ويدعم ذلك قول ابن العبري نفسه في الفقرة الاولى التي استشهدناها سابقاً « وارسل ايضاً قسطنطين لصوصاً روميين مريديين » فكانه يقول ان خيل الروم الذين يقال لهم مريديون انما ارسلهم قسطنطين ملك الروم بالمهمة الحربية التي قضوها ثم استرجعهم ابنه

يوستنيانوس بعد عقد الصلح مع العرب لانهم جنوده ولصوصه او غزاته ٠
وهذا ما قصدنا بيانه فيما قلناه حتى الان والحمد لله في كل حال :

القسم الثالث

في بيان ما ورد على هذه القضية
من الاعتراضات وردها

اننا قد وفينا الموضوع حقه من البحث والتنقير فيما كتبنا الى الان بحيث صارت قضيتنا صريحة ثابتة من كل وجه لمن يطالعها بامعان وتدقيق ٠ ولما كان قد عارضنا فيما كتبناه سابقاً فيها بعض محبي الحقيقة ممن خالفنا رايهم ورددنا اعتراضاتهم في حينها مراعين جهدنا اصول الجدال واداب المناقشة وكان في اعتراضاتهم وردودنا ما يزيد هذه القضية رسوخاً والحقيقة بياناً رأينا ان نثبت هنا كل ذلك بما امكن من الايجاز الذي لا يخل عن المقصود فنقول :

عدد ١

ان حضرة الكاتب المدقق الاب انستاس الكرملي بعد ان قرر رأيه في المقالة التي نشرها في احد اعداد مجلة المشرق الصادر في اول نيسان سنة ١٩٠٣ وهي السنة السادسة لهذه المجلة البديعة عن « المردة والجراجمة » مستمسكاً بان المردة هم عين الجراجمة قال ما نصه بالحرف « ان تاوفانس لم يسمِّ اولئك الاقوام « مردة » الا توسعاً ولم يرد بذلك ان يذكر اسمهم الحقيقي بل نكتة بديعية تاريخية ليفهم قراءه ان ما جرى بين الجراجمة

والعرب يشبه ما جرى بين المردة واعدائهم في سابق الزمان . وذلك ان المردة كانوا امة قد تمت جامعتها قبل المسيح وكانت من الامم المادوية نازلة بالسيف الجنوبي من بحر قزوين بين جيلاز غرباً والطافورة شرقاً وكانت قد خضعت خضوعاً اسمياً للدولة المادوية الفارسية ثم للاسكندر ثم ... ثم ... اما بلادهم فكانت تقريباً مازندان الحالية (اي بلاد جيلان وطبرستان) وكانوا صعاليك الا انهم محاريب مغاوير يتهالكون على السلب والنهب والغزو ومن ذلك اسمهم بالمادوية « مردان » اي الابطال المغاوير المحاريب والواحد منهم « مرد » فعربوها وقالوا في جمعها « مردة » اه

والجواب على ذلك

ان حضرة الاب انستاس المذكور قد اضطر الى هذا التوجيه في اسم المردين لاعتقاده ان القوم الذين ذكرهم ثاوفان بهذا الاسم انما هم الجراجمة ولكنه لما راى ان لا مخرج له عن هذه التسمية الصريحة التي تعارضه اشد المعارضة عمد الى مثل هذا التمحل وقال ان ثاوفان انما سماهم « مردة » توسعاً ولم يرد بذلك اسمهم الحقيقي الى اخر هذه الفقرة : ولكن يعارضه ايضاً كون الجراجمة هم حقيقة غير المرديين المذكورين كما بينا آنفاً باستفاضة . ثم لا محل هنا للنكتة البديعية التاريخية التي اشار اليها هنا الاب انستاس لان تسميتهم دفعة واحدة بالمرديين دون توطئة لهذه النكتة البديعية ولا قرينة تبينها تدل خلافاً لوهمه على ان ثاوفان انما ذكرهم هناك باسمهم الشائع والمشهور كعلم لهم والا كان الكاتب مقصراً دون الغرض المقصود وهذا لا يقول به ذو لب في كاتب مجيد له منزلة جلى بين كتبة التاريخ . فمن الواجب اذاً ان يقال ان ثاوفان انما قصد بقوله « دخل المردائيتي الى لبنان » ان يسميهم باسمهم الحقيقي الشائع على الاقل في ذاك الزمان كما لا يغرب عن كل من طالع كلامه فيهم .

والذي يسند ماقلناه من ان اسم المرديين انما هم علم للمذكورين

لا مستعار لنكتة بديعية من حيث وجه الشبه بين الجراجمة وبين المردين الاصليين كما يريد حضرة الاب انستاس انما هو بقاء هذا الاسم ملازماً لهم بعد خروجهم من لبنان وحلولهم في ارمينية او بمفيلية كما ذكرنا قبلاً عن العلامة السمعاني فانه لو كان مستعاراً لنكتة بديعية عند ثاوفان لما لازمهم هذه الملازمة كملم لهم الى ما بعد ذلك بقرون ·

ثم ان حضرة الاب انستاس المشار اليه قد انفذ الينا كتاباً خصوصاً مؤرخاً في ٣ تموز من السنة الغابرة وفيه بعد ان سلم لنا ببعض القضايا التي جاءت في بحثنا الاول وقد ذكرناها بحروفها في مقدمة هذه المقالة قال ما حكايته :

« واما الذي لا اوافق عليه بعدُ ريثما تقنعني البراهين كل الاقناع فهو — ان المردة غير الجراجمة — بل باقٍ على رايي كون الاسمين يدلأن على مسمى واحد وسبب ذلك هو اني ارى في ثاوفانس (وهو اول من استعمل لفظة المردة) ما يؤيد قولي اي انه اطلق لفظة المردة على نفس الجراجمة من باب المشابهة لنكتة بديعية تاريخية وذلك في قوله : ارسل (قسطنطين الملك) تسكودا الى الشراكسة (وهو يريد بذلك العرب كما هو ظاهر من سياق النص وكما يؤيده التاريخ علماً وعملاً) فلم يسميهم باسم العرب مع انه كان مشهوراً في ذلك العهد وقبله عند اليونان والرومان وما ذلك الا للاشارة الى ما جرى او ما يجري بين الجراجمة والعرب على حد ما جرى سابقاً بين المردة ومجاوريهم الشراكسة اعدائهم · والا فاي مناسبة لذكر العرب باسم الشراكسة وهؤلاء من عنصر غير عنصر العرب وعليه فمتى ما يُردُّ هذا البرهان نسلم حينئذ بكون المردة غير الجراجمة »

« ومما يؤيد ايضاً ان المردة والجراجمة جيل واحد هو ان كتبة العرب والسوريين الشرقيين الاقدمين لا المحدثين لم يذكروا ابداً لفظة المردة بل كلما ارادوا ان يذكروهم سموهم جراجمة كما ان اليونان لم يذكروا

الجراجمة بل ذكروهم دائماً باسم المردة فيؤخذ من ذلك ان المردة عند غير الشرقيين هم الجراجمة عند اهل الشرق ويُعكس . هـذا ما اردت بيانه بهذا الصدد فان كانت سيادتكم تجيبني بكلام مقنع يشبه كلام سفركم الجليل سلمت حالاً بدون توقف . » انتهى

اما نحن فقد اجبناه بكتاب مخصوص ايضاً كما ياتي بالحرف وهو :

« قد راجعنا ما كتبناه في هذا المعنى وامعنا النظر في ماقلتموه مجدداً ولم نرَ مع اقرارنا بفضلكم واجتهادكم في المباحث ما يوهن حجتنا في كون المردة هم غير الجراجمة . واذا راجعتم القسم الثاني من بحثنا بما اوتيتم من الجلد والانصباب وما يحتاج اليه من التدقيق والامعان لا نراكم غير مقتنعين في هذه القضية ايضاً الا اذا وقفتم على ادلة جديدة وبراهين اصرح من التي وقفتم اليها حتى الان فاننا لا نكابر بل نكون اول الراجعين عن هذا الراي تبعاً لرايكم الصائب »

« هذا وليس بين ايدينا الان من كتب الاولين ما نستطيع ان نرجع اليه ونحن في المصيف وليس لنا في كل حال من الوقت والوسائط ما يسمح لنا بالتجرد الى مثل هذه الابحاث التي نميل اليها كل الميل ولكننا نلتقط مثل هذه الامور من فضلات موائد العلماء ولا نذكر اننا تطفلنا عليهم فيما كتبنا ولذلك لم نشأ ان نصرح باسمنا كالعادة في هذا الكتيب الذي لا يستحق الذكر حتى نقف على رايهم فيه واقبالهم عليه وقد راينا من ذلك ما نشطنا للغاية بيد اننا لا نزال نقر بعجزنا »

« ومعلوم حضرتكم ان القوم الذين ضوى اليهم الجراجمة ثم انفصلوا عنهم ورجعوا الى مدينتهم في اللكام بعد ان قتل سحيم بن المهاجر قائدهم ونكل بهم دون الوطنيين على ما روى البلاذري وهم الذين يدعوهم « خيل الروم وعليها قائد من قوادهم » ثم الذين بعد الصلح الاخيرة التي عقدت بين عبد الملك ويوستنيانوس اجلاهم هـذا الاخير قياماً بشرط

الصلح عن لبنان الى بعلبكية دون غيرهم واستمروا في تلك النواحي الى ما بعد ذلك بقرون وهم الذين يدعوهم ثاوفان صاحب هذه الرواية « مردائيتي » وقد بقي بعدهم الجراجمة في البلاد وعادوا الى مدينتهم الجرجومة فاقاموا فيها الى ان خربت في سنة ٧٠٧ كما روى البلاذري ايضاً لا يمكن ان يسلم بانهم والجراجمة شيء واحد والا وقعنا في هذه المغالطات الصريحة بان الجراجمة ضوى اليهم الجراجمة . او انهم أجلوا الى بعلبكية واقاموا فيها قروناً ولكنهم اهلوا مدينتهم الجرجومة في وقت واحد الى ان خربت . او ان اصحاب سحيم بن المهاجر قتلوهم ثم عادوا الى مدينتهم الجرجومة . او ان الملك يوستنيانوس اجلاهم الى نواحي ارمينية وبعد حين قاتلهم العرب وفتحوا مدينتهم على ان ينزلوا بحيث احبوا من بلاد الشام بالشروط التي ذكرها البلاذري الى غير ذلك من المناقضات التي لا يسلم بها عاقل وقد ثبت ان خيل الروم عند البلاذري هم عين المردائيتي عند ثاوفان . ولهذا فاننا توفيقاً لهذه المعارضات نرى راينا الاول بان المردة هم غير الجراجمة والله اعلم »

« وانتم ترون ان حجتنا وضعية ماخوذة عن المؤرخين العربي والرومي اللذين اول من رويا هذه القصة دون سابق اتفاق او مواضعة او معرفة بخلاف حججكم المبنية على الافتراض الذي لا نرى له اساساً . فايهما عندكم اوجه واثبت ويجب التعويل عليه ؟ الا اذا انكرتم ان البلاذري وثاوفان يرويان حادثة واحدة بعينها ويرميان الى غرض واحد وحينئذ يلزمنا اثبات هذه القضية التي يلزم عنها تلك التي نحن بصددها بطريق القياس المنطقي كما لا يغرب» انتهى

فورد من حضرة مناقشنا المشار اليه جواب على جوابنا هذا مؤرخ في ١٥ تشرين الاول من السنة ذاتها قال فيه بعد مقدمة لطيفة ما حكايته « اما المردة والجراجمة فقد عدت الى مطالعة الجزء الثاني من بحث سيادتكم

وكررت قراءة رسالتكم فالفيتكم مصيبين في رايكم واني لاقدم الشكر لشخصكم الجليل على ما فتح عليَّ من امر هذين الجيلين وتحقيق تاريخهما .
هذا واني لآسف كل الاسف على ان هذا البحث الجليل خالٍ من اسمكم الكريم لانه ذو اهمية جزيلة ...»

ثم ان حضرة الكاتب البارع المشار اليه بعد ان عرَّض ببعض الناس من مثل مَن لا يتقيد في مناقشاته بالبرهان بل « الذي يريده يثبته مجازفةً حقًّا كان او باطلاً وكل ذلك قسرًا وكرهًا لا برهانًا وعقلاً » (وهذا عين كلامه) استطرق الى اطراء رسالتنا بقوله « بخلاف ما طالعته في رسالتكم فانها تتدفق بالعبارات المنطقية الرصينة والذكاء المتوقد المجرد من كل غاية شخصية وهي آية بديعة في المناظرة والجدال تشف عن نفس وديعة حكمية لا تريد الاقناع الا بالعقل والروية لا بالسيف والوسائط القوية » انتهى

وهو كلام حري بان يكتب بالتبر لانه يدل على اخلاص نية صاحبه وفضله . اما اقراره بالحق صريحًا وانغلابه لقوة البرهان فهو شأن العلماء الاعلام المجردين عن الهوى خدمةً للحقيقة وفيه كما لا يغرب مثل نبيل يشكره عليه معنا كل ذي ذوق سليم .

عدد ٢

ثم تعرَّض لنا في قضيتنا هذه سيادة العلامة المطران يوسف الدبس السامي شرفًا وحرمة وعارضنا برسالة مذيلة بتوقيعه الكريم نشرها بالطبع دون تاريخ مصدَّرة بالعنوان الاتي وهو « المردة والجراجمة هم الموارنة . وليس المردة خيال الروم » وفيها بعد ان اثنى ثناء طيبًا على اسلوب كلامنا في بحثنا الاول متجاهلاً عن اسمنا الذي كتمناه ولم يكتم اخذ يلخص القسم الاول من مقالتنا تلك معترفًا بصوابية مرماه ثم قال (ص ٨) ما حكايته :

« فنحن اثبتنا في مقالتنا الاولى ان المردة هم الموارنة خلافاً لما اورده الاب لامنس من اقوال المضادين لذلك ثم عاد حضرته الى البحث مغضياً عن براهيننا ومؤيداً الراي المضاد للموارنة بوجه اخر وهو ان المردة هم الجراجمة لا الموارنة وناصره في ذلك الاب انستاس الكرملي واعتمدا خاصة على اقوال البلاذري في حق الجراجمة . ولما لم نجد فيما نقلناه عن البلاذري او غيره ما يثبت رايهما ابنّا في مقالتنا الثانية ان ليس الجراجمة المردة لعدم كفاءة ما اورداه لاثبات مقصدهما كما يظهر لمن طالع مقالتنا المذكورة . ولما طالعنا الان براهين مؤلف البحث المذكور صوبناها وعدنا نبين ان الجراجمة ليسوا المردة بل شركاهم في غزواتهم ونصراهم واخوانهم معتقداً ونزعةً وجامعة الفريقين المارونية على حد قولنا مثلاً ان الكسروانيين ليسوا الجبيليين بل اخوانهم والفريقين موارنة » اه

فيظهر من هذا الكلام ان سيادة العلامة الفاضل قد برز الان براي جديد لم يسبقه اليه احد في امر المردة والموارنة : لانه يسلم صريحاً ان من الناس الذين كان اطلق عليهم اسم « موارنة » في ذلك العهد قوماً لم يتناولهم اسم « مردة » كالجراجمة الذين كانوا على قوله موارنة ولم يكونوا من المردة : وهذا على ما نرى مخالف كل المخالفة لراي علماء الموارنة الذين قالوا بان الموارنة انما دُعوا مردة لتمردهم وعصيانهم على ملك الروم . فمن مثل هذه العبارة بل من كل رواية هؤلاء العلماء يتحصل ان كل الموارنة دعوا مردة بسبب هذا التمرد ولم يبقَ منهم فئة ولو قليلة لم يطلق عليها ويتناولها اسم « مردة » لان الذين لم يطلق عليهم اسم مردة دعوا على رايهم « ملكية » بحيث كان كل نصارى سورية في تلك الفترة اما مردة واما ملكية او يعاقبة ومونوثيلية : اما بحسب هذا الراي الجديد فيلزم ان يقال ان قسماً من الموارنة فقط قد اطلق عليه اسم « مردة » من التمرد لا كما قال السلف من علمائنا بان الموارنة اطلق عليهم باجمعهم هذا الاسم

حتى صار اسم المردة والموارنة مترادفين : ولكن كيف يمكن ان يثبت هذا الراي الجديد وصاحبه يسلم ان الجراجمة الذين هم ايضاً موارنة قد كانوا شركاء المردة ونصراءهم في غزواتهم واخوانهم معتقداً ونزعةً ومع ذلك لم يطلق عليهم اسم مردة اذا كان هذا الاسم اطلق على الموارنة من التمرد والعصيان على قولهم ؟ فنحن لا ندري الا اذا كان سيادة صاحب هذا الراي الجديد يرى ان اسم المردة لم يكن من التمرد كما زعم علماء الموارنة بل هو اسم علم لفئة من الموارنة كما ان اسم « الجراجمة » هو علم لفئة اخرى منهم وهذا ما يظهر جلياً من تمثيله بالكسروانيين والجبيليين كما لا يغرب عن ذي بصيرة : وبهذا المعنى يمكن ان يصير هذا الراي الجديد الذي لم يسبق اليه احد محتملاً من باب الافتراض المعقول : ولكنه لا يزال يحتاج الى برهان قاطع .

ثم ان سيادة المعارض الكريم صاحب هذا الراي الجديد اراد على قوله ان يؤيد براهيننا في القسم الاول التي ترجح ان الجراجمة هم ايضاً موارنة « ببراهين اخرى ماخوذة من مقتضيات الحال وصحة الاخبار عن المردة والجراجمة » فقال (ص٩) ما ملخصه « ان كل مؤرخي تلك الفترة التي من ايام معاوية وقسطنطين اللحياني الى ايام عبد الملك بن مروان ويوستنيانوس الاخرم اجمعوا على ان جماعة شنوا الغارات واكثروا الغزوات حتى استحوذوا على كل ما كان من جبل الجليل الى جبل اللكام واضطروا معاوية على عقد صلح مع الملك قسطنطين اللحياني واستمروا على سطوتهم واضطروا عبد الملك بن مروان ان يعقد صلحاً آخر مع يوستنيانوس الثاني » وهنا استشهد كلام المؤرخين الذي كررناه مراراً ثم قال « على ان اصحاب هذه الغزوات والاغارات لم يتفق العلماء على تسميتهم فدعاهم ثاوفان ومن تابعه مردة ودعاهم ابن العبري غزاةً روماً من زمرة المردة وسماهم البلاذري خيل الروم ضوى اليهم جراجمة وانباط . فالاختلاف اذاً في اسم هؤلاء

الغزاة فقط لا في اعمالهم المذكورة » اه

فكل من طالع هذا الكلام يقطع لا محالة ان سيادة المعارض قد سلم لنا بقضيتنا الجديدة التي ندافع هنا عنها وقد بين برهانها في هذه المقدمة افضل بيان بما لا مناص منه ولا مردّ له لانه جعل المردة والغزاة الروم وخيل الروم جماعة واحدة وجدت في فترة واحدة من الزمن وفي بقعة واحدة من الارض بين جبل اللكام وجبل الجليل وقد عملوا في نفس الزمان والمكان اعمالاً واحدة بعينها وصرح بان اختلاف المؤرخين فيهم لم يكن جوهرياً لانه كان من جهة تسميتهم فقط وهذا كما تعمدنا نحن تقريره في هذه المقالة :

وياليت سيادة المعارض وقف عند هذا الكلام لكفانا مؤونة العناء في المحاماة عن هذه القضية وردّ ما يرد من الاعتراضات عليها . ولكنه قد عاد فهدم كل ما كان بناه في هذه الفقرة التي جعلها كمقدمة لبرهانه . فقال ما لخصه هو نفسه بالكلام الاتي (ص١١) «فاذاً كل فئة من هؤلاء الجماعة ان كانوا مردة ثاوفان او غزاة ابن العبري او خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري لا يمكنها وحدها ان تستولي على هذه البلاد كلها وان تصبر على القتال كل هذه المدة وان تكره خليفتين من اعظم الخلفاء على ان يعقدا الصلح مع ملك الروم بسبب غزواتهم » اه فكأني بسيادته يفرّق هنا ما كان جمعه في الفقرة السابقة فيقدّر ان تلك الاسماء المختلفة بحسب رواية كل من المؤرخين المذكورين تختلف ايضاً بمسماها حتى صار مردة ثاوفان غير الغزاة الروم من زمرة المردة عند ابن العبري وكلا الجماعتين غير خيل الروم عند البلاذري خلافاً لما كان قاله في المقدمة المذكورة ولما نرتئيه نحن في قضيتنا : وبناء على تصوره هذا في تلك الجماعات الثلاث بحسب رايه يردف هذا الكلام الاخير بقوله :

« فينتج من ذلك ان الحال نفسها وصحة الاخبار المتفق عليها تقضي

بان يكون هؤلاء الجماعة جميعاً عصبة واحدة منتشرة من جبل الجليل الى جبل اللكام وشمالي سورية واختلف فقط في اسمهم فسمى ثاوفان من تحصن منهم في لبنان مردة ووافقه ابن العبري وسمى البلاذري ومن تابعه من المؤرخين المسلمين من كان منهم في جبل اللكام او خرج اليه جراجمة او خيلاً للروم » اه

فمن هذه النتيجة يتحصل عندنا ان سيادة المعارض قد تصور هذه الجماعة او العصابة فرقتين كانت احداهما متحصنة في جبل لبنان وهي التي يسميها ثاوفان وابن العبري «مردة». والثانية كانت متحصنة في جبل اللكام وهي التي يتكلم عنها البلاذري ويسميها «جراجمة او خيل الروم» وان هاتين الفرقتين كانتا في زمن واحد وقد رمتا باتفاق الى غرض واحد وحصل عن اعمالهما نتيجة واحدة رواها كل من المؤرخين المذكورين عن القوم الذين خصهم بكلامه .

وهذا الراي كان من الحقيقة على قاب قوسين او ادنى لو صح ان يكون مردة ثاوفان حصروا اعمالهم في جبل لبنان وما جاوره من قبليه وشرقيه وغربيه دون ان يتخطوا الى جبل اللكام. وان يكون الجراجمة وخيل الروم الذين ذكرهم البلاذري حصروا اعمالهم في جبل اللكام وما ناوحه من شماليه وشرقيه وغربيه ولم يتخطوا الى جبل لبنان. اما والحالة غير ما ذكر لان ثاوفان يقول « ان المردائيتي استولوا على جبل اللكام ايضاً » والبلاذري يقول « ان خيل الروم خرجت الى جبل اللكام ثم صارت الى جبل لبنان» ثم قال في ميمون الجرجماني انه انما نُسب الى الجراجمة « لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم » فقد قفل كل باب لمثل هذا التقدير الذي جاءنا به سيادة المعارض عفواً وصح ما كان هو نفسه قرره في الفقرة الاولى التي ذكرناها آنفاً. وصح ايضاً ما نختاره نحن من ان خيل الروم والمردائيتي والغزاة الروم من زمرة المردة هم جماعة واحدة بعينها ولو اختلفت الاسماء

باختلاف الرواة . على ان هذا الاختلاف ليس بجوهري لان ثاوفان انما يدعوهم باسمهم الحقيقي اما البلاذري وابن العبري فبصفتهم وهي لا تنفي اسمهم كما يرى المتامل ولذلك لا تناقض بين هؤلاء الرواة في الاسم كما قد يُظن .

هذا ونحن لا ندري كيف يسوغ لسيادة المعارض الكريم ان يقول في هذه الفقرة الاخيرة « ان كل فئة من هؤلاء الجماعة ان كانوا مردة ثاوفان او غزاة ابن العبري او خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري لا يمكنها وحدها ان تستولي على هذه البلاد الخ » أَلعلهُ استطاع ان يعرف من مصدر ثقة كم كان عديد وعدد كل فئة من فئاته هذه على حدة حتى يحكم بانها لا تستطيع وحدها ان تعمل ما ذكره المؤرخون عنها ? او هل هو مستطاع ان يعرف عددها وقوتها من حروف اسمها بحساب الجمل حتى يقال بتاكيد ان المردة وحدهم لا يستطيعون ذلك ولا خيل الروم وحدهم يستطيعونه ولذلك كان من الواجب ان يكونوا فئتين او ثلاث فئات وينضموا بعضهم الى بعض حتى يصح ان تعزى اليهم كل هذه الاعمال ? ومع هذا نرى سيادة المعارض يفرّق فيما بينهم في النتيجة التي ذكرناها آنفًا عنه في الفقرة الثالثة بقوله : ان المردة عملوا اعمالهم في لبنان والجراجمة او خيل الروم عملوها في جبل اللكام وكل فئة منهما عملت ما عملت بمعزل عن الاخرى .

ونحن نقول انه لا البلاذري عزا مثل هذه الاعمال الى خيل الروم وحدهم ولا ثاوفان الى المردبين وحدهم لان الاول قال « وضوى الى خيل الروم جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » والثاني قال « وضوى الى المردبين جماعة كثيرة من العبيد والاسرى ومن الوطنيين حتى بلغوا في زمان قصير الوفًا كثيرة » فلا محل اذًا لاستغراب اعمال هذه الجماعة اذا قررنا انها واحدة بعينها ولو تعددت

اسماؤها وقدَّرنا مع سيادة المعارض ان عددها كان قليلاً بحيث لا تستطيع
وحدها ان تاتي مثل هاتيك الاعمال العظيمة ·

ثم ان سيادة المعارض بعد هذا البرهان الذي يجعله كمقدمة لنتيجة
اخرى يضع الحد الاوسط قائلاً (ص ١٢) ما حرفيته :

« وحيث ان اصحاب مارون كانوا منتشرين حينئذ في كل الاعمال
المار ذكرها اي من جبل الجليل الى جبل اللكام والى شمالي سورية كما
اثبت مؤلف البحث المذكور وكما يظهر من كلام ابن العبري المار ذكره
ومن كلام الاب لامنس في اثار لبنان » ا ه

وبعيد هـذه الوسطى ياتي بالنتيجة الثانية ثم الثالثة كما يلي بالحرف
الواحد اي « فيسوغ لنا لا محالة ان نقول ان مردة ثاوفان هم الموارنة ·
وحيث انهم كانوا عصبة واحدة مع اهل جبل اللكام والجراجمة فينتج ايضاً
ان خيل الروم وجراجمة البلاذري هم من الموارنة ايضاً » ا ه

وهذا والحق يقال كلام مبتسر لا يكلفنا عناء الاجتهاد في ابطاله
لان من طالعه باقل امعان راى لا محالة ما نراه نحن من خروجه عن
قواعد الاستنتاج المنطيقي · لانه كيف يسوغ ان يستنتج من كون اصحاب
مارون كانوا منتشرين في كل المحلات المذكورة واكثر منها ان مردة
ثاوفان هم الموارنة ؟ فلينصف المنصفون · ثم ما المراد بقوله « ان المردة
كانوا عصبةً واحدة مع اهل جبل اللكام والجراجمة » ؟ وكيف يستنتج
اذا سلمنا له بهذه الوسطى (التي انما نسلم له بها على معنى قضيتنا) « ان
خيل الروم وجراجمة البلاذري هم ايضاً من الموارنة ؟ » ان في هذا لعجباً
واعجب منه ما قاله في مستهل هذا الكلام من انه اراد به انه يزيد رايناً
في القسم الاول اثباتاً ببراهين اخرى هي التي نحن الان بصددها ·

ثم ان سيادة الكاتب المفضال قد تطرق (ص ١٤) الى مناقشتنا في
راينا الخصوصي الذي حرره هو نفسه هكذا اي « ان المردة خيل الروم

ارسلهم قسطنطين اللحياني ضد فتوحات العرب » وقال بعيد ذلك :

« فلو انتبه هذا الكاتب الماهر ان كلمة الروم في ذلك العصر لم يكن يفهم بها سكان بلاد الروم فقط بل كل من حازب ملوك الروم او ناصرهم لكفاه هذا وحده ان يحجم عن ابداء هذا الراي الذي خالف به ماذكره قبلاً واعاد الارتباك الى هذا البحث بعد ان كاد يفصله » اه

ثم اخذ بعد هذا الكلام في رد قضيتنا هذه بمحض تقدير وافتراض لا اساس له فقال (ص ١٥) :

« اذ ان خيل الروم الذين ذكرهم قد يمكن ان يكونوا اتوا من منبج وقنسرين وغيرهما من مواطن الموارنة الى جبل اللكام وسماهم البلاذري « روماً » لمناصرة ملوك الروم او لانهم اتوا بايعازه » اه

وكانا به وجد هذا التقدير قلقاً لا يثبت على النقد كما يرى المتبصر فتوغل في التسليم بما ينقضه ويقلب وجه القضية التي بناقشنا عليها فقال بعده (وهذه عبارته عينها) :

« وهبهم انهم اتوا من بلاد الروم او ارسلهم ملك الروم فلا يمكن ان يثبت انهم المردة او انهم غير الموارنة » اه

والجواب — ان في هذه التوطئة امرين يجب الانتباه اليهما . واولهما قوله . ان البلاذري بقوله « خيل الروم » لم يرد باسم « روم » هنا ان الخيل المذكورة كانت من بلاد الروم الخ . فلو سلمنا له بذلك على علاته اتراه يستطيع ان يبرهن قضيته ويدك قضيتنا ؟ و نحن انما نفهم بقول البلاذري « خيل الروم وعليها قائد من قوادهم » جيشاً محارباً يخص مملكة الروم وله قائد من قواد عسكر الروم يقوده الى الحرب حيثما شاء بامر ملك الروم . وقد يكون هذا الجيش مؤلفاً من شعوب مملكة الروم اي من سكان بلاد الروم وغيرهم ولكن هل كان ممكناً في ذاك الزمان ان يكون هذا الجيش من منبج وقنسرين وماجاورهما كما اراد سيادة المعارض ؟

فان هذا لا يزال يحتاج الى ادلة ترجحه على الاقل . لان من المعلوم ان سورية باجمعها كانت في ذاك العهد تحت سلطة العرب الذين كانوا هاتيك الايام تجاوزوها الى شاو وابعد حتى بلغوا الى حصار قسطنطينية مدة نحو سبع سنين اي من سنة ٦٧٢ فصاعداً كما روى جمهور المؤرخين . و خيل الروم او المردائيتي انما دخلوا لبنان في سنة ٦٧٧ كما بينا فيما سلف . فهل يمكن والحالة هذه ان يخطر على بال ان هذا العسكر الذي تحصن في لبنان اذ ذاك يكون من جهات منبج وقنسرين او من كل سورية ؟

وعندنا ان المراد بلفظة « روم » هنا انما هو مملكة الروم لان لفظة « خيل » مضافة الى « روم » كما يرى المتأمل فهي على حد قولهم مثلاً « جيش الانكتار » اي عساكر مملكة الانكتار او الانكليز وهم قد يكونون من البلدان التابعة لهذه المملكة مثل ارلندة وسكوتية واوستراليـة والهند والكاب والترنسفال الى غير ذلك كما لا يغرب . وبهذا المعنى يطلق اسم « روم » على من حازبوا ملوك الروم وناصروهم كما اراد سيادة المشار اليه لا بمعنى ان كتاب ذاك العصر كانوا يفهمون ذلك بكلمة روم كما قال لان البلاذري الذي نتناقش على كلامه وهو من كتاب ذاك العصر نراه قد ميز بين الروم ومن حازبهم وناصرهم في نفس كلامه الذي نحن بصدده فقال « خيل الروم وعليها قائد من قواد الروم وضوى اليها الجراجمة وانباط وعبيد اباق الخ » وبقي على هذا التمييز بين الروم وبين غيرهم ممن ضووا اليهم حتى النهاية لانه عند ذكر اغتيال سحيم بن المهاجر للقائد الرومي قد ميز ايضاً بين الروم الذين كانوا مع هذا القائد وبين من انضم اليهم وحارب معهم كل مدة اقامتهم في لبنان . كما يرى من راجع هذه الفقرة في محلها . وهذا كافٍ في ابطال هذا الافتراض الذي وضعه سيادة المعارض كقاعدة مسلم بها عند الجميع ولامنا على عدم الانتباه اليها « اذ انها كانت تكفينا (على قوله) للاحجام عن ابداء راينا الذي نحن بصدده »

وها قد بينا الان اننا انتهينا الى هذا الامر ولم نجده كافياً للرجوع عن راينا لاننا لا نزال نطلب البرهان الكافي على ان « خيل الروم » هوءلاء انما كانوا من جهات منبج وقنسرين وانهم بالتالي كانوا من الموارنة . لان قوله في هذه الفقرة « قد يمكن ان يكونوا من مواطن الموارنة » ليس ببرهان يعوّل عليه لانه لا يتجاوز حد الظن والتخمين الذي لا اساس له كما بينا آنفاً .

اما الامر الثاني الذي يجب الانتباه اليه في هذه التوطئة فهو قول سيادته « وهبهم انهم اتوا من بلاد الروم او ارسلهم ملك الروم فلا يمكن ان يثبت انهم المردة او انهم غير الموارنة »

فاننا والحق يقال لم نفهم ما المراد من ركني هذه الفقرة . لانه كيف يمكن ان يسلم بانهم اتوا من بلاد الروم او ان ملك الروم هو الذي ارسلهم الى جبل اللكام وجبل لبنان دون ان يتاتى عن ذلك انهم المرديون او انهم غير الموارنة ؟ فعلى سيادة الكاتب المفضال ان يبين لنا كيف يوفق بين ركني هذه القضية وله الفضل .

ثم ان سيادة المعارض الخطير قد قال بعد هذه التوطئة في تحرير ما يعارضه من ادلتنا ما حكايتـه (ص ١٥) « ان المؤلف اسند رايه الى دليلين خاصة . الاول اخذه مما حكاه عن المطابقة بين اقوال ثاوفان والبلاذري . والثاني اخذه مما كان للمردة بعد خروجهم من لبنان واضاف الى ذلك بعض ما ظهر له انه يؤيد برهانه » اه

وبعد ذلك اتى في رد الدليل الاول بما لا نراه وافياً بالمقصود . وقبل الشروع في بيان ذلك نرى من الواجب ان نحرر القضية التي يدور عليهـا محور الجدال فهي كما يلي :

« ان المردة ليسوا الموارنة ولا الجراجمة بل هم خيل الروم يقال لهم عندهم مردائيتي »

فاذا تقرر ذلك كيف يجوز لسيادة المعارض النحرير ان يعد في كلامه كمبرهن ومسلم به ما يدور الجدال عليه ؟ فتراه يقول على الدوام « المردة اي الموارنة باختلاف الاسم » قبل ان ياتي ببرهان لاثبات هذا القول . فاذا كان ذلك مما يجب ان يسلم به بديهياً فعلى اي شيء نتناقش وقد صارت قضيتنا من باب تحصيل الحاصل ؟ لانه اذا صح ان المردة هم الموارنة وخيل الروم هم المردة (كما يعترف سيادة المعارض صريحاً في هذه الفقرة) فيكون الجميع موارنة ولا يبقى الا ان يفسر كيف ان هؤلاء الموارنة اتوا الى جبل اللكام وجبل لبنان من الخارج ومن اين اتوا وما معنى قول المؤرخين الرومي والعربي ان بعد دخولهم الجبلين المذكورين ضوى اليهم الجراجمة وانضم اليهم الوطنيون الخ . فما المراد بقولهما هذا « الجراجمة والوطنيون » وهل هم موارنة في الاصل ام صاروا موارنة بانضمامهم الى الموارنة الدخلاء تحت اسم « مردة وخيل الروم » ؟

فترى من ذلك ان محور الجدال قد اختلف . ومع هذا فلنرجع الى البرهان الذي به يدلك سيادته ادلتنا فانه يتلخص بما ياتي وهو ان البلاذري « ينبئنا بغزوة واحدة من غزوات المردة » فيما ان تاوفان ينبئنا عن غزوات عديدة الى ان نفى يوستنيانوس الاخرم اثني عشر الفاً منهم : « واما البلاذري فلم يذكر الا خروج فريقاً منهم في جبل اللكام ومسيره الى لبنان وقتل سحيم بن المهاجر قائد هذه الغزوة » فاذاً ...

ثم قال اعزه الله (ص ٩١) « حتى ولو سلمنا بان خيل الروم فرسان ارسلهم ملوك الروم الى سورية فلا يثبت ان هؤلاء الفرسان هم المردة » وبرهانه على ذلك هو « ان البلاذري الذي ذكرهم لم يقل انهم عملوا شيئاً من اعمال المردة الا مسيرهم من جبل اللكام الى لبنان ولم يستمروا سنين يشنون الاغارات كما فعل المردة بل اهلكهم سحيم ولم يضطروا الخلفاء ان يصالحوا ملوك الروم بل صالحهم عبد الملك خدعة والى مدة وجيزة ثم

اغتالهم عسكره » . ثم قدر لقصتهم هذه تقديراً جديداً مستغرباً وهو « ان احد ملوك الروم لما عرف باغارات المردة ارسل اليهم قائداً وبعض فرسان لنجدتهم فبلغوا جبل اللكام ثم صاروا الى لبنان فانتصر المسلمون عليهم في هذه الغزوة وادركوهم وان كانوا عملوا شيئاً فقد عملوه بقوة من ضووا اليهم من الجراجمة والموارنة ولا يمكن ان يكونوا هم المردة انفسهم » ثم اردف هذا الكلام مستنتجاً بقوله « وكل ذلك واضح ومبطل الدليل الاول الذي اورده المؤلف لرايه » اه

والجواب على كل ذلك هو اننا نتجاوز عن البرهان الاول الذي يظهر منه ان سيادة المعارض يسلم بان خيل الروم هم المردة انفسهم كما يرى المتأمل . وننكر ما جاء في البرهان الثاني . ولا نرى حاجة الى الرد على كل عبارة من كلامه هذا بالتفصيل بعد الذي اوضحناه حتى الان وبرهناه من مطابقة كلام البلاذري في خيل الروم على كلام ثاوفان في المردةيين مما لا محل معه لمثل هذا الاعتراض . بيد اننا لا ننكر شدة عجبنا من استنتاجه بعد الافتراض الاخير المستغرب بان كلامه هذا واضح ومبطل لدليلنا الاول . وندع الحكم للمنصفين .

ومع هذا فهب ان خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري هم غير المردائيتي الذين ذكرهم ثاوفان فهل ينتج عن ذلك ان المردة هم الموارنة ؟ فنحن لا يسعنا ان نسلم بهذا مالم نؤت ولو ببرهان واحد وضعي يرتاح عنده العقل السليم .

ومن بعد ذلك قد اتى سيادة المشار اليه (ص ٣٠) الى رد دليلنا الثاني الذي اخذناه من كلام العلامه السمعاني في ماجرى لهؤلاء المردةيين بعد خروجهم من لبنان . ثم الى رد ملاحظاتنا على رواية ابن العبري المؤرخ السرياني الشهير (ص ٣٣) . ولكن لما كان جل اعتمادنا في برهان هذه القضية انما هو كلام ثاوفان وكلام البلاذري ومطابقة الكلامين

بعضهما مع بعض حتى يكونا مصدرين مختلفي المستند لم نر ان نتعرض والحالة هذه الى ابطال ما جاء من الرد على ١٠ سوى ذلك · بل نقر صريحاً بانه لولا روايتا المؤرخين المذكورين وما فهمناه منهما لما ساغ لنا ان نستدل تلك الاستدلالات مما اتى بعد بل ربما لم يخطر لنا ذلك على بال · وهذه هي الحقيقة فمن ابطل والحالة هذه براهيننا الوضعية ابطل بلا محالة كل براهيننا التي تلت ولهذا اكتفينا هنا بالمدافعة عن الاول كما رايت والله خير هادٍ الى الصواب · وهذا ما كان من معارضة سيادة الحبر المفضال والكاتب النحرير المطران يوسف الدبس في كراسته التي نوهنا بها ومن اجوبتنا على براهينه محوَّرة بعض التحوير مما يزيد القضية بياناً وتلك البراهين بطلاناً على ما نرى والله اعلم ·

عدد ٣

لقد كنا نود ان يكون انتهى هذا الجدال هنا الا ان سيادة الحبر العلامة معارضنا المشار اليه لما لم تكن براهيننا لتقنعه قد اعاد الكرة علينا بكتاب مخصوص مؤرخ في ١٥ كانون الاول من السنة الغابرة به حاول ان يبطل دفوعنا هذه ويحامي عن براهينه التي رددناها آنفاً · ثم اضاف الى ذلك برهانين جديدين عدهما قاطعين : فاجبناه على كتابه هذا بكتاب مخصوص ايضاً مؤرخ في ٢٧ من الشهر نفسه اقتصرنا فيه على رد البرهانين الجديدين المذكورين دون ان نتعرض لغيرهما مما جاء في رسالته المذكورة من شرح براهينه المردودة وترميمها وسياتي نص هذا الجواب فيما يلي ان شاء الله: ولكنه اعزه الله لم يكن ايضاً ليرض عن ذلك بل بادرنا بكتاب ثانٍ مؤرخ في ٣١ من الشهر نفسه يقول فيه ما مؤداه « وقد ضمنتم رسالتكم هذه المؤرخة في ٢٧ الجاري رداً على رسالتي في ١٥ منه لم اره صالحاً فتلطفوا سيادتكم بقبول عذري عن الخوض معكم فيما بعد بهذا البحث . . . » ثم اتى بعد ذلك على رد كلامنا الذي كنا نعتقد اننا ابطلنا

به البرهانين الجديدين المشار اليهما الى ان قال عند النهاية ما نصه الحرفي « فهذا ما لخصناه بايجاز بيانًا لقفل باب هذا الجدال من نحونا ولا شك ان كرم اخلاقكم يولينا الحق بان نشهر رسالتينا هاتين اذا اقتضى اللهم الا ان كان ما نعهده باستقامتكم وعلو مداركم يحملكم على ملافاة الحطة التي يوجبها رايكم الجديد في شان الطائفة وعلمائها فتشهرون سيادتكم ما يصد المضادين عن الاستناد الى كلامكم في مضادتكم فما اشهر مطبوعًا لا بد من الاحتياط منه بمطبوع » فاجبناه اذ ذاك على هذا الكتاب الاخير بالكتاب الاتي بحروفه :

« الى سيادة الحبر النبيل المفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت السامي شرفًا وحرمةً اعزه الله تعالى »

« اما بعد اداء واجبات التبجيل والاحترام فان كتابكم الكريم المؤرخ في غاية السنة المنصرمة ردًا على جوابنا الاخير المورخ في ٢٧ من شهر كانون الاول الماضي قد بلغ اليوم الينا ولدى امعان النظر فيه عجبنا من قوله باننا خرجنا عن اصول المناقشة العلمية المقصود بها البحث عن الحقيقة وانكم لذلك تعتذرون عن العود الى الخوض معنا في هذا المبحث اذ لم يعد ذلك لايقًا لا في شان سيادتكم ولا في شاننا »

« فلم نفهم والحق يقال معنى هذا القول فان كان المراد منه الالماع الى ما قد يكون فرط من التطرف في الكلام وزل به القلم فاننا نتبرأ من ذلك علنًا ونوءكد على رؤوس الملا بان لم يكن ذلك قصدًا منا وقد راجعنا كلامنا الموجه الى سيادتكم فلم نشعر منه بشيء من شانه ان يمس الحاسات اللطيفة فان كنتم شعرتم بمثل ذلك فنحن نعتذر الى سيادتكم فيه باخلاص نية ونسالكم عفوًا انه من شيم الكرام . اما اذا كان قصد سيادتكم من هذا الكلام اننا لم نردّ براهينكم السالفة كما اوضحتم فيما جاء بعد هذه التوطئة ولذلك صرتم تعدّون كلامنا من باب المماحكة والعناد في الحق الواضح

وهذا الذي تسمونه لطفاً بالخروج عن حد المناقشة فاسمحوا لنا بان نقول اننا لا نرى ذلك وانما دعانا الى الاقتصار على رد القضية الاساسية دون التعرض لغيرها حب الايجاز والحذر من التعريض في التعرض لها مما يأباه الذوق السليم . ومع ذلك فقد صرحنا مراراً في مطاوي كلامنا باننا نقنع بالقضية الاساسية فاذا رُدَّت رداً محكماً رجعنا عنها وعن كل ما بُني عليها دون حاجة الى برهان اخر وفي ذلك كما ترون حصر موضوع الجدال . فما بالكم والحالة هذه تطالبونا بما تحاشيناه عن حسن قصد واقتصاد معقول ومقبول بعد حصر القضية التي عليها المدار ؟ »

« ونحن مع ذلك نوافق سيادتكم على كل ما ترغبون فيه من اقفال باب الجدال والمناقشة او ابقائه مفتوحاً على اننا نرى اقفاله اولى بعد بلوغه الى هذا الحد لندع الحكم في هذه الحقيقة التاريخية للعلماء المحققين ممن يطلعون على هذه المناقشة العلمية التاريخية ويزنون بميزان الانصاف براهين الفريقين المتناقشين لان كلاً منا لا يصلح حكماً او قاضياً لكلامه او لما يدافع عنه . ومن ثم فاذا شاءت سيادتكم ان تنشر هاتين الرسالتين بالطبع كما اوضحت في اخر هذه الرسالة الاخيرة نرجو ان تنشر ايضاً او تسمح لنا بنشر جوابنا عليهما حتى يُعرف الغث من السمين والضعيف من المكين لئلا يكون الحكم من قبيل من يحكم لاحد الخصمين قبل سماع حجة خصمه ودفوعه وهذا ابعد من ان يرضى به انصاف سيادتكم »

« اما قولكم حرسكم الله بان راينا هذا الذي ندافع عنه يوجب الحطة في شان الطائفه وعلمائها وان من الواجب ان نتلافى ذلك بالرجوع عنه بنوع مشهور كما ابرزناه بنوع مشهور . فاسمحوا لنا ان نقول فيه غير ما رايتم على خط الاستواء : فمن اي وجه يحط هذا الراي التاريخي من قدر الطائفة ومن قدر علمائها ؟ واي فخر او شرف نزعناه عنها بقولنا ان المردة غير الموارنة كما شاءت الحقيقة التاريخية ؟ واذا شئنا ان نرجع عن هذا

الراي فاي علمائنا ترون احق بالاتباع في امر المردة والموارنة ؟ وسيادتكم تعلمون ان علمائنا ذهبوا في اصل المردة مذاهب شتى لانهم انما كانوا يبنون قضيتهم على مجرد تقدير وافتراض لم يتمسكوا به . فهذا ابرهيم الحاقلاني قال « ان المردة هم من قبيلة مراد التي هي بطن من كهلان في اليمن » وهذا مرهج بن نمرون الباني يقول « انهم الموارنة انفسهم وانما سموا المردة لتمردهم على ملوك الروم في امر المذهب الديني ويقابله اسم ملكية للذين والوا هؤلاء الملوك وتبعوا بدعتهم » وقد بينا لسيادتكم في جوابنا السابق كيف ينتج ضرورةً عن هذا الراي ان الموارنة كانوا مونوثيليين مما لا يسلم به احد من علمائنا ولذلك اضطر السمعاني ان يرفض هذا الراي ويصرح بمخالفة كل علماء الموارنة الذين ارتأوا هذا الراي الباطل ويقول ان هذه الفرقة بين المردة والملكية انما كانت لسبب مدني لا ديني . ولم يتجرأ السمعاني نفسه مع غزارة علمه وسعة اطلاعه وعلو مقامه بين علماء التاريخ المحققين ان يذكر هذا السبب المدني الذي لاجله تسمى الموارنة مردة ولم يؤكد ذلك لعدم وقوفه على برهان قاطع يستند اليه ولذلك قال « وانا ارتأي عن الظن الراجح ان اسمي الملكية والمردة اسمان متضادان وجدا في عصر واحد لا للدلالة على اختلاف ديانة او طقس كما ظن علماء الموارنة بل للدلالة على اختلاف غرض مدني فقط » (مكت شر : مج ١ ص ٥٠٩) وقد خالفت سيادتكم هذه المعاني جميعها في الرد الاول المشهور بالطبع على بحثنا في المردة والجراجمة والموارنة فقالت (ص ٨) « ان الجراجمة ليسوا المردة بل شركاهم في غزواتهم ونصراهم واخوانهم معتقداً ونزعةً وجامعة الفريقين المارونية » وقد بينا لسيادتكم في ردنا السابق وجه مخالفة هذا الراي الجديد اراء علمائنا المعروفة حتى الان في ذلك . الاَّ اذا كنتم تتمسكون براي العلامة الحاقلاني المذكور آنفاً من ان المردة انما هم من قبيلة آل مراد التي هي بطن من كهلان في اليمن قد

جاءُوا لبنان واستوطنوه وجمعت بينهم وبين اهله والجراجمة وغيرهم المارونية دون الاسم الاصلي الذي هو « مردة » بحيث لا يصح ان يكون كل ماروني في ذاك العصر من المردة المذكورين ولو كان كل هؤلاء المردة موارنة »

« فصار والحالة هذه آراء علماء الموارنة ثلاثة ورابعها رايكم الجديد الذي بسطناه الان فالى ايها تودُّون ان نرجع فيما لو تساهلنا في العدول عن راينا تلافياً لما يوجب الحطة في شان الطائفة وعلمائها ؟ افيدوا غير مامورين وبينوا لنا اذا شئتم وجه الفخر والشرف الباذخ الذي ثللناه برأينا المخالف لعلنا نرى ما ترون من وجوب الرجوع عنه ضناً بكرامـة الطائفة الحقيقية ولو اضطررنا ان نعارض الحقيقة التاريخية »

« هذا ما راينا ان نبسطه لديكم دون ان ندخل في البرهان الذي يتعلق بهذه القضية لتصريح سيادتكم باقفال باب هذا الجدال وانما اسهبنا الكلام في المعنى الاخر لاننا لم نطق ان يقال فينا اننا بهذا الراي الجديد اوجبنا الحطة في شان الطائفة وعلمائها وقد كابرنا على ذلك دون اكتراث لتنبيهنا الى هذا المعنى فان اقنعتمونا به ولكم الفضل لم نستنكف من العدول عنه بالطريقة التي ترون والا فنبقى على حد قول الشاعر :

نحن بما عندنا وانت بما * عندك راضٍ والراي مختلف

« فاقبلوا اذاً رعاكم الله حاسات اخلاصنا وشكرنا على ما تلطفتم بـه وثقوا باننا لا نزال على عهد الولاء ولم تكن هذه المناقشة العلمية لتقلل من ثقتنا بسيادتكم حرس الله كرم وجودكم بالاقبال في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٠٤ »

الداعي لسيادتكم
المطران يوسف دريان
النائب البطريركي

ومن بعد هذا الاخذ والرد قد ساد الصمت بيننا مدةً تقابلنا في خلالها مرارًا على اجمل وفاق دون ان يبدي احدنا للاخر اقل شيء مما يتعلق بهذه القضايا التي دار فيما بيننا الجدال عليها : الا ان سيادة مناقشنا العلامة المشار اليه قد ابرز في ١٨ شباط من السنة الجارية رسالة جديدة نشرها في العدد ١٤٢٧ — ٥٠ من جريدة المصباح الاغر تحت عنوان « خاتمة البحث في المردة والموارنة » لخص فيها اولاً حكاية ما دار بيننا وبينه من المكاتبة الخصوصية في هذا الموضوع ثم كرر براهينه التي كان انفذها الينا برسالتيه المنوه بهما واضاف اليها براهين جديدة دون ان يشهر جوابينا المذكورين لاستضعافه كلامنا كما صرح . ثم حكم لنفسه بالحق . فنحن لم نصبر على ما جاء في هذه المقالة بل بادرنا الى الرد عليها بكريريسة على حدة نشرت بالطبع في تاريخ ٢٧ من شهر شباط نفسه عنوانها « ختام الجدال في امر المردة والجراجمة والموارنة » وقد اثبتنا فيها اولاً جوابنا الاول لسيادته ثم اردفناه بالرد على براهينه الجديدة . ولما كان ما جاء في هذه الكريريسة لا يخلو من مزيد الفائدة في اثبات هذه القضية التي ندافع هنا عنها راينا تحقيقاً لاماني بعض محبي الحقيقة ان نثبتها هنا برمتها . فقد قلنا بعد ان وصفنا مقالة سيادة المعارض المفضال التي نشرها في جريدة المصباح ما يلي :

وقد كنا الونا ان لا نعود الى الجدال في هذه القضية التاريخية تاركين الحكم الفصل للعلماء المحققين في صحة براهيننا و براهين معارضينا او عدمها الا اننا لما رأينا سيادة المشار اليه يحكم لنفسه بالفوز والانتصار في حلبة هذا الميدان وينسب الينا من الاقتناع ما لم نحلم به رغماً عن تصريحاتنا في جوابين خطيين لنا على خطابين لسيادته بهذا الصدد باننا لم نزل على اعتقادنا بان المردة لا يمكن ان يكونوا عين الموارنة وقد كررنا في الاول منهما بعض البراهين والادلة التي نقوم بها حجتنا ولو لم يلتفت

سيادته اليها بعين الانصاف راينا ان لا بد من التصريح على رؤوس الاشهاد باننا لا نزال على راينا الاول لضعف براهين مناقشنا على رد براهيننا وقضيتنا ونحن لا نريد بهذا التصريح ان نحكم لانفسنا نظيره بل ان نرفض حكمه لنفسه علينا وهو كما يعلم كل ذي ذوق سليم لا يصلح حكماً في امر هو المداعي فيه وانما الذي يصلح حكماً بيننا وبينه شخص ثالث مجرد عن كل هوًى مشهود له بالعلم ودقة النظر وسلامة الذوق في المنطق وفلسفة التاريخ . وقد بينا لسيادته هذا المعنى في جوابنا الثاني والظاهر انه لم يعبأ به .

ومع هذا فنحن لا نحب ان نعني نفسنا الى اكتشاف حجج وبراهين جديدة في اثبات قضيتنا هذه لاننا لا نزال نحسب براهيننا السابقة غير مردودة بل ثابتة على قوتها وبما ان سيادة المشار اليه لم يبقِ ما دار بيننا وبينه من خطاب وجواب فيما يتعلق بهذه القضية مكتوماً مع انه كان قد كتب الينا صريحاً هذه الفقرة التي ذكرها في مقالته الاخيرة التي نحن الان بصددها وهي « لم نحب ان نشهر رداً على مقالته هذه الاخيرة (اي التي في نبذتنا الثانية) خيفة ان يظهر بيننا خلاف ونحن اخوان متحابان . . . » لذلك راينا انه صار يحق لنا ان ننشر على الاقل جوابنا الاول الخطي المؤرخ في ٢٧ كانون الاول ختام السنة الغابرة الذي اشار اليه في خاتمته هذه قصد ان نعرضه على العلماء المحققين وفيه غنىً عن كل رد جديد ان شاء الله وهو هذا محوَّراً بعض التحوير .

« الى سيادة الحبر النبيل المفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت السامي شرفاً وحرمةً اعزه الله تعالى »

« اما بعد تادية واجبات التبجيل والاحترام فاعرض اني اخذت هذا المساء بيد التكريم والاعتبار رسالة سيادتكم المؤرخة في ١٥ الجاري التي عنيتم بها اولاً بذكر تاريخ المناقشات التي دارت منذ اواخر السنة الغابرة

الى الان على قضايا تتعلق بامر المردة والجراجمة والموارنة فكان لسيادتكم فيها المقام الاول لانكم دونتم في سبيلها ثلاث مقالات ضافية الذيول عارضتم في الاولى منها راي حضرة الاب لامنس اليسوعي وفي الثانية راي حضرة الاب انستاس الكرملي وقد نشر كل ذلك في مجلة المشرق الشهيرة في حينه وفي الثالثة عارضتم الراي الذي خطر لنا وزففناه على حسن ظن الى العلماء المحققين في رسالة على حدة بادرتم الى نشر رسالة مثلها على حدة ردًا لرأينا المنوه عنه فاقدمنا نحن وان لم نعد نفسنا من رجال هذا المجال الى ابداء ملاحظاتنا على هذا الرد الاخير بوجيز الكلام فلم يرق لسيادتكم كلامنا فبادرتمونا لطفاً بهذه الرسالة الخاصة التي تقطر رقة فطالعنا بكل ارتياح ما جاء فيها من نفيس الكلام والبراهين الجديدة والملاحظات على كلامنا المشار اليه وامعنا النظر في كل ذلك فراينا ان جل المعتمد عليه في هذا الجدال انما هو القضية الاتية وهي « ان خيل الروم عند البلاذري هم غير المردة عند ثاوفان لاختلاف الظروف التي ترافق كل فريق منهما بحسب رواية كل من المؤرخين المذكورين » فنحن لا نحب ان نخوض مع سيادتكم في هذا الجدال احتراماً لمقامكم الرفيع ولكننا نستميح حلمكم في بيان ما يعن لنا في هذه القضية فقط التي هي على ما نرى اساس باقي القضايا التي توغلتم اعزكم الله في شرحها ومحاولة اثباتها . وبعد فنقول باذنكم . ان القضية التي نحاول اثباتها الان معارضة لتلك انما هي « ان خيل الروم عند البلاذري هم عين فرقة المردائيتي عند ثاوفان . ولا يعارض ذلك بعض الاختلاف في الظروف التي يرويها كل من المؤرخين المذكورين في امرهم »

وبيان ذلك من رد برهان سيادتكم الجديد للقضية الاولى : فقد قلتم اعزكم الله « وازيد هذه الحقيقة تاكيدًا ببرهانين قاطعين الاول ان خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري صرح انهم كانوا في ايام الخليفة عبد

الملك وساروا الى لبنان في ايامه والحال ان ثاوفان صرح بانهم كانوا بلبنان منذ ايام الخليفة معاوية واكرهوه على عقد صلح مع الملك قسطنطين اللحياني قبل تسع سنين من خلافة عبد الملك فاذاً لا يمكن خيل الروم هؤلاء ان يكونوا المردة الا ان يقال كانوا قبل ان يكونوا » قلنا : والحال ان خيل الروم كانوا ايضاً على عهد معاوية في جبل لبنان واضطروه الى عقد صلح كما اشار البلاذري نفسه فاذاً ....

بيان الصغرى قال البلاذري « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى جبل لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه ... واقتدى في صلحه بمعاوية ... فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك » فمن لا يرى ان قول البلاذري هذا « واقتدى عبد الملك في صلحه مع خيل الروم بمعاوية فانه صالح خيل الروم على مال يؤديه اليهم وارتهن منهم رهناء » انما يستدل منه على ان خيل الروم هؤلاء انفسهم كانوا بجبل لبنان على زمن معاوية ايضاً ؟ ومن لا يرى ايضاً ما توخاه البلاذري من الايجاز وان ايجازه هذا لا يخل اقل شيء بالمعنى حتى اذا فصل كلامه كالواجب في مثله دون تمحل يؤدي لا محالة الى مطابقة رواية ثاوفان في المردائيتي تماماً ؟ فقوله « فاضطر عبد الملك ان صالحهم » يستدل منه طبعاً ان خيل الروم ازعجوه باعمالهم العدوانية التي ذكرها ثاوفان حتى اضطروه الى طلب الصلح كما لا يعزب عن ذي بصيرة والا فما معنى قوله « فاضطر » وما الذي اضطره الى مصالحة خيل الروم وطاغيتهم ؟ والسبب الذي ذكره البلاذري وهو قوله « لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه » لم يكن كافياً ما لم يقدر ان خيل الروم ابدوا من البسالة في

حروبهم مع العرب ما جعل عبد الملك ان يحسب لهم حساباً ويلجأ الى الصلح . وكذلك قوله « ان معاوية صالحهم » يدل على سابق حروب هائلة بينهم وبينه اضطرته مع شغله بحرب اهل العراق الى عقد الصلح معهم فهذه الحروب التي لا بد من التسليم بها هي التي الم اليها ثاوفان عن المردائيتي ببعض التفصيل . اما قول البلاذري ان الخليفتين المشار اليهما قد صالحا خيل الروم وطاغية الروم الخ فهو كقول ثاوفان بانهما صالحا ملكي الروم لان مثل هذه الصلح انما تعقد بين ملكين لا بين ملك وجند مأمورين وانما طالب الصلح يتعاطى امر الهدنة مع قائد الجند المحارب حتى يكف عن الحرب الى ان تتم المخابرات بامر الصلح مع الملك . وهذا ما اراده البلاذري بقوله ان عبد الملك صالح اولاً خيل الروم ثم صالح طاغية الروم اي ملكهم كما بينا غير مرة . وعندنا في كل حال ان قول ثاوفان في معاطاة امر الصلحين مع ملكي الروم بسبب المردائيتي انما هو برهان جديد دامغ على ان هؤلاء المردائيتي ما كانوا الا جنوداً لملك الروم بحسب قضيتنا . والا كان اولى بالخليفة ان يتعاطى امر الصلح مع المردائيتي وعميدهم دون ان يلجأ الى مخابرة قسطنطينية بهذا الامر لان المردائيتي او المردة بحسب الراي المخالف هم مستقلون وانما خيل الروم هم المقيدون بالمملكة فكيف اذا سلمنا بهذا الراي نوفق هذا الامر ؟ ولذلك يحق لنا ان نستنتج ان خيل الروم وفرقة او خيل المردائيتي « كما يدعوهم ثاوفان مراراً » هم جيش واحد يتعلق امره بملك الروم وانما البلاذري روى عنه بايجاز ودون ترتيب ما عرفه عنه في مقامه وعن السنة الناس اما ثاوفان فانه روى عنه ببعض التفصيل ما عرفه عنه في قسطنطينية وهذا وجه اختلاف الرواية وهو غير جوهري لا سيما اذ تبرهن من جهات اخرى ان كلا الاسمين يدلان على قوم واحد بعينه . وقد تم لنا ذلك هنا فاننا بينا فيما بسطنا حتى الآن اتفاق تاريخ دخولهم الى جبل لبنان وحروبهم مع معاوية



وعبد الملك حتى اضطروهما الى عقد صلحين . ونزيد على ذلك اتفاق كلام البلاذري مع كلام ثاوفان في امرهم بعد دخولهم الى جبل لبنان مع اهله فقال ثاوفان « وضوى الى المردائيتي كثير من العبيد والاسرى والوطنيين» وقال البلاذري « وقد ضوت الى خيل الروم جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » فالجراجمة والانباط عند البلاذري هم الوطنيون عند ثاوفان . والعبيد الاباق عند الاول هم العبيد والاسرى عند الثاني . فاذاً ... والذي يدل على ان البلاذري يعتبر الوطنيين في جبل لبنان جراجمة هو قوله في ميمون الجرجماني « وانما نسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم »

والذي يزيد هذه المطابقة بين القولين قوّة هو ما ياتي من الجواب على برهان سيادتكم الثاني الذي اوردتموه بعد البرهان الذي نحن بصدده وهذا هو برهانكم الثاني بحروفه : قلتم اعزكم الله « والبرهان الثاني قد صرح البلاذري ان خيل الروم وضع عليهم عبد الملك بن المهاجر فكاد على قائدهم وقتله مع اصحابه وامن من ضووا اليهم فعادوا الى محلاتهم والحال ان المردة على ما صرح ثاوفان استمروا يسطون ويغزون الى ان اكرهوا عبد الملك على عقد صلح مع يوستنيانوس الاخرم واتفقا عليهم وابعدوا منهم اثني عشر الفاً فاذاً لا يمكن ان يكونوا المردة الا ان يقال انهم انبعثوا من قبورهم وعادوا الى الحرب »

فاسمحوا لنا ان نقول ان هذا البرهان لا يثبت على النقد : فانتم رعاكم الله ترون ان البلاذري روى ما كان عن امر سحيم بن المهاجر مع خيل الروم وقائدهم ومع من ضوى اليهم بعد رواية امر الصلح التي كان عقدها عبد الملك معهم او مع ملك الروم الذي كان في ذلك العهد فقولكم اذاً في الصغرى « والحال ان المردة استمروا يسطون ويغزون الى ان اكرهوا عبد الملك على عقد صلح مع يوستنيانوس الاخرم » لا يخالف

رواية البلاذري بالمعنى والظروف وقولكم « ان عبد الملك ويوستنيانوس بعد عقد الصلح اتفقا على المردة وابعدا اثني عشر الفاً منهم » اذا ظهر لاول وهلة انه يخالف قول البلاذري لان سحيماً بحسب روايته قد قتل الروم وقائدهم غيلةً وامن من ضوى اليهم وفرقهم فانه لا يخالفه جوهرياً بل عرضاً من حيث كيفية ملاشاة خيل الروم من جبل لبنان : فمن لا يرى من الغلو في كلام البلاذري ما لا ينطبق على معقول ? لانه كيف كان ممكناً اسحيم بن المهاجر ان يقتل خيل الروم وقائدها عن بكرة ابيهم غيلةً دون ان يمس من ضوى اليهم بسوء ? فكم كان يا ترى عدد خيل الروم ? وهل لم يكن من ضوى اليهم تحت امر قائدهم ايضاً ? فكيف اذاً كان حال خيل الروم والجراجمة والانباط والعبيد عند اغتيال سحيم لقائدهم فهل دافعوا عنه وعن ارواحهم ام استسلموا فوراً وطلبوا الامان ? فنحن والحق يقال لا يمكننا ان نفهم كيف تم ذلك لسحيم ولذلك لا يمكننا ان نسلم به ولكننا نرى ان خيل الروم وقائدهم بعد الصلح الاخيرة بين عبد الملك ويوستنيانوس التي المع اليها البلاذري بقوله انها عقدت مع خيل الروم وطاغيتهم قد انسحبوا (اي خيل الروم) من لبنان بامر مليكهم على ما روى ثاوفان وان ما وقع للبلاذري في هذه الرواية الغير المعقولة وقع لغيره من مؤرخي العرب في غيرها فالقوا الكلام على عواهنه في حوادث شتى رووها بحسب اغراضهم معرضين عن الحقيقة او غير مدققين في صحة روايتها وعدمها وهذا يسلم به كل من له المام بالتاريخ : ومع هذا فما قول سيادتكم في اتفاق تاريخ هذه الحادثة مع تاريخ الصلح بين عبد الملك ويوستنيانوس واخراج المردة من جبل لبنان ? ودونكم تطبيق ذلك : قال البلاذري بعد رواية مصالحة عبد الملك لخيل الروم وطاغيتهم « ووافق ذلك ايضاً طلب عمرو بن سعيد بن العاص الخلافة واغلاقه ابواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلاً وذلك في سنة سبعين » فهذه

السنة الهجرية توافق سنة ٦٨٩ المسيحية وسيادتكم تعلمون ان يوستنيانوس الاخرم انما تولى الملك في سنة ٦٨٦ وان الصلح الاخيرة التي كان من شروطها اخراج المردة من جبل لبنان انما عقدت بين عبد الملك ويوستنيانوس في اوائل ملك الاخير وقد قال ثاوفان انه لصغر سنه اذ ذاك قد خدعه العرب على ذلك . وقال ايضاً ثاوفان ما مؤداه ان عبد الملك بن مروان كان عول على تجديد عهد الصلح التي كان عقدها معاوية وتعاطى الامر مع قسطنطين ملك الروم وفي هذه الغضون مات قسطنطين وخلفه ابنه يوستنيانوس وهو بسن ست عشرة سنة نخابره عبد الملك في امر هذه الصلح واتفقا معاً على عقدها وكان من شروطها اخراج المردائيين من جبل لبنان . فهل يا ترى كان في جبل لبنان في عصر واحد بعينه خيل الروم وعليها قائد من قوادهم وقد ضوى اليها جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين وقد حاربوا معاوية حتى اضطروه الى عقد صلح معه وقد حاربوا عبد الملك حتى اضطروه ايضاً الى عقد صلح اخرى معهم ومع طاغيتهم وقتلهم باسرهم بعد هذه الصلح خدعةً ؟ وكان ايضاً فيه قوم يقال لهم المردة ضوى اليهم كثير من العبيد والاسرى ومن الوطنيين وحاربوا هم ايضاً معاوية حتى اضطروه الى عقد صلح مع قسطنطين اللحياني ثم حاربوا عبد الملك حتى اضطروه ايضاً الى عقد صلح اخرى مع يوستنيانوس الاخرم واخرجهم هذا الاخير من جبل لبنان الى بمفيلية قياماً بشرط هذه الصلح الاخيرة ؟ لعمري ان هذا لا يسلم به ذو لب ولا نخال سيادتكم الا وافقين نظيرنا عند هذه الملاحظة المهمة التي حملتنا والحق اولى بالاتباع على مخالفة من سلف وما وصل الينا من التقليدات التي لا مستند لها ولا يحق ان تسمى تقليدات وهي لا تتجاوز تسلسلاً زمن تلامذة مدرستنا الرومانية . وان رايتم غير ذلك فتفضلوا اثابكم الله وبينوا لنا غير مامورين الى اي حد يبلغ هذا التقليد الذي تتمسكون به

وتجعلونه برهاناً قاطعاً على ان المردة هم عين الموارنة : اما نحن فقد طالعنا بعض اقوال ابن القلاعي ولم نعثر على شيء مما يشير الى ذلك ووقفنا على ما رواه العلامة الدويهي من كتب السلف ولم نشتم منه ما يشير اليه مع قطع النظر عن صحة هذه الروايات وعدمها تاريخياً . ورأينا العلامة الحاقلاني يقول بخلاف ما ذهب اليه سواه من تلامذة رومية اي « ان هؤلاء المردة او المردائيتي انما هم من قبيلة مراد وهي بطن من كهلان في اليمن » فاين هذا من تقليداتنا بان المردة هم الموارنة وقد دعوا بهذا الاسم لانهم تمردوا على ملوك قسطنطينية ؟ فعلى اي ملك تمردوا وهل كان تمردهم بسبب المذهب الديني كما قال بعض علمائنا ام بسبب الغرض المدني كما يرجح العلامة السمعاني ؟ فان كان الاول يلزم ان يكونوا تمردوا على الملك قسطنطين اللحياني الذي ظهروا في ايامه بهذا الاسم وهذا كان مستقيم العقيدة شديد الغيرة على الدين القويم وقد عقد المجمع السادس ضد اشياع مذهب المشيئة الواحدة فينتج عن ذلك ما لا يرضى به كل ماروني وهو ان الموارنة كانوا مناصرين هذا المذهب والعياذ بالله : وان كان الثاني فما كان غرضهم المدني وكيف كانوا يناصرون ملك الروم حتى اضطروا العرب الى عقد صلحين معهم وكيف انقادوا لامر الملك الغر وخرجوا من لبنان اثني عشر الفاً لاول اشارة منه ؟

فاولى اذاً بذي الحجى نظير سيادتكم اعزكم الله ان يعدل عن هذا الراي الذي لا مستند له وهو لا يزيد الموارنة قيمة وفخراً بل ربما كان برهاناً على اتباعهم مذهب المشيئة الواحدة ضد الملك قسطنطين اللحياني والمجمع السادس كما لا يغرب

هذا واسمحوا لنا ايضاً ان نبدي ملاحظة اخرى هنا على سيادتكم في بعض كلامكم في رسالة الرد على القسم الثاني من بحثنا الاول (ص٨) فانكم قد صوبتم براهيننا في القسم الاول منه وعدتم تبنون على قولكم

« ان الجراجمة ليسوا المردة بل شركاهم في غزواتهم ونصراهم واخوانهم معتقداً ونزعةً وجامعة الفريقين المارونية » الا ترون حرسكم الله انكم بهذه القضية الجديدة خالفتم راي علماء الموارنة وتقليداتهم التي اشرتم اليها ؟ فان المعروف حتى الان من راي علمائنا ان الموارنة تمردوا على الملك بخلاف الملكية الذين والوه ولذلك دعي الاولون مردة حتى صار هذا الاسم صفة لكل ماروني قامت مقام الموصوف بحيث يصلح ان يقال ان كل ماروني متمرد اي من المردة وبالعكس فكيف يكون اذاً الجراجمة موارنة ولا يكونون مردة مع انهم كانوا نصراءهم وشركاءهم واخوانهم معتقداً ونزعةً ؟ فلا يصح ذلك اذاً لا من الوجه الديني ولا من الوجه المدني اللذين قال علماء الموارنة ان امتهم دعيت (مردة) لاجل احدهما : فيظهر والحالة هذه ان سيادتكم تعتبر لفظة مردة واصلها غير ما يعتبره علماؤنا حتى يصح هذا القول الجديد . فتفضلوا اذاً علينا بشرحه وبيانه او ببيان المقصود من هذه القضية الجديدة . انتهى

وهذه عجالة في هذا الباب نزفها الى معالي سيادتكم مشفوعة بالاعتذار ونحن نرجو من كرمكم ان تغضوا عن جسارتنا فيها طرفاً وتحملوها على حسن نية وقوام قصد فان ما اوليتمونا من الدالة والحرية جرأنا على تحبيرها وتقديمها ونحن نؤكد لسيادتكم دوام حبنا واعتبارنا ونسال الله ان يثيبكم عنا ويحرسكم بعين عنايته من طوارق الحدثان بمنه وكرمه في ٢٧ ك ١ سنة ١٩٠٣

الداعي اخوكم

المطران يوسف دريان

النائب البطريركي

هذا وقد اوهم سيادة المشار اليه في هذه الخاتمة عند الماعه الى هذا انه رد كلامنا على برهانه الاول بقوله ما حكايته « فاجبته على هذا برسالتي الثانية له مبيناً المغالطة الواقعة في كلام سيادته بجعله الضمير في صالحهم

عائداً على خيل الروم وهو في الواقع وكلام البلاذري عائد على الروم على حد عبارته الاولى وهي خرجت خيل الروم وعليهم قائد من قوادهم اي من قواد الروم فقوله اذاً صالح طاغية الروم واقتدى بمعاوية فانه صالحهم على مال فالضمير في صالحهم لا يعود على خيل الروم بل على الروم انفسهم وهذا ظاهر والبلاذري لم يذكر خيل الروم الا فيما استشهده به سيادة المعارض »

فملاحظة سيادته هذه وان ظهرت لاول وهلة مما يجب ان يحل محل الاعتبار فان الناقد البصير الذي يسعى في طلب الحقيقة من معادنها يرى ضعفها بادنى تبصر. فمن لا يرى ان عبارة البلاذري هذه اي « واقتدى عبد الملك في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً » وهي نظير عبارته السابقة وهي « فاضطر عبدالملك ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه » ؟ ونحن نرى ان الضمير في قوله « صالحهم » اولاً وثانياً يعود الى خيل الروم بلا محالة والا لم يكن لكلامه من معنىً معقول لان لفظة « روم » في هذه الفقرة كلها ليست ركناً في الكلام وانما هي مضاف اليه تفريقاً للمضاف الذي انما هو الركن كما لا يغرب عن كل من له المام في اساليب الكلام واصوله: ثم اي معنى لقول البلاذري هنا بان عبد الملك « اقتدى في صلحه بمعاوية » اذا كان معاوية صالح الروم وهم دولة كبيرة مهمة يخشى شرها وعبد الملك صالح خيلاً للروم فقط وهم شرذمة قليلة لم تحارب العرب حرباً منظمة بل اقتصرت على ما يظهر من كلام ثاوفان نفسه على غزو اهل جوارهم واخذهم غيلةً والخلفاء مشغولون عنهم في امور اهم ؟ وكل من راجع تواريخ تلك الفترة يرى ان الخلفاء كانوا اذ ذاك في منتهى عزهم وصولتهم بالنظر الى الخارجين وانما كانوا مشغولين في امور داخلية محضة حملتهم على مثل هذه السياسة مع حامية جبل لبنان

وجبل اللكام . ومع ذلك فنحن لا نصر على هذا لانه مما يحتاج الى مراجعات طويلة ولكننا نريد ان نبين ان الضمير في قول البلاذري «صالحهم معاوية» يرجع الى خيل الروم الذين يتكلم عنهم دون سواهم من كلامه نفسه حيث قال ما حرفه « فانه (اي معاوية) صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك » فممن ارتهن معاوية الرهناء الذين وضعهم ببعلبك أمن الروم على عمومهم او من خيل الروم الذين بلبنان ؟ فان قيل من الروم يجب ان يبين لنا عن تاريخ صحيح ما يشير الى ذلك بما يوافق هذا الكلام المجمل ويفسره والاّ فما الحاجة الى الافتراض والكلام صريح لا يحتاج الى تمحل وتخريج وهو يوافق تمام الموافقة كلام ثاوفان المؤرخ الرومي ولا سيما عند قوله بان عبد الملك عول على تجديد عهد الصلح الذي كان عقده معاوية قبله وسعى لذلك مع قسطنطين الملك كما روينا في جوابنا آنفاً فكانه يقول بعبارة ثانية ما اراده البلاذري بقوله « واقتدى في صلحه بمعاوية » كما يرى المتامل ولندع الحكم في ذلك لاهل التحقيق :

ومع ذلك فهب اننا سلمنا لسيادته بان الضمير في قوله « صالحهم » يرجع الى الروم لا الى خيل الروم فلا نرى من ذلك ما يعاكس قضيتنا لان معاوية بحسب رواية ثاوفان انما صالح ملك الروم لا المردائيتي كما لا يغرب وانما الضرورة تستدعي ان يكون معاوية تعاطى معهم امر الهدنة اولاً ولذلك ارتهن منهم رهناء الى ان يكون اتم الصلح الحقيقية مع الملك

ثم اوهم سيادة المشار اليه ايضاً انه رد كلامنا في هذا الجواب عينه على برهانه الثاني بقوله في المحل نفسه ما حكايته « واما على البرهان الثاني من البرهانين المذكورين فذكر سيادته في رسالته الموجهة الينا كلاماً مسهباً لكنه لا يمس برهاننا شيئاً وجل ما حواه شكواه من الغلو في كلام البلاذري وقوله فيه انه لا ينطبق على معقول وعابه بانه يلقي الكلام على

عواهنه » اما نحن فلا نرى من لزوم لبيان ضعف هـذا الكلام بعد ان اثبتنا جوابنا على برهاني سيادته بل ندع الحكم في ذلك ايضاً لاهل النقد والتحقيق وهم اولى بان ينظروا فيما اذا كان ردنا المنوه عنه لا يمس برهانه كما اراد اعزه الله بهذا الكلام المقتضب ٠

هذا وقد وجهنا الى سيادته اسئلة في جوابنا الذي اثبتناه هنـا كنا نود ان يجاوبنا عليها دفعاً لما يعثور قضيته التي يدافع عنها من المشاكل ويصدر عنها من النتائج التي لا يسلم بها لا هو ولا كل الطائفة المارونيـة فكان عليه ان يوفق بين رايه وبينها بطرق معقولة ومقبولة عند اهل البحث لئلا يكون كمن يدافع عن قضيتين متناقضتين كما يرى المتامل٠ فتراه مع ذلك اضرب عن تلك الاسئلة والاعتراضات كانها شيء لا يعتد به ولا يلتفت اليه مع انها على ما نرى و يرى كل منصف اهم كثيراً عند الموارنة وعلمائهم من قضيته بان المردة منهم او بانهم من المردة وهذا الذي يحملنا على المدافعة عن راينا الذي نحن بصدده ولولا حب الاختصار وتضييق حلبة هذا المجال في الجدال لاستفضنا في بيان كل النتائج التي تنجم عن الاصرار على الراي المخالف مما لا يمكن ان يمهد ببرهان عند العلماء

ثم ان سيادة المعارض الجليل قد جاءنا في هذه الخاتمة ببرهانين جديدين قال انه يراهما قاطعين « بان المردة لم يكونوا عسكراً لاحد ملوك الروم » فراجعناهما تكراراً وامعنا النظر فيهما فوجدناهما مع الاسف اضعف من كل ما سبقهما لانهما مبنيين على الوهم لا على الحقيقة وهذا البرهان الاول منهما بحروفه قال اعزه الله « انهم لو كانوا كذلك (اي عسكراً لاحد ملوك الروم) وقد ضبطوا كل ما كان من الجليل الى جبل اللكام وانطاكية وتركوا كل هذه البلاد الى ارمينية الرابعـة خراباً كما صرح ثاوفان لاستحوذ ملوك الروم على سورية وقلبوا حكومة العرب منها واي عائق من تقوية جنودهم هؤلاء بنجدة بحرية او برية واسترداد سورية والحال

انه لم يكن شيء من ذلك »

فكأن سيادته لكثرة مشاغله لم يراجع كلام ثاوفان الذي يعتمد عليه في برهانه هذا . اما نحن فراجعناه ولم نجد فيه شيئاً مما يشير الى ان المردائيين استولوا على انطاكية وما بعدها وتركوا كل هذه البلاد التي استولوا عليها الى ارمينية الرابعة خراباً . وجل ما هناك انهم استولوا على كل ما كان من المدينة المقدسة حتى جبل اللكام ولبس الا . فهذا يا ترى يسوّغ ما استنتجه من هذه الرواية الموهومة ؟ ونحن نرى ان في هذه الرواية التي رواها ثاوفان ايضاً بعض الغلو لاننا لا نعتقد ان هؤلاء المردائيين تجاوزوا حدود لبنان من الجنوب ولا جبل اللكام من الشمال بل انهم لم يستطيعوا ان يجعلوا مقامهم مع من ضوى اليهم من الجراجمة وغيرهم الا في نفس جبل لبنان كما يرى المتامل في كلام ثاوفان وفي كلام البلاذري لان كل تواريخ تلك الايام لم تذكر اقل شيء عن استرجاع اورشليم والجليل من العرب . ومع ذلك فليس هذا من موضوع بحثنا الان فنتجاوز عنه .

اما البرهان الثاني فاننا نراه اوهن من الاول وهـذا هو بحروفه « لا شك ان معاوية عقد صلحاً مع الملك قسطنطين اللحياني على صد غزوات هؤلاء المردة ولاشك انهم استمروا على غزواتهم الى ايام الخليفة عبد الملك ويوستنيانوس الاخرم فلو كانوا جنوداً لملك الروم لجلاهم حالاً عن سورية بحكم عقد الصلح وهذا ظاهر »

ووجه ضعف هذا البرهان اظهر لكل ذي بصيرة لانه لو لم يكن المردائيين من جنود ملك الروم المقيدين بامره لما اضطر معاوية الى عقد الصلح مع ملك الروم وقد قال ثاوفان انهم هم الذين اضطروه الى ذلك بل كان عقده معهم راساً وهم اقرب اليه من ملك الروم ولم يكونوا ليقتضوا منه ما اقتضاه هذا من الشروط الثقيلة . ولما كان جعل من شروط هذه

الصلح كفّ المردائيين عن غزواتهم واي قوة لملك الروم عليهم وهم بعيدون عن حدود مملكته في تلك الايام بعداً شاسعاً بل هم في نصف سورية التي كانت كلها خاضعة اذ ذاك للعرب ؟ فلينصف المنصفون .

اما قول سيادته بانهم استمروا على غزواتهم الى ايام الخليفة عبد الملك ويوستنيانوس الاخرم فهذا غير صريح في ثاوفان ومع ذلك لا نرى فيه من برهان على انهم لم يكونوا خاضعين لملك الروم والا كيف استطاع يوستنيانوس الملك ان يُجليهم عن لبنان مع ان والده الملك قسطنطين اللحياني وهو اشد منه واحكم قد عجز عن ذلك كما يريد سيادته ؟

والصحيح ان قسطنطين الملك لم يعجز عن هذا الامر الذي لم يحاوله بوجه من الوجوه لانه لم يذكر لا ثاوفان ولا غيره ان قد كان من شروط الصلح التي عقدت بين هذا الملك الجليل الشان وبين معاوية ان يجلي المردائيين من لبنان لانه بحسب راينا هو الذي كان ارسلهم اليه لاشغال العرب عن مملكته ولهذا سفَّه ثاوفان راي يوستنيانوس ابنه ووصفه بالغرور والانخداع لحيلة العرب لانه سلم لهم بسحب المردائيين من لبنان ووصف هؤلاء بالسور الحصين للمملكة الرومانية وما يزيد ذلك رسوخاً قول ثاوفان نفسه عند اول ذكره دخول المردائيين الى جبل لبنان بتاريخ سنة ٦٦٩ للمسيح (وهي في الحقيقة سنة ٦٧٧) وابتدائهم بشن الغارات على ما جاور لبنان ما مؤداه « واعتقد معاوية واركانه ان المملكة الرومانية محروسة بالعناية الالهية » فكيف ساغ لمعاوية ان يقول ذلك في المملكة الرومانية اذا كان المردائيين يحاربون عن انفسهم ويذودون عن حياضهم فقط وليس لهم من علاقة مع هذه المملكة ؟

وبعد ذلك من تراه لا يستغرب قول سيادته بعد هذا البرهان الثاني وهو « ثم ان كلام ثاوفان وباقي مؤرخي الروم مشعر جلياً بان المردة سكان في البلاد لا عسكر لملك الروم فترى معاوية شرط صد غزوات

المردة او رد غاراتهم ولو كانوا عسكرًا لشرط جلاء هذا العسكر من بلاده كما هو ظاهر »

ان كل من تتبع هذا الجدال من اوله يرى لا محالة غير الذي قاله سيادته في اول هذه الفقرة من ان كلام ثاوفان « مشعر جليـاً بان المردة سكان في البلاد لاننا بينا نحن وسوانا فيه كيف ان كلام ثاوفان وسواه من مؤرخي الروم والعرب ايضاً يصرح بالعكس اي ان المردائيتي او خيل الروم انما دخلوا لبنان من الخارج وانضم اليهم الوطنيون فلا حاجة والحالة هذه الى المراجعة لنقض هذا الكلام بل ندعه لحكم المحققين ٠

اما قوله بان معاوية اشترط في الصلح ضد غزوات المردة ولو كانوا عسكرًا لاشترط جلاءهم عن بلاده فهو لا يستحق الرد لا سيما ويعارضه كون عبد الملك قد اشترط جلاءهم فينتج عنه على راي سيادته انهم عسكر ٠

وقد قال حرسه الله قبيل ذلك ما حكايته « وزد على ذلك ان الخلفاء كانوا قد استحوذوا حينئذ على كل مدن سورية فكيف يمكن عسكرًا لملك الروم ان يدخل في قلبها ويغزو سهولها وجبالها ويبقى على ذلك سنين »

فهذا الكلام قد سبقه اليه حضرة العلامة دي غوبرناتيس في مقالته عن المردة والموارنة التي نشرنا درسنا عليها في ١٠ كانون الاول من السنة الغابرة وهناك بينا كيف كان ذلك ممكناً فلا حاجة الى المراجعة ٠ وقد وضعنا هذا الدرس هنا في القسم الرابع من هذه الطبعة الجديدة المصححة وهو الاتي بعد هذا القسم فمن الاطلاع عليه غنى ٠

وهذا اخر ما راينا نشره واجباً في هذه العجالة ضناً بشرف الحقيقة وتكملةً لبحثنا في امر هذه القضية والله اعلم وهو الموفق الى الصواب فله المجد الى ابد الدهر امين

القسم الرابع

في بيان اصل المردئين وزمان دخولهم

الى جبل لبنان

اننا نرانا قد استوفينا الكلام في بيان كون المردائيتي اي المردئين والمردة ليسوا الموارنة سكان جبل لبنان ولا الجراجمة سكان جبل اللكام وقد بينا ايضاً بوجه الاستنتاج ان اسم هؤلاء المردئين لم يكن سرياني الاصل مشتقاً من فعل ܡܪܕ عندهم الذي معناه « عصى وتمرّد » كما زعم بعض العلماء : ولذلك كان من الواجب لاجل تكملة هذا البحث ان يصير النظر في اصل لفظة « مردائيتي » التي اول من استعملها بين المؤرخين الذين وصلت الينا آثارهم كعلم لفئة من الناس كانت بجبل لبنان ثم رحلت عنه في اواخر القرن السابع للميلاد انما هو ثاوفان المؤرخ الرومي الذي قال انهم اتوا لبنان من الخارج كما اوضحنا فيما سلف . وقد اخذها عنه على ما يظهر كل المؤرخين والكتبة الذين اتوا بعده وذكروا تاريخ هذه الحادثة نفسها من يونان ولاتين وغيرهم .

وقد علمت ان العلامة الحافلاني قد ارتأى ان هؤلاء المردائيتي هم من قبيلة مراد التي هي بطن من كهلان في اليمن وقد مرّ بك في اول القسم الثالث من هذا البحث ما قاله حضرة الاب انستاس الكرملي في اصل امة من الامم المادوية كانت تنزل بالسيف الجنوبي من بحر قزوين بين جيلان غرباً والطافورة شرقاً وان بلادها هو تقريباً مازندان الحالية (اي بين بلاد جيلان وطبرستان) وان اسم هذه الامة بالمادوية «مردان»

(على الجمع) اي الابطال المغاوير وواحده « مرد » وهي قديمة العهد عرفت بهذا الاسم قبل المسيح . ويظهر من كلامه هنا ان اسم هؤلاء المردة ماخوذ من اسم هذه الامة بوجه الاستعارة لانه كان يعتقد ان ثاوفان انما دعا الجراجمة سكان جبل اللكام بهذا الاسم لنكتة بديعية تاريخية كما رأيت .

ثم اننا من بعد توغلنا في هذا البحث قد وقفنا على مقالة حديثة كتبت باللغة الايتالية ونشرت في احدى مجلات ايتالية المعتبرة بتاريخ ١٦ تموز سنة ١٩٠٣ الخالية ثم في كراس على حدة تحت عنوان « المردائيتي والموارنة » وهي لحضرة العلامة التاريخي النحرير السنيور دي غوبرناتيس الذي كنا عرفناه من عهد غير بعيد في بيروت بصفة قنصل عام في سورية لدولة ايتاليا الفخيمة . فطالعنا هذه المقالة برغبة وامعان لانها وافقت ما نحن دائبون في دراسته . واذا فيها راي هذا العلامة في اصل هؤلاء المردائيتي وزمان دخولهم الى لبنان واسبابه . فقال في ذلك ما خلاصته :

« ان هؤلاء المردائيتي انما هم من قبيلة المردبين الذين منشأهم بين حدود ارمينية وفارس وقد اتى بهم الى لبنان كسرى الثاني ملك الفرس بعد ان فتح سورية بين سنة ٦١٠ وسنة ٦١٣ ليدوخ بهم اللبنانيين ويكسر شوكتهم ويأمن اذاهم و يستولي على سواحل البحر براحة بال . ولقد فعلوا ولكنهم بعد تغلبهم على اللبنانيين المذكورين واحتلالهم بلادهم عنوةً امتزجوا بهم والفوهم وبقوا معهم على هذا الحال حتى استرجع هرقل ملك الروم سورية من يد الفرس في سنة ٦٢٨ وعقد الصلح معهم على شرط ان يخرج من سورية كل فارسي و يلحق بقومه . ففضل المردبون المذكورون ان يستمروا في لبنان ولذلك قد خضعوا للروم وحالفوهم على ان يقوموا هم واللبنانيون الاصليون بحماية الثغور والحدود كما كان يفعل من قبلهم جنود كانت تعرف باللبنانية اقامها قسطنطين الكبير او ثاودوسيوس

بعده في هذا الجبل لهذه الغاية نفسها . وعند ما اخذ العرب يفتحون سورية منذ سنة ٦٣٤ واستولوا عليها كلها حتي عهد قسطنطين اللحياني ظهر هؤلاء اللبنانيون جميعاً تحت اسم المردييّن واخذوا يناصبونهم القتال حتى اشتهروا بغزواتهم ومضايقاتهم للعرب وكان ما كان من امرهم على ما ذكر ثاوفان المؤرخ الرومي الذي ظن انهم دخلوا لبنان في هذه الفترة التي اشتهروا فيها فقال في روايته المشهورة بدخولهم اذ ذاك دون ان يدقق في امرهم واصلهم . والا فليس من المعقول ان تدخل هذه الشرذمة الى لبنان في عهد معاوية وهو في منتهى عزه وصولته وبهرة فتوحاته المستغربة حتى بلغ من امره ان شدد الحصار على قسطنطينية وكاد يفتحها عنوةً »

وقد صرح صاحب هذا الراي الجديد بانه انما يبني قضيته هذه على محض افتراض مبرهن بالاثار التاريخية حتى يكاد يكون حقيقة ماثورة . وقد استفاض في بيان صحة رايه المفترض مستنداً الى تواريخ مقررة سبقت هذا العصر مما يتعلق باحوال سكان جبل لبنان تجاه مملكة الروم وباحوال سورية بعد ذلك وفتحها من الفرس ثم استردادها من هرقل ملك الروم حتى اتى بعد تقرير هذا الراي الى بيان اصل قبيلة المردييّن ووطنها ولغتها وديانتها بما لا يخلو من كبير فائدة وكل ذلك مما دلنا على سعة اطلاع هذا الكاتب المجيد وحصافة عقله وعلو كعبه بين المحققين من علماء التاريخ في هذا العصر

اما نحن فمع اعجابنا بهذه المقالة النفيسة وكثرة ما فيها من الفوائد على صغرها لم يستهونا هذا الراي ولم يرق لنا من حيث مايتعلق بزمان دخول هؤلاء المردييّن الى جبل لبنان لما فيه من التعسف والتمحل . ولكنه جاء على وفق ما في خاطرنا من حيث تقرير اصل المردائيتي المذكورين لانه اقرب الى الصواب ويرتاح اليه العقل السليم . ولما كان كلام هذا العلامة مترعاً بالفوائد التاريخية النفيسة مما يخص تاريخ هذا الجبل

المبارك وفيه فضلاً عن ذلك ما يزيد قضيتنا رسوخاً ومنه يتقرر ايضا اصل هؤلاء المردائيتي او المردة باجلى بيان آثرنا والحالة هذه ان نثبته كله هنا مع ما عنّ لنا من الملاحظات على كل فقرة منه مما يتعلق بالقسم الاول من قضيته الذي مؤداه ان هؤلاء المردبين قد اتى بهم الى لبنان كسرى الثاني الخ. وبعد ان نبطل استنتاجاته في هذا الشان نقرر ان شاء الله راينا الذي نعول عليه بهذا المعنى. ثم نثبت اخيرًا ما رواه هـذا العلامة عن اصل هؤلاء المردبين. وعليه فنقول وبالله المستعان :

ان حضرة العلامة دي غوبرناتيس بعد ان لخص راي علماء الموارنة في امر مردة لبنان وبين بوجيز الكلام عدم ثباته على النقد والتحقيق لما فيه من المناقضات التاريخية والتقديرات التي لا قيمة لها عند العلماء لعدم وجود ما يسوّغها في التاريخ الصحيح فقد صرّح بمخالفته هذا الراي الضعيف ومال بكليته الى القول بان المردائيتي الذين ذكرهم ثاوفان ومن اخذ عنه هم في الحقيقة غير الموارنة بل لا علاقة لهم بهذه الامة ولذلك لا يمكن ان يكون اسمهم مشتقاً من التمرد كما اراد علماء الموارنة اذ ليس لذلك من مستند تاريخي يركن اليه بل بالعكس لان الملك قسطنطين اللحياني الذي ظهروا على عهده بهذا الاسم انما كان مستقيم الايمان كما هو مشهور ولم يتمرد عليه اهل جبل لبنان بل والوه ونصروه على العرب كما يتحصل من كلام ثوفان نفسه.

ومن بعد ان قرر ذلك استطرق الى السؤال الاتي وهو « من هم اذًا المردائيتي ومن اين اتوا ؟ » ثم اردف هذا السؤال بقوله « ان ثوفان يذكر انهم دخلوا لبنان في سنة ٦٦٧ واستولوا على كل ما هو من انطاكية الى اورشليم فيجب من ثم ان يكون كلامه في شعب مسيحي شاكي السلاح . ولكن كيف يتوقع هذا ومعاوية اذ ذاك في بحبوحة مجده وشوكته ؟ وليس من هذا القبيل قول ابي الفداء وغيره من مؤرخي

العرب فيه بانه انما كان ميالاً للنصارى . لان التسامح معهم في امر دينهم شيء والسماح لشعب مسلح بان يستولي على قسم من مملكته شيء آخر : وقد يجاوب على هذا بان معاوية كان حينئذ مشغولاً جداً في حصار قسطنطينية الذي باشره منذ سنة ٦٧٢ ودخل المردائيتي لبنان من بعد وضعه بخمس سنوات ولذلك قد اتفق ظهور قوتهم مع رفع الحصار المذكور والصلح المجحفة التي عقدها معاوية مع الروم . وبالواقع فان مؤرخي الروم ينسبون رفع الحصار وعقد الصلح على ما ذكر لاعمال المردائيتي العدوانية . ولكن سنرجع فيما يلي الى هذا الموضوع أما ما احب ان اشرح الان انما هو كيف ان شعباً كاملاً شاكي السلاح مجهولاً الى ذاك الحين قد استطاع دون علم الخليفة الذي كان في بحبوحة عزه ان يدخل لبنان ويملأه على سعته بل يتجاوزه ايضاً بعساكره ويجعل نفسه عبئاً على معاوية حتى يضطره الى عقد صلح مهينة » انتهى كلام الكاتب المجيد .

والذي نراه نحن في هذه الفقرة من كلامه انه غير مصيب في ما ابداه من الريب في امر دخول المردائيتي الى لبنان في الوقت الذي عينه ثاوفان كما روينا ولربما كان محل لهذا الريب لو لم يظهر البلاذري المؤرخ العربي (وهو احق بالتصديق فيما كتب عن قومه وبلاده) فزال كل مجال لهذا الارتياب واثبت صحة رواية ثاوفان بقوله :

« خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم وصارت الى جبل لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً » فقوله « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام . . . ثم صارت الى جبل لبنان »

يثبت قول ثاوفان « دخل المردة لبنان » وقوله « ان معاوية اضطر ان يصالحهم قبل عبد الملك لشغله بحرب اهل العراق » يدل على ان دخولهم لبنان كان في ايام معاويـة كما روى ثاوفان وعلى ان معاوية كان مشغولاً اذ ذاك بحرب اهل العراق ولم يكن في منتهى عزه ولا مشغولاً بحصار قسطنطينية ولا انه ترك حصارها بسبب مضايقتهم له بغزواتهم والا لكان المؤرخان العربي والرومي ذكرا شيئاً مما يشير الى ذلك لمكان اهميته . فاذاً لا محل لمثل هذا الريب في صحة قول ثاوفان ولا لمثل هذه الافتراضات كما يرى المتامل . بل يجب بعد الوقوف على كلام البلاذري هذا ان تؤخذ رواية ثاوفان على ظاهرها دون تحويل او تفسير .

ثم قال العلامة دي غوبرناتيس بعد الفقرة التي رويناها آنفاً « فمن اين اذاً اتى المردائيتي ؟ ومَن كانوا ؟ انهم مسيحيون ارثوذكسيون كما يراد ولكن لا يمكن ان يعدوا متمردين على المملكة لان قسطنطين اللحياني كان ايضاً ارثوذكسياً . ثم لا يمكن ان يكونوا هربوا من اضطهاد العرب لانه على عهد معاوية لم يكن من اضطهاد على النصارى . فلم اذاً ومن اين رحلوا وليس من خطر يهددهم والمخاوف التي سببتها فتوحات العرب البديهية منذ سنة ٦٣٤ قد انقضت ؟ انه لمن المؤكد ان اسمهم ظهر اولا في هذا الزمان وقد ظهر في لبنان . ولما كان كل ماض لهم مما سبق هذا العهد مجهولاً عندنا يلوح لي ان رواية ثاوفان يجب ان تشرح كما يلي في هذا العام نهض المردائيتي الذين كانوا دخلوا لبنان فاخذوا يدوخون البلاد شيئاً فشيئاً من جبل الالكام الى اورشليم واستولوا على قمم لبنان العالية » وهذا مؤداه اذا عدلنا ما في هذه العبارة من الغلو ان المردة الذين لم يكونوا معروفين كثيراً قد شرعوا في سنة ٦٧٧ يشهرون اسمهم باعمالهم حتى اضطروا عبد الملك بعد ثماني سنين ان يطلب من يوستنيانوس الثاني ابعادهم من لبنان وان يجدد عقد الصلح بشروط غير حسنة . وثاوفان

كان يعلم ان لبنان كان مأهولاً بالمردائيتي ولكنه كان يجهل على الاغلب زمن دخولهم فيه ولهذا افترض ان دخولهم وافق زمن اشتهار اسمهم » انتهى

والذي سوغ لحضرة الكاتب تقدير هـذا الشرح لعبارة ثاوفان هو ما رواه في اول مقالته التي نحن بصددها قال رعاه الله « فلنتفحص قبل كل شيء شهادة ثاوفان التي هي اقدم مستند في امر هذا الشعب · فثاوفان ينهي تاريخه في سنة ٨١٣ وقد ولد في ٧٥١ فيكون بينه وبين الزمان الذي فيه نقل يوستنيانوس الثاني هوءلاء المردائيتي الى ارمينية اقل من قرن » ثم روى كلام ثاوفان بحرفه واردفه بكلام قدرينوس الذي جاء بعد ثاوفان باربعة قرون واخذ عنه هو وزوناراس فكان الاعتبار الاول لشهادة ثاوفان الذي هو اول من روى هذه الرواية ثم قال « اما هـذه الشهادة فقد اضعفتها حقيقة شهادة القديس نيقيفور القسطنطيني وهو كاتب ثقة ولد سنة ٧٥٠ وتوفي سنة ٨٢٨ وتاريخـه « في الامور التي جرت بعد موريق » ينتهي عند سنة ٧٦٩ وهو يحتوي تاريخ مائة وستين سنة · واليك ما قال هذا الموءرخ في عهد يوستنيانوس الثاني عن الاصل اليوناني : وذلك قد حمله (اي يوستنيانوس) على حل الصلح التي كان عقدها والده مع العرب ولهذا استجلب من لبنان الحامية العسكريـة التي كانت وضعت فيه من زمن قديم » وقال حضرة الكاتب البارع بعد هذه الشهادة ما ياتي « فهنا اذاً محل للريب في رواية ثوفان او على الاقل من حيث المعنى الذي انتحله الموارنة من ذلك الى اليوم وقبلناه بلا فحص عما اذا كان يوافق الحقيقة » انتهى كلام صاحب المقالة المذكورة ·

اما نحن فلا نرى من مسوغ حقيقي لتقدير هذا الشرح لكلام ثوفان ولا للقول بان ثوفان كان يعلم ان لبنان كان ماهولاً بالمردائيتي ولكنه كان يجهل على الاغلب زمان دخولهم فيه ولهذا افترض ان دخولهم وافق

زمن اشتهار اسمهم كما قال العلامة غوبرناتيس على ما روينا لان كلام ثاوفان صريح جداً بان المردائيتي دخلوا لبنان من الخارج ولم يكونوا فيه من ذي قبل ويوافقه في ذلك كلام البلاذري الذي يثبت ان هؤلاء المردائيتي الذين هم عنده «خيل الروم» انما دخلوا لبنان من جهة جبل اللكام الذي اتوه ايضاً من الخارج على ما يظهر ·

ولا يعارض قول ثاوفان ما رواه نيقيفور القسطنطيني المعاصر لان هذا يتقصى المردائيتي من اول دخولهم الى لبنان الى حين خروجهم منه وهو وحده يسميهم بهذا الاسم · اما نيقيفور فانه يذكرهم هنا بالعرض ولم يأت على ذكرهم في كل تاريخه الا هذه المرة فقط ولا يذكرهم باسمهم الحقيقي مثل ثاوفان بل باسم عام وهو «الحامية العسكرية» ذلك فضلاً عن انه يعزو اخراجهم من لبنان الى نكول يوستنيانوس بعهد الصلح مع العرب مما لا ينطبق على معقول لان هذه الحامية العسكرية انما كانت تضايق العرب واخراجها من لبنان كان موافقاً لهم كما يرى المتأمل

اما رواية ثاوفان في سبب اخراجهم وهي ان الملك يوستنيانوس انما اخرجهم من لبنان الى ارمينية قياماً بشرط الصلح التي خدعه العرب على عقدها فانها مفصلة بكل تدقيق و يرتاح اليها العقل السليم · ومثل ذلك قول نيقيفور عن هذه الحامية العسكرية بانها «كانت وضعت في لبنان من زمن قديم» فقوله «من زمن قديم» لا يجب ان يتجاوز عهد قسطنطين اللحياني والد يوستنيانوس كما روى ثاوفان لان نيقيفور يلقي الكلام في هذا الموضع على عواهنه دون تدقيق اذ لم يكن من غرضه على ما يظهر ان يتكلم في امر القوم وحوادثهم بل جاء ذلك معه بالعرض فلم يدقق فيه ولذلك لا يجب ان يُترك كلام ثاوفان الصريح ويُعوَّل على هذه الرواية المشوبة من اوجه شتى ·

فاذا ابطلنا والحالة هذه ما شرحه تقديراً من كلام ثاوفان في دخول

المردائيتي الى لبنان فيبقى ان نوافقه على كلامه الذي سبق هذا الشرح من حيث جهل اصلهم ومحتدهم ومن حيث ارثوذكسية مذهبهم وعدم تمردهم على المملكة بسبب المذهب او غيره اما سبب تجيئهم الى لبنان فهو انهم كانوا من جنود الملك قسطنطين اللحياني وهو الذي ارسلهم الى لبنان بقيادة احد قواده لغاية اسعاف المملكة كما فعلوا · وهذا المعنى يوافق رواية ابن العبري ورواية البلاذري ايضاً كما يرى المتامل ·

وبعد ان اسس حضرة العلامة دي غوبرناتيس رايه المبني على التقدير والافتراض هذا الاساس الواهن كما بينا قال ما ترجمته « ولقد حان ان اشرح تقديري الذي من شانه ان يقرر ان المردائيتي ليسوا الا « المرد » الذين من ارمينية وقد دخلوا سورية مع كسرى الثاني بين سنة ٦١١ وسنة ٦١٣ : وقبل ان آتي على بيان ذلك ارى من الموافق ان يُعرف اولاً ما قد يمكن أن تكون عليه حالة لبنان في زمن احتلال الفرس فيه · ولاجل هذه الغاية ارى من الواجب ان ارجع الى بروكوب المؤرخ اي الى حروب مملكة الروم ضد كسرى الكبير على عهد يوستنيانوس الاول اي بين سنة ٥٢٧ وسنة ٥٤٦ : ففي الكتاب الاول (فصل ١٢) من كلامه عن الحروب الفارسية يُرى ان يوستنيانوس في سنة ٥٢٧ اخرج باليزاريوس على الفرس واضاف اليه « كوزاس وبوزاس قائدي جندية لبنان » فكوزاس وقع اسيراً اما بوزاس فابسل ورقي الى رتبة اركان حرب · وبعد مدة اي في سنة ٥٤١ (عن كتابه ٢ فصل ٨) قد حاصر كسرى انطاكية وهرع اللبنانيون الى الدفاع عنها « فان تيوتيست ومولاز قائدي الجنود اللبنانية وصلا ثمة بستة الاف فارس » ولما رأوا المدينة قد اخذت اركنوا الى النجاة من العدو ورجعوا الى جبالهم · وفي سنة ٥٤٣ عند ما استؤنفت الحرب بين الروم والفرس قد اضاف باليزاريوس الى جيشه « راسيتانيوس ونيوتيست قائدي الجندية اللبنانية » وهؤلاء لما

رأوا ان لا بدّ لهم من ان يبعدوا عن سورية رفضوا ذلك وصرحوا بانهم يخشون ان يداهم العرب سورية وفينيقية وينهبوهما ببعادهم « وهما موكولتان من الملك الى حراستهم » ولكن باليزاريوس اخذ ذلك على ضمانته فتبعوه مدة شهرين ورجعوا عنه فاضطر القائد الاكبر ان يرجع ايضاً على عقبه - كل ذلك يثبت باستفاضة ان في ذلك العهد كان في لبنان جندية خاصة مؤلفة من فرسان خيل لتمنع غزوات البدوان الذين كانوا من زمن طويل يزحفون على سورية — ولكن على عهد اي ملك انشئت هذه الجندية اللبنانية ؟ انه لسؤال يصعب الجواب المدقق عليه بسبب نقص الشواهد التاريخية . ولكن ليس ما يمنع من ان يتصل انشاء هذه الجندية بقسطنطين الذي يبالغ زوسيم المؤرخ في ذمه لانه الغى الطريقة الدفاعية التي كان وضعها ديوكليسيان قال هذا المؤرخ « لما كان قسطنطين قد الغى هذه القوة الدفاعيـة اضطر ان يضع اكثر الجند الذين احيلوا عن الحدود في حصون لا نفع لها وقد نزع بذلك كل حماية عن الذين كان يضايقهم البرابرة ومنى المدن التي كانت في ظل الراحة والامان بوباء الجند ولذلك صار كثير منها قاعاً صفصفا » فزوسيم قد غالى في هذا الامر لبغضه قسطنطين اذ ليس من المعقول ان يغير هذا الملك تلك الاحتياطات التي كان اتخذها ديوكليسيان ويذر الحدود بلا حماية دون اسباب موجبة — وقد زادت فيما بعد من جهة اخرى غزوات العرب الكبيرة ولذلك فانا اظن ان انشاء الجنديه اللبنانية يرجع الى انستاس الذي يرجع اليه ايضاً تنصيب العواهل من العرب على ما يروي المؤرخون البيزنطيون وقد وكل اليهم ان يمنعوا في فلسطين مهاجمات العرب من محالفي الفرس — وقد يكون يوستينوس الاول رتب نظاماً افضل لهذه الجندية التي نراها في عهد يوستنيانوس تأتي مثل هذا العمل — ومن ثم فليس ما يسوّغ الافتراض ان تكون قد انحلت هذه الجندية في عهد الملوك التالين »

« وقد وجدنا في التاريخ الكنسي لاي بقفريوس السقولستقي انه في عهد موريس (سنة ٥٨٢ او ٥٨٣) قد تمردت جنود سورية على قوادها ونادوا بجرمانوس ملكاً رغماً عن ارادته وقال ان جرمانوس هذا كان « قائد جنود فينيقية لبنان » على انه لما كان قد استقر اميناً في حق ملكه موريق ناهض الفرس وكسرهم كسرة شديدة بهذا الجيش الذي تحت قيادته — »

انتهى كلام المورخ البارع دي غوبرناتيس وهو الى الان لا يجدي نفعاً في سبيل رايه من جهة اصل المردائيني وانما فائدته التاريخية وهي ان قد كان في عهد يوستنيانوس الاول (من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٣) فرقة من جند المملكة الرومانية يقال لها اللبنانية ولها قواد ونظام على حدة وان هؤلاء كانوا ينجدون عند الحاجة عساكر الروم وقد استمروا الى عهد موريق الملك وكان قائدهم لذاك العهد اسيء في سنة ٥٨٢ او سنة ٥٨٣ يدعى جرمانوس وانهم تمردوا على المملكة ونادوا بقائدهم المذكور ملكاً ولكنه استمر على عهد امانته لموريق الملك مع ماهناك من الشواهد التاريخية النفيسة كل ذلك حدا بنا الى اثبات هذه الفقرة كلها وحتى يظهر منها ايضاً اجتهاد هذا الكاتب المجيد وسعة اطلاعه.

ولكن هل كانت هذه الجنود اللبنانية من اهل لبنان الاصليين ام كانوا يرسلون من المملكة الرومانية ليدافعوا عن حدود سورية فيجعلون مقامهم في لبنان بين اهليه ؟ وهل اتخذوا لبنان كوطن لهم لا يبرحونه ولو تركوا هذه الخدمة العسكريه واستغنت المملكة عنهم ؟ فهذا امر لا يحتاج الى البحث . لانه ليس من المعقول ان يكون سكان اقطاعة برمتها كلهم جنوداً مرتبين تحت نظام عسكري وقواد الان يراد بالقواد حكام الاقطاعة وبالجنود اهلها يقومون بالحملات الحربية ويحملون السلاح عند الحاجة ثم يرجعون ايام السلم الى عيالهم ويعنون بمعيشتهم التي تقتضي في

لبنان حراثة الارض واستثمارها وحينئذٍ لا يمكن ان يكون الجبل كافياً لذلك بل يلزم ان تكون بيدهم السهول الخصيبة التي حوله ايضاً . وعندنا ان هؤلاء الجنود لم يكونوا لبنانيين حقيقةً وانما دعوا لبنانيين لانهم كانوا يتخذون لبنان خاصة ومقاماً لهم لمناعته ولذلك نرى المؤرخين الذين ذكروهم يدعونهم على الدوام باسماء تدل على عساكر منظمة من مثل الفرقة اللبنانية والجنود اللبنانية والكتائب اللبنانيـة والجندية اللبنانية وعساكر لبنان وحامية لبنان الى غير ذلك مما بمعناه ومرادف هذه الاسماء في اليونانية التي كتب بها هؤلاء المؤرخون لا يدل الا على جنود منظمة كما اشرنا . وقد يكون جمهور من شبان اللبنانيين وابطالهم دخلوا في سلك هذه الجندية ايضاً الا ان هذا لا يمنع ان يكون سواهم من جهات اخرى ممن كانوا خاضعين لمملكة الروم كان يتألف منهم معظم هذه الجندية »

ومما يقرر هذا المعنى ما جاء في الشهادة الماخوذة من المؤرخ زوسيم في حق قسطنطين الكبير بانه « الغى هذه القوة الدفاعية واضطر ان يضع اكثر الجند الذين احيلوا عن الحدود في حصون لا نفع لها » لانه لو كانت هذه القوة الدفاعية التي ما جندية لبنان الا من جنسها تتالف من الوطنيين الذين على الحدود وغير مرتبة على نظام عسكري خاص لما صح ان يقال انه الغاها ولما صح ايضاً ان يقال بانه وضع اكثر الجند الذين احيلوا عن الحدود في حصون لا نفع لها كما يرى المتامل . ويؤيد ذلك قول هذا الكاتب نفسه بعد ايراد هذه الشهادة في تاريخ انشاء هذه الجندية اللبنانية وكلام بروكوب الاخير ايضاً في سنة ٥٤٣ « بان سورية وفينيقية موكولتان الى حراستهم من قبل الملك » فليراجع من شاء التدقيق في هذا المعنى بامعان .

فينتج عن هذه الاعتبارات ان هذه الجندية متى اهملت من قبل

المملكة او خرجت عن نظامها يتفرق افرادها الى مواطنهم الاصلية الاَّ من سمحت له احواله الخاصة ان يبقى في مكانه ويتخذه وطناً جديداً او يقطن سواه وطناً لا نسبة اصلية له اليه · وهذا يخالف على ما نرى تقدير العلامة دي غوبرناتيس الاتي وهو « اما ما يمكن التسليم به بكل صواب فهو انه بين الاضطرابات العظيمة التي حدثت بعد ذلك في المملكة قد اهملت العساكر اللبنانية تدريجاً امانتها القديمة لبيزنطية وتركت كل علاقة بها وقد استحكم هذا الامر فيهم بزيادة لانه في السنين الاولى من القرن السابع لم يكن من يتصدى لمنع فتوحات الفرس من جهة المملكة واللبنانيون اذاً تُركوا وشأنهم لم يكن لهم هم الا بان يحافظوا على استقلالهم » انتهى

ويريد حضرة الكاتب الفاضل بهذا الكلام على ما ظهر لنا ان المملكة قد اهملت بعد ذلك العناية بالجنود اللبنانية كانها ابطلت نظامهم العسكري وتركتهم وشانهم فاستمروا في وطنهم لبنان ولا علاقة لهم بالمملكة فاقتصروا لذلك على الذود عن حياضهم واخذوا يرعون مصالحهم الخاصة فقط ولذلك لم يتعرضوا للفرس كعادتهم السابقة حتى فتحوا البلاد وبلغوا دمشق ·

وقد جعل كل ذلك كتوطئة لما اراد اثباته من صحة افتراضه · ونحن لا نرى ذلك وانما الذي يخطر على بالنا هو ان هذه الجنود اللبنانية قد الغيت بعد زمان موريق وتفرقت الى مواطنها الاصلية ولم يبقَ في لبنان سوى اهله الاصليين يعانون اسباب ارتزاقهم ومعيشتهم سالكين في امورهم كسائر الناس من غير الجنود المرتبة والذي يدل على قصده هذا هو قوله بعد الفقرة الاخيرة كما يلي :

« وهذا (اي استقلال اللبنانيين) تم على اثر الفتوح الكبير الذي اجراه كسرى الثاني في سورية سنة ٦١٠ وهرقل لم ينهض لمصادمته ومناصبته الا سنة ٦٢٢ وقد ترك الفرس يملكون البلاد نحواً من اثني

عشرة سنة — فماذا كان اذ ذاك من امر الجنود اللبنانيـة ? هل اخضعوا اعناقهم لنير الفرس دون حرب ولا مقاومة رغماً عن عددهم و بسالتهم ومناعة مواطنهم التي يحتلونها ؟ فهذا ليس مما يمكن ان يُسلم به . فنحن نعلم ان كسرى الثاني قد استولى سنة ٦١٠ على كل شمالي سورية وعلى انطاكية ايضاً . ونعلم انه سنة ٦١١ تقدم حتى دمشق وفتحها ونعلم اخيراً انه سنة ٦١٤ قد اخذ فلسطين ثم مصر . فماذا يا ترى عمل بين سنة ٦١١ وسنة ٦١٤ ? الم يجتهد في ضم السواحل التي تلي لبنان ? وهل صادف مصادمة قوية بالسلاح عند محاولته ذلك ام لا ? » انتهى

فقوله « ماذا كان اذ ذاك اي ايام الفتوح الفارسي من امر الجندية اللبنانية » يدل على انه يعتبر جندية لبنان خلافاً لما نعتبره نحن وقد بينا ضعف ذلك فعلى من يميلُ الى هذا الراي ان يأتينا ببرهان كافٍ عليه .

وقوله « هل اخضعوا اعناقهم لنير الفرس الخ » يعارضه سؤالان آخران وهما : هل قاوموا الفرس مقاومة عنيفة حتى اجبروهم ان يتحولوا عن تخومهم ? او هل كانوا في حالة من القوة والمناعة تجعل الفرس يجتنبونهم معرضين عنهم وعن مواطنهم ? فيظهر ان حضرة صاحب هذه المقالة ميال الى الجواب على هذه الاسئلة بالايجاب مما تبع سواله هذا من الكلام ولا سيما عند قوله ان كسرى اجتاز من انطاكيـة بعد فتحها الى دمشق الشام وقد نسب عدم تعرضـه الى لبنان وسواحل فينيقية الى خوف الفرس من سطوة الجنود اللبنانية وهذا لعمر الحق غير معقول لا سيما ولا حرج من نسبة هذا التصرف الى غرض اخر ممـا يرشد اليه العقل السليم دون ان يحصر في هذا التقدير . وكذلك بقاؤُه في دمشق بعد فتحها من سنة ٦١١ الى سنة ٦١٤ قد يمكن ان يعزى الى غير ما اراد حضرة الكاتب من خوف هذا الفاتح المنتصر من صولة الجنود اللبنانية لانه اذا صح ذلك على سواحل لبنان التي قد تتناولها حماية جند لبنان لا يصح على فلسطين

واورشليم وكل ما هو من دمشق اليها لان ذلك لا يمكن ان يكون مما كانت تمتد اليه صولة الجند اللبناني الموهوم . وان قيل ان حماية المذكورين كانت تمتد الى تلك الربوع وان شسعت عن مواطنهم فلا ندري كيف يمكن صاحب هذا الراي ان يفسر لنا كيف لم يصادم هذا الجند الباسل كسرى الفاتح في طريقه من انطاكية الى دمشق على الاقل وهو مضطر ان يجتاز بعساكره الجرارة على حدود لبنان من الشرق وربما اجتاز في اراضي كانت على ملكهم يستخرجون منها مواد المعيشة مثل سهول بعلبك والبقاع التي لم يكونوا يستغنون عنها وهي اولى بان تكون تحت سيطرتهم وحمايتهم من جهات القدس وما يليها .

وعندنا ان اجتياز كسرى الفاتح بخيله ورجله من انطاكية الى دمشق توًا كان لانه لم يجد مقاومة عنيفة في طريقه ولم يكن في جبال لبنان اذ ذاك من القوة ما يحسب له الحساب الذي افترضه العلامة دي غوبرناتيس فاستكن اللبنانيون في مواطنهم آمنين وربما كانوا سبقوا بعد فتح انطاكية الى تادية الطاعة لهذا المنتصر لانهم رأوا من انفسهم ضعفاً عن مقاومته . والا ليس من المعقول ان يتجاوزهم معرضاً عنهم لجزعه من سطوتهم ويترك هذه القوة المرهبة وراءه على حالها ويذهب لحصار دمشق قبل ان ينازلها القتال ويدوخها حتى يأمن غدرها . هذا وقد يمكن ان يكون تبادر الى ذهن هذا الملك الفاتح انه اذا ترك هذه القوة دون اذلال ربما اتصلت بها خيل الروم وتعززوا جميعاً في هذا الجبل المنيع وقطعوا كل اتصال بين الفاتحين وطرق مددهم ثم نازلوهم في دمشق وضواحيها حتى ظفروا بهم او اتعبوهم على الاقل وهو حساب يحسب فليس من الحكمة اذاً ان يتركوهم وشانهم ويبيتوا في دمشق امنين غدرات الدهر مدة ثلاث سنوات كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

ومما يؤيد ذلك هو ان عساكر الفرس هبوا بعد هذه الفترة من دمشق

الى فتح فلسطين وتلك الجهات البعيدة عن لبنان دون ان يذكر المؤرخون شيئاً عن تعرضهم لهذا الجبل وما جاوره من الشمال حتى انطاكية ولا لكل ما بين انطاكية ودمشق على الاطلاق فلو لم يكونوا قد استولوا على هذه البقعة ايضاً بعد تجاوزهم من فتح انطاكية بدون عناء كبير لجاء ذكر فتحها ووصف ما كلفت من اثقال الحرب كغيرها من المحال التي فتحوها عنوةً فالتقدير اذاً بانها خضعت للفرس المنتصرين بعد استيلائهم على انطاكية هو اولى من التقدير الذي جاء به العلامة دي غوبرناتيس تأسيساً لتقديره في اصل المردائيني في جبل لبنان الذي بعد ان وضع كل هذه الافتراضات التي عارضناها حتى الان جاء لبيانه بوجه الاستنتاج كما يلي :

« ان كسرى الثاني ملك الفرس قد استعد لهذه الحملة على فتح سورية استعداداً بليغاً واعد لها من العدد ما يضمن الفوز بامنيته والنجاح بهذا الفتح المهم فوجه اولاً عنايته الى اخذ انطاكية قاعدة سورية وبدلاً من ان يدكها كما فعل قبله كسرى الاول قد عني بسلامتها وفعل مثل ذلك في امر هيرابليس وخلقيس والبيرة وبعد ان اقر استيلاءه على شمالي سورية نزل بطريق حمص الى دمشق التي هي العاصمة الثانية لسورية ولم تكن اقل اهمية من الاولى وهذه ايضاً لم تقاومه مقاومة تذكر. فحل اذ ذاك في قلب سورية ولكن دون ان يستولي على السواحل حيث كان يخشى ان ينزل العدو من الجبال فيحول بينه وبينها . ومن ثم فقد كان عنده من الاهمية بمكان ان يستولي ايضاً على ارواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور ونراه مع ذلك قد تربص في دمشق ثلاث سنين متتالية » انتهى .

ونحن نرى في هذا الكلام ما يثبت الاعتبارات التي ذكرناها حتى الان رداً لكلام هذا العلامة واعتباراته لانه قال هنا ان كسرى استعد لهذه الحملة استعداداً بليغاً واعد لها من العدد ما يضمن الفوز بامنيته وقد

زحف الى انطاكية وفتحها سالمة بعد ان دوّخ كل البلاد التي قبلها في مدة قصيرة جداً اي من سنة ٦١٠ الى سنة ٦١١ زحف منها الى دمشق بطريق حمص دون معارض وفتح دمشق دون مقاومة تذكر ولم يرد عنه انه اخذ حمصاً وحماه وبعلبك وما جاورها حتى دمشق بحرب وقوة فكيف والحالة هذه يسوغ لذي بصيرة ان يقدّر ان هذا الفاتح العظيم وهو في خمار انتصاراته المبينة وعظمة قواته المريعة التي سبق وصفها يخطر على باله ان يتحبب الى هذا الحد للبنان وسواحله . ان ذلك لمن الغرائب والذي يزيده استغراباً ما قدره هذا الكاتب نفسه فيما بعد وهو كما يلي :

« وكان من الضروري لكسرى ان يستولي على الثغور ولم يكن له بد في الوصول اليها من اجتياز لبنان . وكل ذلك يحملنا على التسليم بان الجبل كان باقياً الى ذاك الحين مشغولاً بالجنود الباسلة التي يتكلم عنها بروكوب وقد اضطر هؤلاء ان يعارضوا مرور الفرس فيه بشدة » انتهى

فهذا الافتراض انما هو مبني على افتراض اخر لا نراه ثابتاً على النقد وهو ان كسرى لم يكن استولى بعد على لبنان وسواحله وقد ابنا فيما سلف ضعف هذا الراي فلا حاجة الى المراجعة . وقد انتبه حضرة الكاتب على ما يظهر الى اعتراض يخطر بديهياً على البال وهو كيف ان هذه الجنود اللبنانية لم تعارض كسرى وجنوده لدى مروره شرقي لبنان الى دمشق وهي الان تخيفه من سطوتها الى هذا الحد ؟ وردّه بما لا يتجاوز الافتراض دون مستند تاريخي بقوله :

« اجل انهم (اي جنود لبنان) لم يكونوا قادرين على جنود كسرى في السهول حيث يتسع عليهم المجال وذلك لدن زحف هذا الجيش من حمص الى دمشق بيد انهم في لبنان كانوا في مناعة تطمعهم ان يدفعوا كل محاولة تعرض من قبل الملك الفاتح » وشفع هذه الفقرة بافتراض اخر لا اساس له في التاريخ وهو مبني على الافتراضات السابقة التي ابنّا

ملاحظاتنا عليها فقال :

« ومما يجب ان يُلاحظ هنا ان هذه الجنود (اللبنانية) عند ما تُركت وشأنها من قبل ملك الروم لم يكن عليهم الا ان يذودوا عن حريتهم ومواطنهم ولم يكن من الصعب على اثني عشر الف فارس (وهذا على الاقل كان عديدهم) ان يصدوا المهاجمات التي كانت تداهمهم . ولهذا فاني افترض ان قد حصل بينهم وبين الفرس وقائع شديدة كانت تنتهي بغلبتهم على الفرس . ومثل هذا الافتراض وجوبي على المؤرخ عند نقص الشواهد التاريخية لان فيه شرح ما كان في المدة التي بين احتلال دمشق وفتح اورشليم » انتهى

والذي نراه ان حضرة صاحب هذه المقالة الفاضل انما اضطر الى هذا الافتراض الواهن لاجل توطيد افتراضه في شان اقامة « المرد » في لبنان من عهد كسرى الثاني وهو عين قضيته التي يسعى في اثباتها والا كان يمكن العدول عنه الى ما هو اقرب الى الصواب وقد سبق العلامة الانكليزي جيبون في كتابه الشهير « في انحطاط مملكة الروم » فقال عند كلامه على بلوغ كسرى الثاني بجيوشه الى دمشق وفتحها ما ترجمته « ان كسرى قد اراح جنوده في جنات دمشق قبل ان يصعد الى جبال لبنان ويهاجم السواحل الفينيقية » وهذه الشهادة قد اتى بها حضرة صاحب هذه المقالة عينه بعد قوله « ونراه مع ذلك تربص في دمشق ثلاث سنين متتالية » واردفها بقوله « فهذه الاستراحة لا يمكن ان يسلم بها اذ لا مستند لها في التاريخ » ولكن اي مستند في التاريخ لقوله ان الجنود اللبنانية التي ذكرها بروكوب كانت ايام فتح سورية لم تزل باقية في لبنان وان « قد حصل بينهم وبين الفرس مدة هذه الثلاث سنين مواقع شديدة كانت تنتهي بغلبتهم على الفرس » ؟ وكيف ساغ له ان يشغل هذه السنين بهذه المواقع مع ان الذي يتبادر الى الذهن هو بالاحرى ان

كسري بعد ان اتعب جنوده بحرب عوان فضلاً عن مشاق الانتقال من مملكته فاتحاً البلدان الحصينة بسرعة لا مزيد عليها حتى دمشق عند ما استتب له الامر ولم يجد من يعارضه او يخيفه قد اراح جنوده في جنات دمشق لكي يعدهم الى استكمال الفتوح حتى مصر وهو اشد واصعب من الاول ؟

هذا والذي يلوح لنا ان كسرى الفاتح لو كان قاسى من قتال اللبنانيين مدة ثلاث سنين ما افترضهنا حضرة العلامة دي غوبرناتيس وكلفه فتوح لبنان وسواحله كل هذا العناء حتى اضطر ان ياتي بقوم جبليين من اطراف بلاده ليذلل بهم هؤلاء اللبنانيين بعد ان كسروه وظفروا بجنوده في كل المواقع التي حصلت مدة ثلاث سنين لما فات احداً من مؤرخي هذا الفتح المهم ان يذكر هذه العقبة التي اعترضت الفاتحين وبعض الحوادث التي حصلت في جنب تذليلها لانها في الحقيقة مما يستوقف الخواطر ويثيرها كما لا يغرب . على ان صمت المؤرخين عن ذكر اعمال هذا الفاتح وجنوده في تلك الفترة التي بين اخذ دمشق والزحف على اورشليم فيه على ما نرى دليل قاطع على ان هؤلاء لم ياتوا امراً يذكر سوى الاستراحة وضروب الحظ والتمتع بالنصر وبالغنائم التي غنموها لا سيما ودمشق هي اخصب بقعة في هذه الديار وفيها من اسباب الرفاه والراحة ما لم يجتمع في سواها وقد اكثر الشعراء والوصاف من التغني بها نستكفي بقول الفارض الذي شهد بسلامه ذوقه الثقلان فقد قال « جلقُ جنة مَن تاه وباهى » .

وبعد هذه الانتقادات التي اوهنا بها مقدمات هذه المقالة على ما نرى صار من السهل على محبي الحقيقة ان يروا بطلان النتيجة التي هي عين القضية التي اراد اثباتها حضرة الكاتب البارع والتاريخي الواسع الاطلاع العلامة دي غوبرناتيس وقد بسطها هنا كما ياتي :

« اما كسرى فكان يهمه جداً الاستيلاء على فينيقية وحكم بان لا بد له من اذلال الجند اللبناني فعنَّ له اذ ذاك ان يقاتل الجبليين بجبليين مثلهم ولهذا طلب اليه قبيلة « المرد » المشهورة بالرماية وكانت لذاك العهد تحت حكمه : فالمرد من بعد حرب ضروس قد استولوا على لبنان واباحوا للفرس ان يحتلوا سواحله · وليس عندنا ما يضاد هذا لافتراض الا كلام ثوفان الذي هو « ان المردائيتي (او المردة) دخلوا لبنان في عهد قسطنطين اللحياني » اي بعد هذا الزمان بست وستين سنة ولكن قد رأينا فيما مرَّ عدم امكان مثل هذا العمل ولهذا قد اراد ثوفان ان يقول هنا ان مردائيتي لبنان قد اشتهروا في ذاك العهد وازعجوا العرب هم ومن انضم اليهم من القوم الذين هربوا من وجه فتوحات العرب الى هذا الجبل منذ سنة ٦٣٦ الى ما بعد »

« اما المرد فبعد ان اتوا اليه في سنة ٦١٢ وتغلبوا على اهله قد حفظوا استيلاءهم على البلاد التي اخضعوها لان وجودهم فيها كان ضرورياً ان من حيث منع اللبنانيين عن المقاومة بعد او من حيث السهر على السواحل حيث كان يخشى ان يظهر العدو في كل ساعة · وبهذه الطريقة قد عزَّز كسرى فتوجه بقوم ينتمي اليه وتمكن من فتح فلسطين ومصر دون ان يبقى ما يشغل باله »

« ومن المشهور ان هذا استيلاء الفرس على سورية قد انقضى على اثر كسرة كسرى الثاني وموته · فقام خليفته شيرويه وعقد صلحاً مع الرومانيين من شروطه ان يخلي الفرس سورية اخلاء تاماً بان يخرج منها كل فارسي · وقد تم هذا الشرط بالتدقيق على قول نيقيفور وقد زاد ثوفان ان هرقل الملك قد ارسل اخاه ثيودورس وقلده مهمة اخراج الفرس حسب الاتفاق فماذا حصل اذ ذاك ؟ هل اجبر المرد على ترك لبنان ؟ انه لامر يحق الارتياب فيه لانه كان قد مضى نحو ست عشرة سنة على

وصولهم اليه وعلى العلائق التي كانت تقررت بين المرد واللبنانيين الاولين وكان المرد ابعد من ان تستحكم فيهم الامانة نحو الفرس ومملكة الروم كانت تعتبرهم ارمن ولهذا كانت تعدهم من رعاياها وتحت سلطتها وهم كاللبنانيين قد امتازوا بحب الاستقلال ثم ان اتفاق الفريقين ادي بهم الى عرض خدمتهم للمملكة التي قبلتها بارتياح . ففي خاطري اذاً ان المرد او المردائيتي لشدة تعلقهم بالوطن الجديد ووثاق القربى التي احكموه مع مغلوبيهم قد استمروا في لبنان باذن الملك »

انتهى كلام العلامة دي غوبرنانيس :

ونحن لا نرى اوفق ولا افعل في رد افتراضاته هذه كلها من كلامه في هذه المقالة عينها عند ذكره ملخص تاريخ فتوح العرب لسورية وبيان تعجبه من صمت كل مؤرخي هذا الفتوح من العرب والروم عن اعمال اللبنانيين واحوالهم فيه . وقد قال (عدد ٥ ص ٢٠ و٢١) ما خلاصته : « ان العرب خرجوا لفتح سورية منذ سنة ٦٣٤ واستولوا عليها عنوة في سنة ٦٣٦ بعد حروب هائلة كانت الدوائر فيها على الروم . فانطاكية لم تثبت امامهم كثيراً واقل منها طرابلس . اما صور وصيدا وبيروت وجبيل فقد فتحت ابوابها للظافرين دون حرب وبين سنة ٦٣٨ و٦٣٩ أُخذت اورشليم وقيصرية وكل فلسطين . اما لبنان وحماته فلم يُحكَ عنهم كلمة واحدة . ومما لا ريب فيه ان كل سورية قد خضعت لسلطة العرب فهل يا ترى اشترك لبنان وحماته بالحروب الدفاعية الاولى ؟ فالصمت عن هذا المعنى ايضاً بالغ حده عند كل المؤرخين . الا بعض الاخبار التافهة في التواريخ اللبنانية مما لا قيمة له »

« وعندي ان اللبنانيين لم يشتركوا اقل اشتراك في موقعة اليرموك بل استمروا في جبالهم متربصين ينظرون في ظروف الاحوال . وقد يتحصل من ذلك ان لبنان قد هوجم ودافع عنه المرديون بعزم وقوة . اما المؤرخون

من بيزنطيين وعرب فانهم يصمتون عن ذلك صمتاً تاماً· بيد ان جول داود في كتابه « سورية الحديثة » يذكر ان اباعبيدة « لكي يشغل جنوده قد عوّل على ارسال حملة عسكرية الى لبنان » ولكنني والحق يقال لا ادري من اين استطاع ان ياخذ هذا الخبر والذي ارى انه اخطأ في شرح رواية ابي الفدا حيث يتكلم عن حملة بعثت من قنسرين والمعرة نحو اللاذقية وطرطوس فاضطرها الروم ان ترجع على عقبها من نصف الطريق وقد وقع مثل هذا الخلط لمؤرخي الصليبيين الذين ظنوا انهم هاجموا لبنان ولم يهاجموا الا النصيرية عند مجيئهم من المورة الى طرابلس: وعندي ان المردبين لم ياتوا اقل عمل عدواني ضد الفاتحين عند مجيئهم ناحية بعلبك والبقاع لانه من الواضح ان ابا عبيدة وخالداً لو نالهما معارضة تذكر من قبل المردبين عند مرورهما الى بعلبك وحمص لما تقدما بجيشهما خطوة واحدة الى الامام كما فعلا تاركين وراءهما خصوماً اشداء مرهبين يستطيعون ان يحولوا بينهم وبين مواصلات الذخر والمدد · او لكان بلغ الينا على الاقل بعض الآثار مما يدل على مواقع نظير هذه من اهم المواقع واصعبها لو حدث شيء من ذلك غير انه من المحقق ان لا ابو الفدا ولا المشيني (؟) ولا محمد الواقدي ولا قدرينوس ولا ثوفان ولا ابو الفرج ولا غيرهم من المؤرخين المعروفين يذكرون اقل اشارة عن اللبنانيين في كل حروب سورية التي لخصناها هنا » اه

فنستميح اذاً حضرة العلامة دي غوبرناتيس في توجيه هذا السؤال اليه وهو : كيف يصح التقدير ان للبنانيين ايام الفتح الفارسي استطاعوا على قلة عددهم ومددهم ان يقفوا في وجه كسرى الثاني وجنوده الكثيرة العدد ثلاث سنين ويمنعوه من فتح اورشليم وفلسطين وكل سواحل فينيقية ولبنان بقوتهم وشدة باسهم حتى اضطروه ان يأتيهم بقبيلة المردبين ليدوخهم بها ويستعين على اتمام فتحه بهذه الطريقة مع انه لا ذكر لاقل

شيء من هذه الامور المهمة في فتح عظيم نظير هذا عند احد المؤرخين على اختلاف جنسهم ؟ مع انه هو نفسه ينكر مثل هذا الافتراض في الفتح العربي لسورية لانه يراه غير معقول ولا مقبول عادةً فبجامع الحجة اذًا يحق لنا ان ننكر افتراضاته الاولى . لا سيما واحوال اللبنانيين في الفتح الثاني هو افضل منها في الفتح الاول . لان هذا كان منذ ٦٣٤ كما ذكرنا وقد حالف المردبون مع اللبنانيين هرقل ملك الروم على رايه لاجل ابقائهم في جبل لبنان كحامية للحدود والثغور قبل الفتح العربي بست سنوات فقط فقوة الحامية اللبنانية كانت ايام هذا الفتح اشد وامنع واكثر عددًا منها ايام الفتح الفارسي (هذا اذا سلمنا بتقديراته ومفترضاته) فكيف لم تاتِ اقل عمل عدواني ضد الفاتحين هنا مما اتته وهي اقل عددًا ومناعةً في الفتح الفارسي ؟ فلينصف المنصفون .

اما نحن فاننا نرى ان ما يمكن استنتاجه من هذا البحث الانتقادي هو انه اذا كان لا بد من التسليم بان مردائيتي ثوفان هم من قبيلة «المردبين» المذكورة لا حاجة الى كل هذا التمحل وهذه الافتراضات التي لا يسندها من تاريخ كما بينا بل الاولى والاقرب الى الصواب ان يقال ان قسطنطين اللحياني ملك الروم عند ما راى العرب اجتاحوا قسماً كبيرًا في الشرق من مملكته حتى كادوا يبلغون قسطنطينية انتهز فرصة انشغال معاوية بحرب اهل العراق او بامر آخر يهمه وراى من الحكمة ان يتعجل في ارسال فرقة مهمة من جنوده الى جبل اللكام وجبل لبنان اللذين لم يكن اخضعهما العرب تمامًا وقد استمر اهلوهما على رعاية الامانة نحو هذا الملك العظيم الذي عزز النصرانية وخدم الدين المسيحي خدمات تذكر بالشكر ابد الدهر وكان جبل اللكام وجبل لبنان قد اضحيا في ذاك العصر موئلاً لكل مسيحي انهزم من وجه الفاتحين فاجتمع اليهما خلق كثير من اهل سورية وجوارها على ما يظهر . وقد جاء في كريريسة عنوانها

« سياحة ٣٢ يوماً في حمص وبعلبك ودمشق وبيروت لمحمد كامل البحيري (سنة ١٣٢٠) ص ٨٢ هذه الفقرة « وبنيت بيروت في زمن الامويين في ايدي قوم من فارس قد عهد اليهم سيدنا معاوية الدفاع عليها ومحافظتها « من المردة » وهم نصارى العجم الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية للمحافظة على سواحل لبنان من هجمات العرب » — فيقدر اذاً بكل صواب ان الملك المشار اليه ألف جيشاً من قبيلة « المردةيين » وهم فرسان مغاوير قد اعتادوا خوض المنايا والسكنى في الجبال وجعل عليهم قائداً من قواده وصيرهم في تلك الفترة الى الجبلين المذكورين وهم الذين قال فيهم البلاذري المؤرخ العربي ما حكايته « خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى جبل لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » وقال فيهم ثوفان المؤرخ الرومي ما ترجمته « في هذه السنة (وهي السنة الثامنة لملك قسطنطين اللحياني) قد دخل المردائيتي جبل لبنان واستولوا على كل ما هو من جبل اللكام الى المدينة المقدسة واحتلوا بعض مشارف لبنان وضوى اليهم جماعة كثيرة من العبيد والاسرى ومن الوطنيين حتى صاروا الوفاً كثيرة في زمن قصير »

والظاهر ان الملك قسطنطين مرسلهم قد رتبهم ترتيب الجنود اللبنانية القديمة التي ذكرها بروكوب على قدر ما كانت تسمح الظروف . ومن بعد دخولهم جبل لبنان وتحصنهم فيه اخذوا واهله الوطنيون مع من ضوى اليهم من جراجمة وانباط وعبيد يشنون الغارات على اهل جواره حتى دوخوا كل ما كان من جبل اللكام الى اورشليم وازعجوا العرب بوقائعهم حتى اضطروا معاوية وعبد الملك بن مروان بعده الى عقد صلحين ثقيلي الشروط عليهما كما روى ثوفان والبلاذري . وقد استمروا على هذه الحال من السنة التاسعة لملك قسطنطين المذكور الى ان استدعاهم من جبل

لبنان ولده يوستنيانوس الاخرم الذي خلفه على تخت مملكة الروم وهو بسن السادسة عشرة وانما رضي باضعاف هذه القوة التي كانت بمنزلة سور منيع للمملكة لجهله وغروره كما جاء في ثوفان نفسه ·

وهذا الراي على ما يلوح لنا يوفق بين صحة رواية ثوفان والبلاذري وبين راي العلامة دي غوبرناتيس (الذي يرى ان المردائيتي هم في الاصل من قبيلة المرديين) دون تعسف ولا حاجة الى كل ما جاء به هذا الاخير من الافتراضات الضعيفة ·

ومما يزيد ذلك رسوخاً وقوة ان لفظة « مردائيتي » التي اول من استعملها ثوفان المؤرخ على ما وصل الينا انما هي بصيغة النسبة في اللغة اليونانية لان الانتهاء بحروف « إيتي » هو عندهم من صيغ النسبة جمعاً فمن ذلك مثلاً مارونيتي للموارنة وملكيتي للملكية وياكوبيتي لليعاقبة وهلم جرّا وعليه فاذا حذفنا هذه اداة النسبة من لفظة « مردائيتي » بقي « مردا » وهم « المرد » او « المرديون » ولهذا ترى ابن العبري استعمل هذا الاسم على النسبة في السرياني فقال « ܡܪ̈ܕܝܝܐ » ثم استعمله مرة اخرى على النسبة اليونانية فقال ܡܪ̈ܕܝܛܐ كما بيناه غير مرة في القسم الثاني هنا والمراد بذلك جميعه ان القوم الذين نحن بصددهم هم منسوبون الى قبيلة « المرد » ولذلك ترجمنا كلمة « مردائيتي » بالمرديين على النسبة وصح على ما نرى تقديرنا الذي ذكرناه هنا وهو اقرب الى الصواب والّا فليس في قصة هؤلاء المردة الذين دخلوا لبنان وخرجوا منه بامر ملوك الروم ما يشير الى معنى التمرد والعصيان ولم يدعُهم بهذا الاسم لا السريان ولا العرب حتى يمكن القول بان المقصود منه هذا المعنى دون سواه وليس من قبيلة تدعى باسم « المرد » الا القبيلة المعروفة منذ قرون عريقة في القدم التي اصلها على ما يرى مادوية بين الفرس والارمن الا اذا مال احد الى موافقة

راي العلامة ابراهيم الحاقلاني الماروني بان هؤلاء « المردائيتي » الذين ذكرهم ثوفان انما هم من قبيلة « مراد » التي هي بطن من كهلان من عرب اليمن وهذا يحتاج الى دليل ·

هذا ولاجل زيادة الفائدة من هذا البحث وبما اننا رجحنا هنا الراي بان مردائيتي ثوفان هم من قبيلة المرد راينا ان نثبت ايضاً خلاصة ما كتبه العلامة دي غوبرناتيس في مقالته المذكورة نقلاً عن جلة المؤرخين في حقيقة امر هؤلاء المرديين واصلهم وموقع بلادهم الاصلي واليك ذلك :

« ان المؤرخ سترابون بعد ان تكلم عن المرد وغيرهم من الشعوب التي في القوقاس و بحر قزوين ختم كلامه في الكتاب العاشر (باب ١٨) بقوله « ان المرديين (او الامرديين) والذين عرفوا في ارمينية الى يومنا هذا بهذين الاسمين كلهم من جنس واحد » وقد ذكرهم هيرودوت اقدم المؤرخين في الكتاب الاول من تاريخه (ف ١٢٥) قال « ان القبائل التي تتالف منها طائفة الفرس كثيرة العدد ·· اما غيرها مثل الداعيين والمرديين والدرافقيين والسفريين فهم اهل بادية ولا عناء لهم الا في مواشيهم » وفي الكتاب الثالث (ف ٩٤) قال « ان المسخيين والتيباريين والميكراويين والموزيناخيين والمرديين كانوا يدفعون ثلاثمائة دينار وكان القسم التاسع عشر يتألف منهم » فيظهر من كلام هيرودوت ان المرديين كانوا من الفرس وكانوا يرتزقون من المواشي وبما انه قرنهم بالمسخيين يتحصل انهم كانوا يسكنون جبالاً بين التوروس والقوقاس اي في ارمينية وقال ايضاً هيرودوت في الكتاب الاول (ف ٨٤) عند ذكره حصار سردي الذي وضعه عليها قورش ما ترجمته « ان هورياد المردي جنساً وحده قد عرض نفسه ليتسلق الى المدينة من جهة خاصة لم يكن عليها حرس » وقد ذكرهم ايضاً ديودور الصقلي (ف ١٧ : ١ — ٥) في جيش دارا عند اربلة قال « والمرديون والقوسيون الممتازون جداً بطول

القامة والعزم » وقال ايضاً (ف ١٧ : ٢ — ٣) « أن الاسكندر بعد فتح هرقانية اجتاح بلاد المرديين فانتصر عليهم ورجع بعد ذلك الى هرقانية » وقد ذكر ذلك يوستنيانوس ايضاً قال « ان الاسكندر بعد ان تغلب على دارا قد ذلل هرقانية والمرديين » وقد جاء ايضاً ذكرهم في شعر ديونيسوس الافريقي باللاتينية وذكر نهرهم باسم النهر المردي وهو المعروف اليوم باسم « كيزيل اوزون » وقال فنفونيوس ميلا (٣ — ٢) ان نهر لقسنتي في بعض منعطفاته الشمالية يفصل بين الامرديين والفرس واستشهد العلامة دي غوبرناتيس ايضاً المؤرخ استرابون في عدة مواضع حيث يذكر المرديين وحدود البلاد التي يسكنونها هم وسواهم من القبائل المجاورة ودرس هذه القضية درساً بليغاً حتى استنتج منها ما يأتي وهو « بينما نرى آبيانوس يحسب المرديين والبراتيين شيئاً واحداً فان فنفونيوس ميلا وهيرودوت يعدانهم من الفرس وانا ارى في الحقيقة انه يجب ان يعدوا ماديين لان مادية كانت في الاصل بلادهم والمكان الذي سكنوه قروناً طويلة : ولكن الاوفق ان يُعدَل عن تقرير ما قد يكون عليه شعب من الشعوب في اول نشأته بنوع بات . اما هنا فلنا بواعث راهنة تحملنا على الاعتقاد بان المرديين قد نشأوا في مادية وارمينية واقاموا ثمة كما هو شان اهل الجبال بخلاف اهل السهول حيث يجتمع امم كثيرة من مواطن مختلفة . . . . وفي كل حال ان المرديين ابطال حرب يزينهم روح الاستقلال والكسب ومواطنهم جبال منيعة فينزلون منها الى السهول المجاورة تارة في طلب المرعى الخصيب لمواشيهم واخرى لاغتنام اشياء القبائل الضعيفة . . . . ويظهر ان الاكراد الحاليين هم حقيقة من اصل ذاك الشعب . . . ومما يثبت قولي في تقرير مواطن هذه القبيلة ما جاء في كتاب كوينا في تركية اسية وهو « ان الارمن يسمون بلادهم ارض المرديين » (مج ٢ ص ٦٥٥) انتهى ببعض تصرف .

ثم ان العلامة دي غوبرناتيس يحاول اثبات افتراض آخر وهو ان من المرجح ان تكون لغة المرديين السريانية الكلدانية التي كانت مدة من الزمان لغة الشعب العامة او على الاقل لغة الدوائر العالية في اشورية وارمينية وسورية ومصر كما كتب العلامة مسبرو الفرنساوي الشهير في كتابه « تاريخ شعوب الشرق القديم » وقد جاء في تاريخ ديودور الصقلي (ف ١٩ عدد ٤) ان اومان عند ما كان في برسيبولي مع جيشه المؤلف من اجناس مختلفة فلكي ينشط جنوده على الحرب قد افتعل تحريرات ضمنها اخبارًا كاذبة عن مكدونية . وقد قال هذا المؤرخ ماحكايته « ان تلك الرسائل قد كتبها باللغة السريانية اورنت الاستربي الذي في ارمينية . . . واومان قد عرضها على كل القواد والعساكر ليقرأوها » وكتب بلوترك في سيرة حياة انطونيوس بعد ذلك بثلاثة قرون ان متريدات الفارسي اذا رام ان يخاطب القائد الروماني العام سأله ان يرسل اليه رجلاً « يعرف لغة البرتيين او السريانية » وقد اراد العلامة دي غوبرناتيس المذكور ان يستنتج من ذلك سهولة ائتلاف هؤلاء المرديين مع سكان جبل لبنان في عهد كسرى الثاني وهرقل بعده وزاد ايضاً اثباتاً لذلك ما يعتقده من وحدة المذهب بين الفريقين وهو في اعتقاده المونوفيزتية واجتهد ان يبرهن على سبيل الترجيح انتشار هذا المذهب يومئذ في هاتيك الجهات حتى عمّ نصارى الفرس والارمن . ثم برهن بوجه الافتراض المرجح ايضاً ان نصارى لبنان كانوا لعهد كسرى الثاني على هذا المذهب ولكن ذلك مما لا يستطيع اثباته ببراهين قاطعة .

وعندنا ان افتراضه الاول الذي ابطلناه هنا هو الذي حمله على كل الافتراضات التي جاءت بعده اثباتاً له وكاننا به يحاول ان يثبته بها ويثبتها به . ولكن لماَّ بطل ذلك على ما ظهر لنا ضعفت هذه ايضاً حتى كادت تكون باطلة مثله . فمن جهة اللغة قد كانت مرت قرون على الشواهد التي

جاء بها فلا يصح ان يستنتج منها ان لغة المرد ايام اتوا جبل لبنان كانت السريانية هذا على فرض ان تلك الشواهد تدل على كون لغتهم في تلك الايام السابقة السريانية ثم من المقرر ان الملك قسطنطين اللحياني كان ارثوذكسي المذهب وشديد الحرص على سلامته وقد عمل اعمالاً تذكر لاقراره وابطال سواه من مملكته فلا يمكن ان يقدَّر ان المردين الذين تخذهم جنوداً وارسلهم الى لبنان كانوا على خلاف مذهبه · وعندنا ان التقدير بان نصارى جبل لبنان لذلك العهد انما كانوا على مذهب رهبان دير مار مارون كما بينا في القسم الاول من رسالتنا هذه هو اقرب الى الصواب والله اعلم ·

ذلك ونرى من المفيد جداً ان نختم هذه المقالة الانتقادية بما اورده حضرة العلامة المحقق السنيور دي غوبرناتيس في مقالته التي نحن بصددها فيما يتعلق بتواريخ لبنان حتى القرن الخامس ولو لم يكن مما يتعلق بهذا البحث ·

قال العلامة المذكور في العدد الرابع من بحثه المشار اليه (ص١٦) « ان لبنان بقي على الوثنية حتى عهد ثاودوسيوس الثاني وقولي هذا الذي يظهر لاول وهلة مخالفاً لما يصرح به كل التواريخ الكنسية البيزنطية هو مع ذلك مسند الى شواهد راهنة · فان هدم هياكل الاصنام الذي امر به قسطنطين الكبير هو ابعد من ان يثبت تاريخياً ثبوتاً لا يقبل الدفع واكبر دليل على ذلك هو ان تلك الهياكل بقيت قائمة حتى اضطرت ثاودوسيوس الكبير الى اتخاذ وسائل اشد واعم لاستئصالها · وقد كتب العلامة بارونيوس في تاريخ السنين الكنسية (ف ٥٥) ما ترجمته « كل هذه (الهياكل) قد بقيت في فينيقية الى زمن لوقيانوس (على عهد اركاديوس) وكان يؤمها الناس باحتفال عظيم اما التي كانت هدمت قبل ذلك الحين فلم يجددها احد على ما ارى » واليك ما كتب القديس يوحنا

الذهبي الفم الى روفينوس قال « بلغني ان شرور فينيقية قد تجدد شرارها وزاد كيد الوثنيين » واخبر تاودوريطوس في تاريخه الكنسي (ف ٥ : ٢٩) ان هذا البطريرك القديس « لما علم ان سكان فينيقية ما زالوا يمرحون جنوناً في سبيل عبادة الاوثان جمع بعض الرهبان ممن اكلتهم غيرة الله وعززهم بالاوامر السلطانية العالية وارسلهم ضد هياكل الاصنام» ويقول هـذا المؤرخ بعد ذلك : انهم هدموا الهياكل المذكورة . اما بارونيوس فيقول نقلاً عن غيره من المؤرخين ان الوثنيين اللبنانيين قد قتلوهم — ثم ان سوزيان المؤرخ يصرح بان هاتيك البلاد لم تكن على عهد والنت الملك قبلت الديانة المسيحية بعد وهذه ترجمة كلامه نفسه « اما سورية فالقسم الذي يقال له المجوفة منها (وهو البقاع) والقسم الاخر الذي فوقه ما عدا مدينة انطاكية قد تأخر جداً في ارتدادهما الى الدين المسيحي » (تاريخه الكنسي ف ٦ عدد ٣٤) فيمكن ان يستنتج من ذلك ان الدين المسيحي بدأ يدخل في لبنان بهمة البطريرك العظيم القديس يوحنا فم الذهب الذي في مدة نفيه ايضاً بقي مجداً في اتمام هذا العمل المحمود ولكن النتيجة لم تتم بل اقتضت رسالة خاصة في سنة ٤٥٢ فان مكسيم بطريرك انطاكية ارسل في تلك السنة الاسقف ننوس الى بعلبك ووكل اليه خاصة ارجاع اللبنانيين كما روى السمعاني (مكت شرق مج ١) » انتهى

وقد دخل حضرة العلامة دي غوبرناتيس بعد الذي ناقشناه عليه هنا في امور اخرى تتعلق بتاريخ نشأة الطائفة المارونية في القرن السابع والثامن لم يكن من غرضنا في هذا البحث عن المردائيتي ان نتعرض لها . ثم جاء في اخر مقالته الى تقرير النتيجة بحسب قضيته التي عارضنا مقدماتها من هذا الوجه فقط . واننا لنشكره في كل حال على ما اتاح لنا من الفوائد التاريخية المعتبرة ونقرله بالفضل وسعة الاطلاع وعلو المقام بين

المحققين من علماء التاريخ معتذرين عن اقدامنا على معارضته ومقرين بتقصيرنا عن شأوه في هذا المجال الصعب المنال وباننا انما استفدنا كثيراً من بحثه ومطالعاته فيما توخيناه في هذه المادة ولم نقصد غير خدمة الحقيقة نظيره فان كنا اصبنا فذلك جل ما نتمنى والا فالعذر من شيم الكرام · والله الموفق الى الصواب فله المجد الى ابد الدهور





ذيل

يتضمن مناقشة حضرة الاب لامنس اليسوعي الفاضل في ما اذا كان الموارنة سكنوا جبال كسروان قبل القرن الخامس عشر او قبل فتوح كسروان الذي وقع في مفتتح القرن الرابع عشر

انه يظهر من كلام حضرة الاب لامنس اليسوعي النحرير في مطاوي ابحاثه كلها عن آثار لبنان وما يتعلق بتاريخ الامة المارونية مما اثبته في اعداد مجلة المشرق البيروتية منذ اول نشأتها الى الان انه يعتقد بل يقطع بان الموارنة لم يتجاوزوا نهر ابرهيم وان كسروان لم يكن من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر ·

وقد استدل على ذلك على ما راينا في اول كلامه في هذه المادة اولا من كلام الشريف الادريسي الذي هو من كتبة القرن الثاني عشر قال « ان جونية حصن على البحر واهله نصارى يعاقبة » ثانياً مما ظهر له من اقوال مشاهير الطائفة المارونية كالسيد البطريرك اسطفان الدويهي وجبرائيل القلاعي ويوسف السمعاني « بان الطائفة المارونية لم تكن بلغت في تلك الايام (اي في القرن الخامس عشر) شأواً بلغته بعد

فكان معظم ابنائها يسكنون في شمالي لبنان » الى ان قال مستنتجاً « فاذا صح هذا في القرن الخامس عشر فكم بالحري يصدق على الموارنة قبل ثلاثمائة سنة » ثالثاً من عدم وجود اثار قديمة لهم في جبال كسروان وقد اشار الى هذا المعنى بقوله « وابنيتهم لا تكاد تتعدى نهر ابرهيم »

ثم انه قال بعد ذلك (مشرق ٣ : ٩ — ١٠) باكثر صراحة بعد ان الم الى ما سبق من الادلة التي ذكرناها آنفاً ما حكايته « وعندنا ان الموارنة لم يتوطنوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول يمكن تأييده بادلة عديدة . . . . وحسبنا اليوم ان نقول انه لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر . وكذلك لم نطلع في تواريخ الموارنة على ذكر رجل من مشاهيرهم اصله من كسروان قبل القرن السادس عشر . واذا جاء ذكر الموارنة في تآليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم الا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابرهيم فلا نرى لهم فيه اثراً . وكذا قل عن اديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابرهيم كما ان اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها » اه

فاستغربنا هذا الراي المتطرف بعد الذي بين ايدينا من الادلة التي تعارضه لا سيما وقد راينا مستندات صاحبه غير صالحة لاثباته وابطال الراي المخالف لانها كما يراها كل متبصر نقاد كلها سلبية فعدم وقوف حضرة الاب المشار اليه على اثار للموارنة في كسروان ولا على ذكر لاحد مشاهير الطائفة من كسروان وعدم ذكر كسروان في تآليف الصليبيين كمقاطعة كان يسكنها الموارنة في عصرهم كل ذلك ليس من البراهين القاطعة على عدم سكنى الموارنة في هذه المقاطعة بل جل ما هناك انما هو ان حضرة الكاتب الفاضل لم يقف على شيء من ذلك وان تواريخ الصليبيين لم تذكر شيئاً عن وجود الموارنة في كسروان وكل هذا لا يصلح

مقدمات لمثل هذه النتيجة التي استنتجها الا اذا اثبت هـذه القضية وهي « ان كل الامم التي لا اثار لها في بعض الاماكن ولم يظهر لها مشاهير في التواريخ ولم تذكرها تواريخ الصليبيين عند الكلام على البلاد التي تجاورها ليس لها وجود بتة » ولا نظن ان حضرته وكل ذي لب يسلم بصحة هذه القضية ولهذا لا يجب ان يسلم ايضاً بصحة النتيجة عنها على كليتها هرباً من المغالطات المنطقية التي لا يبنى عليها حقيقة ٠

اما نحن فاننا نثبت قضيتنا المعاكسة ازاء حضرة الاب لامنس من وجهين حريين بالاعتبار وهما اولاً اثار البنايات القديمة المسيحية بل المارونية التي بقيت وان كانت نادرة بالرغم عن صروف الحدثان ٠ ثانياً ما جاء في تواريخ هذه الطائفة التي تركها لنا مشاهيرها الذين استند اليهم حضرة الكاتب المشار اليه على ما ذكر وذكرنا عنه آنفاً ٠

وقبل ان ناتي على ذكر بقايا الاثار المارونية في كسروان نرى من الواجب ان ننبه مطالعي نبذتنا هذه الى امر لا نخالهم ينكرونه علينا وهو : انه لمن البديهي ان الموارنة سكان كسروان قبل فتوحه المشهور الذي حصل في اوائل القرن الرابع عشر لم يكونوا اصحاب ثروة تمكنهم من القيام بابنية فخيمة محكمة البناء من مثل كنائس واديار وغيرها حتى تقوى على الثبات الى امد بعيد رغماً عن عوامل الدهر التي صادمتها وهذا على ما نرى لا يحتاج الى برهان لان موارد الرزق في لبنان ولا سيما في مقاطعة كسروان هي اقل كثيراً من ان تسمح لاهلها ان ينفقوا عن سعة في البنايات المتقنة المتينة مما يتجاوز حد الحاجة الضرورية ٠ فاذا صح هذا التقدير المعقول كيف يسوغ لنا ان نطلب اثاراً لما لم يكن له عين حتى نستدل منها على اصحابها وتواريخهم ؟ ولا يعارض ذلك ما في بلاد جبيل والبترون من بقايا اثار الموارنة على ضعفها فان هاتيك البلاد لم تعرَّض لمثل ما تعرض له كسروان من الخراب والدمار والحريق ثم لم يخلُ من

الموارنة نظير هذا فاستطاعوا ان يحفظوا اثارهم تلك كما تُرى الان .
اما الذين دخلوا عليهم من الاجانب فانهم لم يدخلوا عليهم بحرب وعدوان قصد الانتقام كما دخل من دخلوا كسروان وقت فتوحه فاعملوا السيف والنار في اهله حتى اخلوا البلاد منهم واقام الفاتحون مكانهم وفي قلوبهم منهم مراجل احقاد تغلي لا يخمدها الا الانتقام ومحو اثار خصومهم لاسيما اذا كانت آثار معاهد دينية يتطيرون منها فلا عجب اذاً اذا كان الفاتحون الذين حلوا في ارض العدى وسكنوها بعدهم هدموا البِيَع والمعابد والاديار وابتنوا مساكنهم بانقاضها حتى لم يبقَ منها شيء يذكر . وبعد ذلك نقول :

ان من الاثار الباقية التي ناتي بها هنا حجة ودليلاً على اثبات قضيتنا بقايا كنيسة عريقة في القدم في ارض بكركي شرقي الكرسي البطريركي الماروني حالاً بجانب الكنيسة الصغيرة التي على اسم السيدة عليها السلام اسكان الدسكرة في الحرج من جهتها القبلية . فهناك يظهر لكل ناظر دون عناء حنية المذبح الكبير بارزة اكثر من متر من تحت الردم والتراب الذي صار ساحة للكنيسة الجديدة . .

ومنها اثار ديرين احدهما للقديس مارون بنواحي قرية شننعير من جهة الشرق والاخر للقديس يوحنا في قرية غزير ذكرهما الطيبا الذكر المطران يوحنا اسطفان مطران بيروت الذي كان مقيماً في مدرسة عين ورقة الشهيرة التي على مقربة من محل الدير الاول والمطران ارسانيوس في شهادة خطية ممضاة من كليهما ادياها لمجلس القضاة والحكام بتاريخ ٢٦ حزيران سنة ١٧٧٣ في دعوى نزاع على ماء بين اهل قرية شننعير واهل قرية دلبتا المجاورة لها . وهذه الشهادة تُرى مدونة في سجل الكرسي البطريركي الذي انشأه الطيب الذكر والحميد الاثر البطريرك بولس مسعد (ص ٥٠٦) ومنها ما حرفيته « لان منعرف من حين تعمرت شننعير

الماء جارية من المعصرة ونازل هي تبع شننعير وفي حياة الشدياق ابرهيم نصب حلاله في الضيعة المذكورة ويجيب الماء من فوق المعصرة ونازل اليها — ثم نزيد بعلم جناب الحكام والقضا المحترمين بان الماء المذكورة من زمان السابق قبل خراب كسروان ..... كانت الماء المذكورة لدير مار مارون الملازق الى قرية شننعير وماء غزير نبع المغارة كان لدير مار يوحنا الذي هو الان بيد الفرنج — ونهر الجديدة كان ماخوذ الى مينا طبرجا وراس الماء ونبع حراش كان ماخوذ الى جونية وبيانهم موجود الان يكون بشريف علمكم كما هو مشروح في التواريخ »

فمن هذه الشهادة يتضح انه كان يوجد ديران احدهما على اسم القديس مارون في شننعير والاخر على اسم مار يوحنا في غزير وان التواريخ ذكرت (او التقليد على الاقل) انهما كانا قبل فتوح كسروان وما كان من بقاياهما على عهد المطرانين المذكورين يثبت ذلك وهذه البقايا لا بد من ان تكون معروفة اذ ذاك عند كل اهل الجوار لان الشهادة في مادة تتعلق بحقوق قريتين متنازعتين ومن جوهرها اثبات نزول الماء الى شننعير من قديم العهود لتصلح حجةً على اهل دلبتا كما لا يغرب فلولا شهرة هذا الامر عند العموم لما ذكراه ولعارضهم في هذا الكلام الخصوم الذين لم يكونوا اغبياء . وقد صدق على هذه الشهادة كما هو مدوّن في ذيلها « البطريرك يوسف والمطران يواكيم يمين والمطران انطون والمطران عبد الله مطران عرقا (كذا) » هذا ولربما كانت بقايا هذا الدير لا تزال رسومها واطلالها باقية الى الان فلم نتحقق ذلك بنفسنا .

ومن هذه الاثار ايضاً بقايا دير قديم العهود للقديس مارون في صرود كسروان في مكان يقال له شهرةً « مراح الديب » مما يدنو من جبل موسى الشهير من القبلة . وكل تلك الناحية لم تؤهل الى اليوم بالسكان الا في ايام الصيف يتردد اليها اهل الجوار من اصحاب الاملاك

وكلهم يعرفون هذا الدير واطلاله باسم « دير مار مارون » ولهم فيه قصص مستغربة ينسبونها الى كرامات هذا القديس المعظم وهذا الاثر هو عندهم مقدس .

وفي قمة جبل موسى المذكور بقايا كنيسة قديمة العهد على اسم القديس جرجس وليس هناك من ديّار . وفي لحفه من الجهة الشمالية الغربية كانت رمة دير قديم ايضاً فاقام الان اهل الجوار على رسومه ديراً جديداً وهو المعروف بدير مارجرجس الجبل بالقرب من قرية يحشوش وفي اسفل قرية يحشوش هذه كان ايضاً رمة كنيسة اقدم من دخول النصارى الى تلك الناحية مؤخراً يقال لها « سيدة غوشريا » قد رممها اهل الجوار من النصارى منذ اواسط القرن السابق بعد ان اشتروا المحل من الشيعية الذين كانوا يسكنون تلك الناحية من قبل ويعرفون هذا المحل (بكسار السيدة) كما هو مذكور في صك البيع الاصلي المحفوظ الى الان وفي شهادات جمة خطية عن لسان الشيعية المذكورين الذين كانوا يملكونه و يسكنون هناك قبل النصارى ، وكل هذا شهير لا يختلف فيه اثنان

ومن ذلك ايضاً كنيسة عريقة في القدم على شرفة الجبل الذي فوق قرية لاسا من الشرق على اسم القديس يعقوب وهي الآن مزار للشيعية هناك باسم « النبي هدوان » وبالقرب من هذه الكنيسة لجهة قرية شواتا المأهولة بالشيعية الى الان محل خرائب كثيرة لاديار وكنائس قديمة و بجانبها نبع يقال له للان « عين الديارة » وقد صحفه المتاولة بقولهم « عين الدوارة » وهم يقرون ان الخرائب نصرانية الاصل . وفي قرية لاسا نفسها وجدت اثار مسيحية كثيرة ومدافن تحت ردم عميق في المحلة المعروفة من قديم الزمان حتى الان عند الشيعية انفسهم باسم « دارة الكنيسة » وكل ذلك في مقاطعة كسروان الذي يمتد من نهر الجعماني جنوباً الى نهر ابرهيم شمالاً كما لا يغرب

ويوجد في لحف جبل فيطرون لجهة الغرب مما يشرف على قرية عشقوت رمة كنيسة قديمة العهد ايضاً على اسم القديس جرجس والى جانبها شجرة سنديان لا يقل عمرها عن خمسمائة سنة ولا يجسر احد ان يمسها لانها من محرمات صاحب المقام الذي يجود على زائريه المستشفعين به من اهل الجوار بكرامات باهرة . وقد كان من عهد غير بعيد شرع بترميم هذه الكنيسة بعض الرهبان الحلبيين اللبنانيين اجابةً لسؤل المؤمنين فلم يتموها الى الان .

وجاء في تاريخ بناء دير مار شليطا المشهور في مقبس بجوار قرية غوسطا ان قد كان هناك رمة كنيسة متوغلة في القدم اشتراها معا حولها من الارض والخرائب الخوري يوسف المحاسب . وتاريخ بناء هذا الدير المبارك قد نشره حضرة الاب ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني الماروني في مجلة الشرق ونقل هناك صك المشتري نفسه بحروفه (٥ : ٢٦٩) ومنه يُستدل على ان بقايا هذه الكنيسة هي من قبل فتوح كسروان كما يرى كل من تأمل في هذا التاريخ . وبجانب هذا الدير ايضاً رمة كنيسة اخرى عريقة في القدم على اسم «مار بطرس» لا تزال ترى حتى الان .

وكذلك جاء في تاريخ بناء دير مار مارون الرومية الذي في اسفل قرية القليعات من جنوبيها وهو الان مدرسة بطريركية شهيرة تحت ولاية فرع ابي نادر صفير الماروني ان قد كان هناك رمة كنيسة قديمة العهد اشتراها المؤسس من المسلمين من نيف ومائتي سنة وهي مذكورة في نفس صك المشترى الاصلي المحفوظ بين اوراق هذه المدرسة

هذا واننا لنضرب عن ذكر ما بلغنا عن الثقات من امر وجود رمم قديمة في قرية عرامون وفي قرية الجديدة التي فوق غزير وفي قرية الصفراء التي بساحل الفتوح مما لا يزال الاهلون يعرفونه ويكرمونه الى الان كآثار كنائس متوغلة في القدم حفظها التقليد المحلي باسماء القديسين التي كانت

مخصصة لهم .

اما التواريخ المارونية القديمة فهي طافحة بذكر وجود الموارنة في مقاطعة كسروان من قبل فتوحه المشهور .

فمن ذلك ما قيل عن المردة والجراجمة وسكان جبل لبنان في ذلك العهد من انهم استولوا على كل ما هو من جبل اللكام الى المدينة المقدسة وفي جملة ذلك مقاطعة كسروان الذي لا يصدق على سكانها انهم كانوا غير مسيحيين في تلك الآونة . وقد كانوا بالتالي موارنة تحصنوا في هذه الجبال المنيعة ليحفظوا دينهم وشرفهم ويحقنوا دماءهم لانهم كانوا عرضةً لنوائب الدهر بعد الحروب التي باشروها دفاعاً عن ذلك وذوداً عن حياضهم ويقال في تواريخهم ان بعض امرائهم قد جعلوا مقامهم في قرية بسكنتا التي جعلتها الطبيعة كقاعدة لهذه المقاطعة لانها حريزة جداً وموقعها في راس قاطعي هذه المقاطعة التي كانت فيما يقال تسمى الداخلة او العاصية فسميت بعد ذلك كسروان نسبةً الى احد هؤلاء الامراء من الموارنة وكان اسمه كسرى والالف والنون في آخره انما هي اداة النسبة في اللغة السريانية التي كانت لغة البلاد . وهذا الامير قد اقام في بسكنتا ايضاً على ما يروى .

وقد روينا في القسم الاول من هذه الرسالة عن الكتاب القديم الذي ذكره العلامة الدويهي في تاريخه وقال فيه انه وصل اليه من سالفه البطريرك جرجس وانه منسوخ في سنة ١٣١٥ « ان الملك يوحنا خليفة الملك يوسف قد قاتل الرجزة في بلادهم عند ما كان سائراً بجيشه الى جبل الجليل وبعد ان فرغ من قتالهم عاد وسكن بسكنتا » ومن المعلوم ان فتوح كسروان على ما ذكر محمد بن صالح في تاريخ بيروت وغيره من المؤرخين كان في سنة ١٣٠٥ فيكون ناسخ الكتاب المذكور معاصراً لهذا الفتح .

فمن كل ذلك يتحصل ان الموارنة كانوا يملكون مقاطعة كسروان ويسكنونها ولم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ولم نسمع قط ان احداً اجلاهم عنها قبل هذا الفتح الذي كان في اول القرن الرابع عشر ·

ومما يثبت ذلك ما جاء في تاريخ المطران ثاوذورس مطران حماه (ولا ندري ما اذا كان هذا المطران من الموارنة او من سواهم) فانه يتكلم عن كسروان قبل فتحه وتدميره بما يدل دلالة صريحة على ان اهله كانوا نصارى موارنة ويقول ايضاً ان الفاتحين قد دمروا الكنائس والاديرة كلها ما عدا دير مار شليطا مقبس الذي سلط عليه الفاتح مائة عامل ليدكوه الى الارض فعادوا عنه خائبين لمتانة بنائه وفي جملة ما قال : ان الذي بناه اولاً كان رجلاً افرنجياً يقال له « الكواليرباخوس » · وانما دعاه الى بنائه هناك ما كان من امر الموارنة وكثرتهم في هذه الناحية وظل الامان والسلام في بلادهم مما يرشد اليه العقل السليم · ومما يدل على صحة هذا الخبر بقاء آثار هذا الدير الى ان اشتراه الخوري يوسف المحاسب وبنى الدير الجديد على اطلاله وبانقاضه كما نوهنا غير مرة هنا ·

وقد قال العلامة الدويهي الجليل القدر في تاريخ سنة ١٢٨٧ (ص ١١٩) ما حكايته « ومن حيث ان الكسروانيين والجرديين قد نزلوا من الجبال لنجدة الافرنج » وقال ايضاً في المحل نفسه « امر الملك الناصر محمد بن قلاوون تركمان الكورة ان ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الافرنج وكان دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد وجسر المعاملتين تحت غزير » وجاء في التاريخ الاكبر ان اصحاب البلاد في تلك الايام قد احتاطوا ما امكن « لاجل ما يتجدد من الاخبار ومنع الافرنج عن الاجتماع باهل كسروان » (وقد اثبت ذلك عنه ناشر تاريخ الدويهي على تاريخ سنة ١٢٩٢ ص ١٦٣)

فكل ذي بصيرة يرى مما كان من ميل اهل كسروان الى الافرنج ومن اجتهاد خصوم الافرنج في منع اهل كسروان عن الاجتماع بهم ولاسيما في تلك الحروب الصليبية المعروفة ما يرجح راينا ويضعف الراي المخالف . بل اذا أضفنا هذا الى ما ذكرناه من الاثار ومن ملخص قصة بناء دير مار شليطا مقبس لاول مرة يصبح برهانًا قاطعًا كما لا يغرب

وقال الاسقف العلامة جبرائيل بن القلاعي في تاريخه المختصر (على ما هو مذكور في كتاب تاريخ الدويهي مما اثبته ناشره (ص ٩٨) «كان الموارنة في دخول المسلمين الى بلاد الشام يسكنون جبل لبنان ويتولون باقتدارهم وسطوتهم على الجبال والسواحل التي تجاورهم» الى ان قال : «وكانت بلادهم من حدود بلاد الشوف الى بلاد الدريب» وبعيد ذلك قال «واقاموا اسقفاً لقرية راس المتن واسقفاً لقرية بجرصاف واسقفاً لقرية بحنس ثم سعوا في تجديد قرى وحقول بيروت القديمة وغرسوا بساتين وكروماً على نهر العرعر وكان اميرهم يسكن بسكنتا» وكلامه هذا صريح في معنى القضية التي نريد اثباتها .

ثم ان زجليات الاسقف المذكور المعروفة بزجليات ابن القلاعي في وصف خراب كسروان وشدة بأس قومه الذين سقطوا في الحرب هي مشهورة الى الان عند الموارنة وغيرهم . ومما يثبتها له قول العلامة الدويهي في تاريخه المشهور (ص ١٥٤) عند تعداد تآليف هذا الاسقف الفاضل «وله زجليات اخبار كسروان» وفيها يصف حسن بلاء موارنة كسروان وما نابهم اخيرًا من القتل والحريق ودمار الكنائس والمعابد والاديار حتى خربت البلاد واستولى عليها الفاتحون .

ومن المعلوم ان هذا ابن القلاعي هو من قرية لحفد التي لا تبعد كثيرًا عن حدود بلاد كسروان وقد عاش في منتصف القرن الخامس عشر اي بعد فتوح كسروان بنحو قرن ونصف قرن فلا بد من ان يكون

سمع من جده لابيه على الاكثر رواية هـذا الفتوح واخبار الامم التي نُكبت في كسروان · ومن المرجح ان يكون انشأ زجليته هذه اجابة لداعي رغائب الشعب المار وني الذي كانت نكبة اخوانه في كسروان لا تزال على السنة افراده والأ فمن قرأ قصة حياة هذا الاسقف الغيور وعرف مشاغله الكثيرة في المناضلة عن الدين القويم وفي تثبيت امته على مبادئه الصادقة التي ورثوها مع لدمعن اجدادهم · ورأى كثرة المواضيع التي كتب فيها لهذه الغاية اقرّ لا محالة بانه لم يكن لولا ما نوّهنا به ليضيع اوقاته في نظم هذه الزجلية الكسروانية التي نحن بصددها · وانما اراد بذلك ان يتبع ذوق الشعب وميله ويترك للخلف هذه الذكرى بما يستطيع الشعب ان يتعلمه ويتغنى به ليذكرهم بما قاسى اجدادهم لاجل الايمان القويم فيضرم في قلوبهم جذوة جديدة من الغيرة والحمية في المحافظة على هذا الميراث الثمين الذي تركه لهم اجدادهم الفضلاء مصوناً بدمائهم

فاذا صح ذلك لا محل للقول بان ابن القلاعي انما كتب هذه الزجلية عن محض وهم وتصور شعري غير مستند الى حقيقة كما قد يُظن لانه لم يكن شاعراً ولا قصاصاً ولا متعيشاً يتخذ مثل هذه الاناشيد والحكايات الوهمية حرفةً للارتزاق فلم ينظم هذه الزجليـة اذاً الأ لغاية اسمى وانفع على حسب ما كان يرى من الحاجة عند قومه توصلاً لغايته الحميدة التي وقف نفسه واتعابه لها وكان يسعى اليها على الدوام بينهم · ومن ثم فاذا لم يكن كل كلامه واقعياً فلا اقل من ان يكون اساسه حقيقياً · ولو لم يكن معتقداً ان نكبات كسروان قد حلت في قوم عزيز عليه وعلى امته لما كان دُفع الى نظم حوادثهم والعناية بها بل لما كان عرّض نفسه للامتهان والاستخفاف عند قوم عرفوا هذه الحوادث بالتواتر لقرب عهدها منهم ومن آبائهم ولم يكن من الممكن ان يغرب عنهم مَن كان سكان كسروان في ذاك الزمان بل ربما كان بين الذين يكتب لهم اغانيه اناس من اهل

كسروان انفسهم ممن انهزموا من وجه العدو الى اخوانهم في جهة اخرى ظللها الامان وانست بابناء جلدتهم ٠

واليك شاهد اخر عن ابن الحريري وابن سباط المؤرخين الشهيرين نقله عنهما العلامة الدويهي في تاريخ سنة ٧٠٣ ونحن ننقله عن كتاب الدويهي ملخصاً لتعذرنا عن الوصول في الحال الى هذين المصدرين وهو: بعد ان تغلب اقوش الافرم نائب دمشق في الموقعة التي جرت بينه وبين الدروز عند عين صوفر وهزمهم حتى تحصنوا في مغارة نيبيه عند نهر انطلياس ونكل به هناك « احاط العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل اليها فخربوا القرايا وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا واسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم» فقوله « الدروز والكسروانيين » مع قوله « وهدموا البيع » يتحصل منه ان الكسروانيين كانوا من النصارى ولذلك فصلهم عن الدروز كما يرى المتامل ٠

اما كون هؤلاء النصارى هم من الموارنة او من اليعاقبة او من سواهم فهذا يظهر مما سلف بيانه حتى الان ٠ وعندنا ان هؤلاء النصارى الكسروانيين اذا لم يكونوا كلهم موارنة فلا اقل من ان يكون السواد الاعظم منهم موارنة ولا يعارض ذلك قول الادريسي الذي اورده حضرة الاب لامنس كما ذكرنا آنفاً من ان سكان جونيه كانوا نصارى يعاقبة ٠ بل بالعكس فاننا نرى من هذه الشهادة ما يسند بالاحرى حجتنا ٠ لانه لم يقل احد قبل الادريسي ولا بعده ان اليعاقبة قد سكنوا قط هذه الجهة من جبل لبنان بل جل ما نعرفه من تواريخ هاتيك الاعصار ان اليعاقبة لم يكونوا يجسرون على الدخول الى هذا الجبل الذي عظمت فيه سطوة الموارنة الذين كانوا يطاردون هذه الامة كلما قدروا على ما يظهر من تواريخها ٠ وصاحب كتاب معتقد اليعاقبة نفسه وهو على الاقل من القرن

الثاني عشر (كما رجح العلامة السمعاني في مكتبته الشرقية) يعترف صريحاً بان كل السريان الذين في جبل لبنان قد تبعوا القديس يوحنا مارون وقد ذكرنا ذلك في القسم الاول من هذه النبذة . ونرى الذين مالوا من اهل جبل لبنان الى مقالة اليعاقبة قد خرجوا منه حتى اتصلوا بهم خارجاً عن لبنان . والذين سكنوا بعد ذلك في جبل لبنان من هذه الامة انما سكنوا بين الموارنة في جبة بشراي وغيرها من شمالي لبنان آتين اليه من الخارج قصد ان يضلوا الموارنة كما يتحصل من تاريخ هذه الامة للعلامة الدويهي وغيره . فاذا سلمنا بان سكان جونيه كانوا نصارى يعاقبة كما ذكر الادريسي فمن الضروري ان نستنتج عن ذلك ان من نصارى كسروان كان الموارنة ايضاً . لانه لا يتأتى ان يكون سكان جونيه من النصارى دون أن يكون منهم قسم وافر في باقي جهات كسروان وله شان وقوة . فاذا صح ذلك ليس من المعقول ان يقف الموارنة عند حدود كسروان فلا يتخطون نهر ابرهيم كما يريد حضرة الاب لامنس بل هذا مما يبرهن انهم امتدوا الى هذه المقاطعة ايضاً واذا لم يكونوا سكنوها وحدهم فلا اقل من ان يكونوا اختلطوا باهلها واشتركوا ايضاً بالسكن فيها معهم . ومما يثبت كون الموارنة كانوا يحتلون مقاطعة كسروان على ما يرشد العقل الصحيح وجود كرسي بطريركيتهم في يانوح مدات طويلة كما افاد العلامة الدويهي في كتاب سلسلة بطاركة الموارنة من يوحنا مارون الثاني الذي كان في نحو سنة ٩٣٩ م وهو الرابع بعد القديس يوحنا مارون الكبير حتى ما بعد سنة ١٢٨٠ : ومن المعلوم ان قرية يانوح هي واقعة في اطراف بلاد جبيل مما يلي مخرج نهر ابراهيم اي على حدود كسروان . فلا يسلم العقل السليم بان البطاركة الاولين قد اتخذوا كرسيهم كل هذه المدة الطويلة في اطراف بلاد الموارنة وعلى حدود بلاد لم يكن لهم فيها رعية عديدة تحت سلطتهم كما يستنتج من الرأي المعاكس لرأينا وهذا

ضرب من المحال . والذي يزيد هذا الدليل الراهن رسوخاً انما هو هجر البطاركة لكرسي سيدة يانوح من بعد هذا التاريخ الذي بعده بقليل كان خراب كسروان ودخول الامم الغريبة اليه وحلولهم فيه حتى دثر هذا الكرسي ومن انقاضه التي لا تزال تشاهد الى الان يظهر انه كان من الاهمية بمكان من حيث بناؤه وحسن موقعه . ومن الغريب ان يتفق تاريخ هجره التام مع تاريخ فتوح كسروان دون ان يكون من علاقة جوهرية بينه وبلاد كسروان . فلو لم يكن من اسباب وجود كرسي بطاركة الموارنة في يانوح على حدود كسروان ان هذه المقاطعة كانت مأهولة ايضاً بالموارنة لما صح هذا الاتفاق الذي يعد من الغرائب اذا نفينا وجود الموارنة في كسروان لذاك العهد كما يرى صاحب الراي المعاكس

ولكن يروق لنا بزيادة ان نقبل شهادة الادريسي من حيث قوله ان سكان جونيه نصارى وان نرفضها من جهة قوله « يعاقبة » بحيث يلزم ان يقال « موارنة » بدلاً منها فتكون الشهادة المذكورة من احسن الادلة على اثبات قضيتنا . اما وجه رفضنا قوله « يعاقبة » فهو لان الادريسي وحده اثبت ذلك ولم يسنده سواه من مؤرخي تلك الاعصار . ثم لان الادريسي الذي ذكر هذه العبارة بالعرض على ما يظهر لم يكلف نفسه الى التدقيق في امر الفرق بين الفرق النصرانية لان ذلك لم يكن من غرضه كما انه لم يدقق ايضاً في وصف جونيه لانه قال هنا انها «حصن» وقال في محل آخر انها « كورة » ولا يخفى ما بين الحصن والكورة من الفرق . وجونيه لم يدعها احد سواه « كورة » او على الاقل لم يُعثر على شيء من ذلك حتى الان . فلا عجب اذاً اذا خلط في تعيين فرقة النصارى سكانها ومذهبهم وفي ذمته واعتقاده ان كل النصارى امة واحدة فلا يهمه الاسم المميز بين كل فرقة منهم

اما وجه استحساننا ابدال لفظة « يعاقبة » بلفظة « موارنة » لا بلفظة

« ملكية » او سواها فهو لانه قد يتفق للرجل الاجنبي كالشريف الادريسي ان يخلط بين اليعاقبة والموارنة لان هاتين الفرقتين كانتا في تلك الايام متفقتين في الطقس واللغة والزيّ واكثر العوائد الظاهرية كما لا يغرب فمن المرجح ان الادريسي كان يعرف من نصارى السريان ملة اليعاقبة فاذا كان اتى جونيه بنفسه ورأى نصاراها فلا عجب ان يكون خلط بين اليعاقبة والموارنة دون سواهم وكتب ما قام في ذهنه من هذا القبيل دون الحقيقة . وما بيناه الى الان يسوغ هذا التقدير و يسعفنا في تقريره

فالادريسي انما هو رجل مغربي من نواحي الاندلس طاف قسماً من الدنيا وكتب ما شاهده في اسفاره فلا بدع اذا لم يكن دقق في مثل هذا الامر ونحن نرى بين مؤرخي المسلمين من اهل الشرق من لا يعرف الموارنة بتةً وقد قال ابن الاثير فيهم ما معناه انهم امة قديمة لم يبقَ لها من اثر. فتأمل . بل نرى في هذا العصر عصر النور من سياح الفرنجة من يخلط بين الامم الشرقية اكثر من هذا الخلط ايضاً و يعتمد في بعض النقول والاقاصيص على غير ثقة ولذلك لا اعتبار لهم عند العلماء في تواريخ الامم واحوالهم الجوهرية : فكيف والحالة هذه يمكن الاعتماد على قول الشريف الادريسي بان سكان جونيه نصارى « يعاقبة »

بقي اذاً على الارجح ان يكون سكان جونيه من الموارنة لانه ثبت من هذه الشهادة انهم نصارى ومن البينات التي نوهنا بها الى الان ان من سكان كسروان كان الموارنة . هذا وفي جونيه اثر قديم يرتقي الى عهد الصليبيين شهير بالبرج وكل من رآه لا يشك في انه كان فيما سلف كنيسة وفيه الى الان من الدلائل ما يدفع كل ريب .

وهذا آخر ما اردنا اثباته في معارضة رأي حضرة الاب لامنس العالم الفاضل من حيث استيطان الموارنة في كسروان قبل فتوحه المشهور فان اصبنا الغرض فذلك جل قصدنا مع الاقرار بفضل حضرة الباحث

المجتهد المذكور ونفحه من عبارات الشكر ما هو اهله على ما اتحفنا به من الفوائد الجليلة فيما نشر من ابحاثه عن تاريخ بلادنا واثارها العادية واننا ننتهز هذه الفرصة لاظهار تمنياتنا القلبية في ان يداوم هذا العمل الحميد الذي لا يضيع اجره عند الله والناس بل يكتب له علينا افضل جميل واجمل ثواب . وان لم نصب المرمى فنحن لا نستنكف من الاقرار بعجزنا وتقصيرنا وانما كتبنا ما كتبناه هنا عن حسن ظن وسداد قصد وعلى كل حال ان فوق كل ذي علم عليماً فله المجد الى ابد الدهور

آمين

نبذة

في رد ما جاء في مجلة المشرق البيروتية الشهيرة بخصوص الموارنة

وقفنا هذه الايام على كلام اثبته حضرة الاب لويس شيخو اليسوعي بتوقيعه في العدد الثاني عشر من مجلة المشرق البهية لهذه سنتها السابعة (ص ٥٨٦) تحت عنوان « مطبوعات شرقية جديدة » في آخر كلامه على « قائمة المخطوطات السريانية في مكتبة كلية كمبريج » وهذا هو بحرفيته « ومما يفيد تاريخ بلادنا كتاب اسفار الاسرار (ص ٧٥٤) لصليبا بن يوحنا الموصلي كتب سنة ١٣٣٢ م وذكر فيه بدع الشرق وطوائفها كالسريان والنساطرة . وخص الموارنة بالذكر في الصفحة ١١٣

ومن تبعهم قال : « واكثر من تبعه (اي مارون الناسك وجعله في ايام موريقي) اهل كفر طاب واهل مدينة حماه وبسري (بشري) والعواصم وكثيرين من الروم.... فلما مات (اي مارون) بنوا له اهل مدينة حماه دير وسموه على اسمه دير مارون وقوي امرهم بالملك هرقل »

فاستغربنا والحق يقال مراد حضرة الاب الكاتب المشار اليه هذه الفقرة وكيف انه قد خص كتاب اسفار الاسرار من بين الكتب العديدة التي ذكرها في هذه النبذة بالنقل عنه وكان عندنا اغرب من ذلك نقله عن الصفحة ١١٣ ماجاء عن الموارنه مما يتهمهم زوراً ببدعة المنوثيلية بكلام لايختلف عن كلام سعيد بن بطريق المشهور في حق مارون والموارنة المردود مراراً رداً محكماً للغاية والمرفوض تمام الرفض عند ائمة المحققين الاعلام

ثم وقفنا ايضاً بعد ذلك على مقالة لبولس الراهب اسقف صيدا (في الفرق المتعارفة بين النصارى) نشرها حضرة الاب شيخو نفسه في العدد الخامس عشر من مجلة المشرق ذاتها (س٧ ص٧٠٢) جاء فيها ماحكايته « ان فرق النصارى المتعارفة في وقتنا هذا اربع فرق . وذلك ملكية ونسطورية ويعاقبة و (منوثلية) » ثم في الصفحة ٧٠٤ « اما (المنوثليون) فيعتقدون انه اقنوم واحد الهي وطبيعتان طبيعة الهية وطبيعة بشرية وفعل واحد الهي ومشيئة واحدة الهية » ثم في الصفحة ٧٠٦ « فاما المشيئتان فهو رد الاحتجاج عليهما في الرد على (المنوثليين) » وفي كل هذه الفقرات التي اثبتناها هنا قد جعل حضرة ناشر هذه المقالة لفظة «المنوثلية والمنوثليين» بين هلالين . ثم جاء في المقالة عينها اسم « المنوثليين » (ص٧٠٧و٧٠٩) خمس مرات غير مقيد بهلالين كما في الفقرات السابقة . وهذا امر استوقف نظرنا واستلفت خاطرنا ملياً حتى عرفنا بتوكيد عن ثقة ان مكان لفظة « المنوثليين » المقيدة بين هلالين كان في الاصل لفظة « الموارنة » فتصرف حضرة الناشر بها هذا التصرف بان وضع « المنوثليين » مكان

الموارنة ونبه الى ذلك هذا التنبيه اللطيف بالهلالين : ولما تصفحنا هذه المقالة بما يلزم من الامعان لم نجدها من الآثار التي لا يُستغنى عن نشرها في هذا الباب لانه لم يكن فيها من المعاني الرفيعة والحجج الدامغة ما لم يتوفق اليه احد الاباء والعلماء او ما يحتاج اليه في القضايا النظرية التي تتعلق بهذه المواد الاعتقادية حتي يندفع حضرة الاب شيخو الى العناية بنشرها خدمةً للدين او العلم لا سيما وقد عرفنا مما كتب في امر هذا بولس الراهب وتاريخ عهده في احد اعداد السنة الاولى لمجلة المشرق (ص ٨٤٠) ان صاحب هذه المقالة المذكور انما كان في اوائل القرن الرابع عشر .

ولذلك بتنا نعمل الفكر في امر اهتمامه بنشر هذه المقالة في مشرقه والغاية الحميدة التي توخاها بذلك وقد قابلنا بين هذا العمل وبين اجتهاده فيما اثبته من كتاب اسفار الاسرار المذكور آنفاً مما يتعلق بالموارنة واتهامهم بالمنوثلية فلم نتوفق الى تخريج ينزه حضرة الاب المذكور عن الميل الى فتح باب هذه القضية المردودة بغامز لطيفة ظناً منه بان مثل هذه الاثار التاريخية التي اكتشفها لم يصل اليها احد قبله . وهذا مما اثبت لنا ما كنا نسمعه عن لسانه من بعض الناس بانه مستمسك كل الاستمساك بالراي الذي يزعم ان الموارنة كانوا منوثلية خلافاً لما يدّعون ولو مهما اجتهدوا في الرد والبرهان ومهما كتب علماؤهم مناضلةً عن رايهم هذا فان عنده من الاثار التاريخية ما ينقض قضية الموارنة هذه ولكنه لا يحب ان يشهرها الان خشية من مس حاسات الطائفة المذكورة

اما نحن فلم نقف على كل ما عند حضرة الاب شيخو المشار اليه من المستندات على انه يمكننا ان نقول بديهياً انه اذا كانت كل مستنداته نظير التي وقفنا عليها في مشرقه مدة بعد اخرى فليسمح لنا ان نصرح له هنا بانه بين امرين لا يستطيع الخروج منهما اي اما انه لا يدرك قوة البرهان

في هذه القضية ولا قيمة المستندات التاريخية منطقياً واما انه يتعجل بالحكم جزافاً دون ان يطالع اقوال معارضي قضيته هذه ودون ان يتحرى الحقيقة بالتجرد الواجب لاهل البحث والتدقيق ليكون على ثبت من كلامه حذراً من ان يلقيه على عواهنه في مثل هذا الموقف الحرج

هذا ونحن لا نحب ان نخوض مع حضرة الاب شيخو في الجدال ولكننا نرانا مضطرين ان نبين له بما امكن من الايجاز ضعف هذه الشواهد التي احب ان يتحككنا بها و يستند اليها فنقول :

اولاً · ان صليبا صاحب كتاب اسفار الاسرار هو متأخر كثيراً عن سعيد بن بطريق والظاهر انه استند كغيره في روايته هذه عن « مارون والموارنة » الى هذا الاخير الذي امسي كلامه مردوداً تاريخياً ومرفوضاً عند أئمة المحققين علمياً ايضاً وقد بين ذلك كثير من علماء الموارنة وغيرهم نخص منهم بالذكر العلامة المحقق البطريرك اسطفانوس الدويهي في القسم الثاني من كتابه المعروف بتاريخ الموارنة المطبوع منذ سنوات في المطبعة الكاثوليكية في بيروت حيث تطبع مجلة المشرق عينها · وانما ذكرناه هنا وحده دون ان ناتي بذكر العلامة السمعاني والحاقلي والباني وبارونيوس ونطاليس اسكندر والكويان وغيرهم ممن اثبتوا بطلان ترهات ابن البطريق في هذه المادة لان الوصول الى هذا الكتاب الذي تتداوله الايدي في هذه البلاد اسهل منالاً وهو مكتوب باللغة العربية التي يفهمها الكل هنا وفيه ما يغني اللبيب عن كثرة المطالعات والمراجع ·

والذي يدل علي ان صليبا المذكور انما استند في هذه الزواية الى سعيد بن بطريق هو انه يذكر في هذا الموضع على ما يظهر كلام هذا الاخير بالحرف الواحد تقريباً فنصيبه اذاً من الصحة نصيب الاصل الذي ورده لا محالة · ومع هذا فبما ان حضرة الاب شيخو قد اورد عبارة صليبا الموصلي مبتورة فلا ندري ما اذا كان هذا عند ذكره « مارون »

بين انه اراد به غير مارون الناسك كما فسر الاب شيخو في الفقرة التي
زادها على الاصل بين هلالين او انه تقيد بكلام ابن بطريق كل التقيد
فقال نظيره (مج ٢ ص ١٩١) « وكان في عصر موريق ملك الروم راهب
يسمى مارون وكان يقول ان لسيدنا يسوع المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة
وفعلاً واحداً » فان كان ابن صليبا صرّح بان مارون هذا هو غير
الناسك فيكون بذلك اراد ان يصلح رواية ابن بطريق الذي على مايظهر
لم يميز بين مارون الراهب ومارون الناسك واما اذا كان صليبا لم يصرّح
بهذا الفرق بين مارون ومارون فكيف ساغ لحضرة الاب شيخو ان
يصحف رواية الموصلي بعد ان بترها ؟ وكاننا به اراد ان يبدي رايه في
هذا الامر بلطف خفي فوهم بان الموارنة انما ينسبون الى مارون مبتدع
مذهب المشيئة الواحدة كان في عهد موريقي ملك الروم لا الى مارون
الناسك القديس المشهور في الشرق والغرب وقد قصد بذلك على ما يلوح
لنا ان يسقط كلام علماء الموارنة وغيرهم في رد كلام ابن البطريق .

لكن كيف يوفق حرسه الله بين رايه هذا في مراد ابن البطريق
والموصلي الذي اخذ عنه وبين قولهما بعيد ذلك ما حكايته « فلما مات
(اي مارون) بنى له اهل مدينة حماه ديراً وسموه على اسمه دير مارون : ؟ »
ألا يرى ان هذا الكلام لا ينطبق على مارون اخر غير مارون الناسك ؟
لان الدير الذي بناه اهل حماه على ضفاف العاصي انما كان على اسم مارون
الناسك وقد بني قبل عهد موريقي ملك الروم بنحو قرنين وكان رئيساً على
كل اديار سورية الثانية وكان رهبانه زهاء الثمانمائة وقد اشتهروا بالمناضلة
عن الدين القويم وبالانتصار للمجمع الخلقيدوني وقد تحملوا لذلك اشد
الشدائد في عهد انستاس ملك الروم وساويرس بطريرك انطاكية وبطرس
الحموي في اوائل القرن السادس وقتل منهم ٣٥٠ راهباً لا تزال الكنيسة
الكاثوليكية تعيد لهم في اليوم الحادي والثلاثين من تموز وقد انتصر لهم

المجمع المسكوني الخامس وذكرهم مستفاض فيه وكتاباتهم مدونة بين اعماله وقد جدد بناء ديرهم يوستنيانوس الكبير ملك الروم الصالح كما ذكر بروكوب المؤرخ المعاصر له ·

فاين هذا من كلام ابن البطريق والموصلي ؟ بل من رأى حضرة الاب شيخو بان مارون الذى ذكره الموصلي ونسب الموارنة اليه هو غير مارون الناسك وكلاهما يصرحان بان مارون الذي يقصدانه بكلامهما انما هو الذي بنى اهل حماه ديرًا على اسمه معروفًا بدير مارون ؟ الا اذا كان الاب شيخو المذكور توفق ايضًا الى اكتشاف دير اخر بناء اهل حماه على اسم مارونه الاخر المبتدع الذي جمله في عهد موريق ملك الروم اي اوائل القرن السابع ·

ثانيًا · ولنأت الان الي برهان اخر تاريخي من شانه ان يفحم كل مكابر اراد ان يستند الى شهادة ابن البطريق ونسج على منواله · وهو انه لمن المقرر تاريخيًا عند كل المحققين ان بدعة المشيئة الواحدة المعروفة بالمنوثيلية انما نشأت في سنة ٦٢٨ عند ما كان هرقل ملك الروم راجعًا من حرب الفرس بعد ان انتصر عليهم انتصارًا باهرًا واسترد سورية منهم وقد خُدع بهذا المذهب الشاذ لانه لم يكن سمع به قبلاً ثم رجع عنه كما هو مشهور وبقي هذا المذهب شائعًا في الشرق خاصة حتى المجمع المسكوني السادس الذي سعى بعقده في قسطنطينية قسطنطين الرابع ملك الروم المعروف باللحياني في نحو سنة ٦٨٠ ضد هذه البدعة ·

فاين هذا من رواية ابن البطريق وصليبا الموصلي بان الذي انشأ هذه البدعة انما كان راهبًا اسمه مارون في عهد موريق ملك الروم ؟ وعلاوة على ذلك فان المجمع المشار اليه الذي انما عُقد لمقاومة هذه البدعة ومحاربة اصحابها واشياعها وقصب كل من قال بها او نُسب الى احد مبتدعيها وانصارها كان اولى بان يدقق في تاريخها واسم مخترعها والذين

تبعوه وعُرفوا باسمه الى غير ذلك من الامور الضرورية في مثل هذا البحث ولقد فعل مبالغًا في التنقير والتنقيب عن هذا الامر الى ما لا زيادة عليه لمستزيد وهذه اعماله المنشورة باليونانية واللاتينية ولا ذكر فيها لرجل اسمه مارون بين المبتدعة او لفئة من اتباعه نُسبت اليه نحرمها هذا المجمع المقدس لكونها منوثيلية والا فليس من المعقول ان يقال بان هذا المجمع المسكوني العظيم قد اغفل الموارنة ومارون المبتدع ولم يأتِ بذكرهم سهوًا او حرمةً او خوفًا او لعلة اخرى من العلل مع انه لو كان ما رواه ابن بطريق والذين اخذوا عنه مقارنًا للصحة والحقيقة تأتى عنه لا محالة ان اسم الموارنة مرادف لاسم المنوثيلية بحيث يصح ان يدعى كل منوثيلي مارونيًا ·

ولهذا نرى سعيد بن بطريق يقول في تاريخه المذكور بكل صراحة ان هرقل ملك الروم وانوريوس بابا رومية الذي يتهمه افتراء بالمنوثيلية وقورش بطريرك الاسكندرية وسرجيوس وبيروس اسقفي قسطنطينية ومكدونيوس ومكاريوس اسقفي انطاكية كلهم موارنة وهو يريد انهم منوثيليون · فكيف يصح اذًا بعد شيوع هذا الاسم الى هذا الحد على راي ابن بطريق حتى دعي به كل منوثيلي اي كل من قال بمذهب المشيئة الواحدة ولا يرد ذكره في المجمع السادس المقدس المشار اليه لاجل حرمه وحرم كل من دعي به كما كان الواجب ؟

هذا وقد عقد فوق ذلك عدة مجامع خاصة في الشرق والغرب قبل هذا المجمع السادس لاجل مقاومة هذه البدعة الوخيمة وقام جمهور من اباء الكنيسة وكتبة تلك الاعصار يحاربونها بتآليفهم العديدة التي وصلت الينا ولا نرى لا في اعمال هذه المجامع الخاصة ولا في كلام الائمة المشار اليهم اقل ذكر لمارون كمبتدع لهذا المذهب ولا للموارنة كاشياع له فكيف يسوغ والحالة هذه ان يعتمد على شهادة ابن البطريق في هذه القضية

وهو من كتبة القرن العاشر ؟ بل كيف يمكن التسليم بصحة كلامه في حق مارون الراهب والمنتسبين اليه وهو لم يسبق الى مثل هذا الاختراع وتاريخه مترع بالترهات والاساطير التي لا يقبل بها احد من العلماء ؟

ثالثاً . فاذا تقرر ذلك نريد ان نسأل حضرة الاب شيخو ما هي قيمة شهادة بولس الراهب اسقف صيدا التي ذكرناها عنه في مستهل هذا الرد وبولس هذا على رايه من كتبة القرن الرابع عشر ؟

ونحن نقول له انه اذا تطرف احد الى اتهام الموارنة بالمنوثيلية في القرون المجهولة مما تقدم القرن العاشر خاصةً فهو معذور لنقص الآثار التاريخية وان كان تطرفه هذا غير معقول للقاعدة الشرعية بان حق المستولي اولى لكن العجب كل العجب في توجيه مثل هذه التهمة اليهم في القرن الثالث عشر او الرابع عشر مع ان البراهين الدامغة والشواهد التاريخية الراهنة مستفاضة في هذه القرون المتأخرة على اثبات عقيدة الموارنة الكاثوليكية الرومانية مما لا يختلف فيه اثنان . فكيف يكون اذاً لشهادة بولس الراهب هذه اقل نصيب من الصحة وهي لم تتجاوز القرن الرابع عشر كما ذكرنا آنفاً . ولهذا لا نرى مجالاً بعد الذي قلناه حتى الان الى الدخول في بيان فظاعة مثل هذا الافتراء على الحقيقة التاريخية وعلى امة ابت ان تفتري على احد من الطوائف الشرقية وغيرهم ممن والتهم في كل حين جهدها وبذلت لهم من الحب المسيحي الاخوي ودلائله الفعلية ما لا سبيل الى انكاره والاثار الباقية بقاء الدهر تدل عليه احسن دلالة . بل نراها على الدوام قد اقتصرت على المدافعة عن كرامتها المعرضة للاهانة والذود عن حياضها في امر تفتخر به بكل حق وصواب وهو لا يمس احداً ولا يحط من قدر احد ولا يضر اقل ضرر باي كان من الناس حتى يتعرض لمقاومته بعنف وتعصب الى حد العمى عن الحقيقة

بيد انا نتخذ هذه الشهادة الجديدة برهاناً جديداً على احد امرين

اي اما ان الكتبة المتاخرين خلصةً من ايام سعيد بن بطريق فصاعداً بسبب كرههم للموارنة الذين خالفوهم في كل الاحوال المدنية والدينية واتصلوا بكنيسة رومية منفصلين تمام الانفصال عن الكنائس الشرقية فقد نطرف خصومهم هؤلاء عليهم بمثل هذا الافتراء غير ملتفتين الى الحقيقة او انهم رغماً عن وجودهم بين ظهراني الموارنة وفي جوارهم لم يدققوا البحث في امر مذهبهم وعوائدهم ومعتقداتهم وتاريخهم شان المؤرخين الشرقيين على الخصوص بل اكتفوا بما كانوا يتوهمونه فيهم على علاته او بما تلقوه عن مثل سعيد بن بطريق كما فعل صليبا الموصلي او بولس الراهب الذي نحن بصدده (اذا صح ان يكون كلامه قد سلم من تحريف النساخ المتعصبين كما جرى لغيره) . وهذا اقرب الى الصواب لسهولة وقوعه لمثل هؤلاء الكتبة الذين كتبوا ما كتبوا عن الموارنة دون ان يعرفوهم عن كثب مستسلمين الى الظن والوهم كما يرشد العقل السليم

والظاهر انهم عرفوا لا محالة ان الموارنة لم يكونوا نساطرة ولا يعاقبة ولا ملكيين فقالوا عفواً بانهم منوثيليون لانه لم يبقَ من المذاهب الشرقية تاريخياً غير هذا ولو كان قد مات ودفن وذهب ذكره مع الدوي منذ عهد بعيد حتى ان سعيداً بن البطريق نفسه المشهور بترهاته واختراعاته لم يذكر الموارنة مثل منوثيليين في عصره بل جل ما قال فيهم وهو اول من افترى عليهم هذا الافتراء انهم كانوا كذلك في عهد موريقي وبعده حتى المجمع السادس بدليل الذين ذكرهم من ائمة هذا المذهب وسماهم موارنة وهو يريد « منوثيلية » كهرقل الملك وانوريوس بابا روميه وقورش وسرجيوس وبيرس ومكاريوس ومكدونيوس وغيرهم على ما ذكر آنفاً انما كانوا قبل المجمع السادس المشار اليه اما بعده فلم يأتِ بذكر الموارنة كمرادفين المنوثيليين قط وفي كل حال لم يأت على اقل ذكر لموارنة جبل لبنان كما يرى من راجع تاريخه .

اخيرًا بقي علينا ان نسأل حضرة الاب شيخو ما المراد من قوله في الفقرة التي وصف بها كتاب صليبا الموصلي « وخص بالذكر الموارنة ومن تبعهم » ؟ ألعلّ صليبا المذكور ذكر السريان والنساطرة بالعرض حتى يتطرق لذكر الموارنة الذين فصل امرهم تفصيلًا اوفى مما ذكر عن اولئك بل جعله كفرضة من الكلام عن الطوائف الشرقية بحيث يمكن ان يقال انه « خص الموارنة بالذكر » ؟ والاَّ فما المقصود من هذا التعبير الذي ليس بمحله ؟ ثم ما معنى قوله في هذه العبارة عينها « ومن تبعهم » مع ان عبارة الموصلي التي اثبتها تقول « واكثر من تبع مارون » لا الموارنة ؟ وتحمل على محمل كلام ابن البطريق الذي ذكرناه آنفًا لا على الموارنة كأمة ممتازة عن باقي الطوائف الشرقية كما هي الان . ولكن ما كان هذا الا لتقوم حجتنا عليه كما يرى كل منصف . والذي يزيد ذلك بيانًا احتكام حضرته بتفسير لفظة « بسري » في كلام الموصلي بلفظة « بشري » التي وضعها بين هلالين ليتحصل من ذلك ان اهل جبل لبنان كانوا من الذين تبعوا مارون المبتدع على رايه الذي بينه وبين الحقيقة عداوة شديدة والاَّ فما الذي سوغ له مثل هذا التفسير ولا قرينة تدل عليه ولو اراده الكاتب لكان اولى به ان يقول اهل جبل لبنان او بعضهم . ثم لماذا لم يبدل حضرته هذه الكلمة بقوله « قنسرين » التي ربما كانت تصحفت على الناسخ وهذا البدل يرشد اليه ما جاء في رواية ابن البطريق التي نقلها الموصلي بحروفها ؟ فليفتنا مأجورًا .

وهذا ما راينا ان نثبته في هذه العجالة عن حسن قصد خدمةً للحقيقة وبه الان غنىً ان شاء الله تعالى

اصلاح ما في هذا الكتاب من الاغلاط المطبعية

صفحة	سطر	خطا	صواب
١١	٦	السورية	لسورية
١٢	١٦	وضعنا	وصفنا
١٢	٢٠	بيانه	بيان
١٧	١٢	الخيل	الجيل
١٩	٥	يوهم	يدعم
١٩	٢٢	دخلاء لبنان	دخلاء في لبنان
٢٦	١٢	لقرى	بقري
٣٢	١٨	وابينار بس	وابلينار بس
٣٤	٢١	(بيت)مارابا»	بيت مارابا»
٤٣	٤	فابنوا	فبنوا
٤٧	١٣	مقالته	مقالة
٥٠	٢٦	لنصب	لقصب
٥٥	٢٥	الطائفتين	طائفتين
٥٦	٣	الملكية	اليعاقبة
٥٦	١٠	ووافق	ووافقوه
٥٦	١٧	لتشيعهم	لتشييعهم
٥٧	١٤	المناظرة	اليعاقبة
٦٤	١٨	يفرز	يعزز
٦٥	١	واحكمهم	واحلامهم
٧٠	٩	الملك	الملك
٧٠	١٩	الاماني	الامان
٧١	١٣	بطريرك	بطريق
٧٩	٢	كما	مما
٨٠	٢	تدقيق	توفيق
٨٢	١٢	يقول	بقوله
٨٥	٢٠	٦٩	٦٩٠
٨٧	٥	من ادرك	ممن ادركوا
٨٨	٥	يخضعوهم	يخضعوها
٩٠	٨	[illegible]	[illegible]
٩٧	٢٢	استحسانا	استمساكاً
١٠١	٤	بمعناه	ما بمعناه
١٠١	١٠	الفوازي	الفواري
١٠٩	١٣	تبادر	يتبادر
١١٠	٢٠	المرديط اي	المرديط الى
١١٢	٣	جيلار	جيلان
١١٢	١٦	اليها هنا	اليها
١١٦	١١	حكمية	حكيمة
١١٧	٥	نقلناه	نقلاه
١٢٥	١	انتهيا	انتهينا
١٣٤	٢	على	عن
١٣٥	٥	على	عن
١٤٣	١٦	تفريقاً	تعريفاً
١٤٨	٩	ضد	صد
١٥٧	٢٤	نيوتيست	تيوتيست
١٥٩	١	لا يغفر بوس	لا يغفر يوس
:	٢٠	ام لا	ام لا يزال
١٦٠	٤	مقاماً	ومقاماً
١٦٨	١٦	فتوجد	فتوجه
١٧١	٦	هو	هي
١٧٤	٢٣	حرص	حرس







ARI طلب 58

المنقل 48

عضازاده 40



كتاب

البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة

للمطران يوسف دريان

رئيس اساقفة طرسوس

والنائب البطريركي الماروني

عُني عنه

دار كنعان